فجر التاريخ

تأليف

ج . ل . مايرز

ترجمة

علي عزت الأنصاري

مراجعة

د. عبد العزيز كامل

الكتاب: فجر التاريخ

الكاتب: ج . ل . مايرز

ترجمة : علي عزت الأنصاري

مراجعة : د. عبد العزيز كامل

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

مايرز ، ج . ل .

فجر التاريخ / ج . ل . مايرز، ترجمة : علي عزت الأنصاري ، مراجعة : د. عبد العزيز كامل – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٤٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٩٣٧ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٥٤٩٠ / ٢٠١٩

فجر التاريخ





هذه ترجمة كتاب

The Dawn of History

J. L. Myres

تقديم

(١)

في الإنسان حنين دائم إلى معرفة فجر حياته على هذه الكوكب، وكيف استطاع آباؤه أن يقيموا حضاراتهم الأولى، وأن يتفاعلوا مع ظروف بيئاتهم المتغيرة.

وكان الغموض –ولا يزال– يكتنف هذه الصفحات الأولى من سجل الحياة البشرية بحيث لا يدع إلا بصيصًا ضئيلًا من النور ينفذ إلى أغوارها ويجلي معالمها. ومر على هذه الصفحات حين من الدهر عدا عليها بالتخريب، والإهمال، والنهب، وبعد بها عن العهد، فأصبحت كتاباتها أمام العين طلاسم وأخبارها تغشيها الأساطير.

واستطاع الإنسان في العصور الحديثة أن يزيل الحجب عن بعض هذه الأسرار. ففك رموز الكتابات المصرية، وحضارات ما بين النهرين، ونشط في البحث عن حضارات البحر المتوسط والشرق الأقصى، وأمريكا الوسطى، والجزائر الاستوائية في المحيطين الهندي والهادي. وما زال يكشف في كل هذه المناطق آثارًا جديدة. ومن هذا الجديد ما استطاع فك رموزه، ومنه ما زال غامضًا حتى الآن.

وكل كتاب عن فجر التاريج يمثل مرحلة من مراحل تطور علمنا بهذا الموضوع المتشعب. ومهما كانت حداثة الكتاب. فسيخلى مكانه بعد فترة –لكتاب جديد–، وتبقى للكتاب السابق قيمته كمرحلة من مراحل تطور العلم.

وهذا الكتاب –فجر التاريخ– ألفه الأستاذ ج.ل.مايرز. وصدرت طبعته الأولى عام ١٩١١م وتوالت طبعاته بعد هذا حتى بلغت إحدى عشرة طبعة عام ١٩٣٧م، وهي التي اعتمدت عليها هذه الترجمة.

وكان الأستاذ "مايرز" أستاذًا للتاريخ في جامعة أكسفورد. واستمر إنتاجه العلمي من عام ١٨٤٩م حتى قبيل وفاته عام ١٩٥٤م. ومن أحدث كتبه " التاريخ الجغرافي لبلاد الإغريق " وصدر هذا الكتاب عام ١٩٥٣م، وبه ثبت بمؤلفاته الكبرى، وتشغل الصفحات من ٣٥١ إلى ٣٨١. وكتب الأستاذ دنبالين ترجمة لحياته وعرضًا لأعماله العلمية في أعمال الأكاديمية البريطانية، المجلد الحادي والأربعين يشغل الصفحات من ٣٤٩ إلى ٣٦٥، كما نشرت (جريدة التيمس) نعيه، وعرضًا موجزًا لحياته وأعماله في عددها الصادر في ٨ مارس سنة ١٩٥٤م [١] .

[١] من خطاب بعث به ابن الأستاذ مايرز إلى المترجم في ١٠ يوليو ١٩٦١م.

(٢)

ويمتاز هذا الكتاب بالإحاطة والشمول وإبراز الملامح الرئيسية للبيئات والأحداث التي يعرضها . ويعني بتأثير العوامل الجغرافية والتاريخية . ويوجه عناية كبيرة إلى التطور البيولوجي للحضارات.

وللمؤلف ترجيحات وآراء تستوقف النظر وتحتاج إلى الاستدراك، فمايرز يميز بين العرب والمصريين. ويرى أن سكان وادي النيل ينتمون أصلًا إلى الجنس البربري، وأنه من العسير أن نتبين الاختلاط بين سكان مصر والعرب سواء في العصور الوسطى، أو القديمة. ويبرز تأثير الحضارات المجاورة في الحضارة المصرية القديمة. ويميز –جنسيًا– بين سكان الدليا والصعيد. وأن بعض الطفرات التي حدثت في تاريخ مصر القديمة ترجع إلى عناصر وافدة.

(٣)

والاستدراك على هذه الآراء والترجيحات ليس قضية جزئية تتعلق بكتاب فن فجر التاريخ. ذلك لأن النهضة العربية الحديثة اقتضت مراجعة شاملة لتاريخنا، وحضارتنا، ومقوماتنا الثقافية، وكانت العناية بالحضارات القديمة –من قبل– تكاد تكون وقفًا على المستشرقين من علماء الغرب. ولم يكن لأبناء الشعوب التي سيطر عليها الغرب في آسيا وإفريقيا جهد واضح في هذا المجال. ولا يمكن أن نقلل من أهمية ما بذله هؤلاء العلماء في هذه السبيل، ولا ما امتاز به نفر منهم من إخلاص علمي نادر. ولكن وراء

هذا كله تبرز حقيقة كبيرة: هي واجب أبناء هذه الشعوب نحو تاريخها وحضاراتها. وتمر القارتان العتيقتان –آسيا وإفريقيا– الآن في مرحلة كشف علمي جديد، يعيد النظر في التراث العلمي، وينقده على أساس موضوعي، ويلقي الأضواء على الجوانب التي ما زالت غامضة فيه، ويرد الشبهات، ويصحح تفاعلها مع بيئاتها الطبيعية ومع بعضها البعض.

من هذه الزاوية يمكن أن نعرض لبعض آراء "مايرز" التي تتصل بوطننا العربي مستندين في ذلك إلى مؤلفات عربية حديثة أهمها تاريخ الحضارة المصرية الذي تصدره وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

(٤)

ففيما يتعلق بسكان وادي النيل الأدنى يمكن القول بأن أول دور بدأت تتركز فيه الحياة في مصر كان في العصر الحجري القديم الأعلى. وقد عثر من هذا العصر على بقايا من عظام السكان في منطقة حوض كوم أمبو. وكانت قريبة الشبه في تكوينها من عناصر سكان ما قبل الأسرات. وهذه السلالة التي عمرت مصر في مطلع عهد الأسرات، إنما ترجع أصولها في وادي النيل الأدنى إلى عهد يسبق ذلك ببضعة آلاف من السنين. وكانت قد استقرت في مصر، واشتغلت بالزراعة وتربية الحيوان، وعثر على عظامها في الصعيد وغرب الدلتا، وتبين أن سكان الشمال كانوا من سلالة البحر المتوسط التي تمتاز باستطالة الرأس واعتدال القامة. وأما في الصعيد فقد كان السكان من السلالة ذاتها، ولكنهم امتازوا أيضًا باستعراض الوجه

نوعًا ما، وقوة الفك وبروز عظام الحواجب، كما أنهم اختلطوا بعد قليل ببعض العناصر الإفريقية التي تقطن الآن شرق السودان [٢].

وخلال عصر ما قبل الأسرات استمرت صفات السكان في التنوع، فأصبح عنصر الشمال وعنصر الجنوب يمثلان نوعين من سلالة واحدة لكل منهما صفاته المتميزة إلى جانب الصفات المشتركة بين الاثنين. ولكن السكان جميعًا كانوا جزءًا من سلالة البحر المتوسط، تلك التي انتشرت في بلاد العرب وغرب آسيا (فيما عدا هضاب الأناضول)، وفي ساحل إفريقيا الشمالي، وبعض أطراف إفريقية الشرقية، كما انتشرت كذلك في السواحل الجنوبية لاسيما في غرب البحر المتوسط [٣].

وقد ذهب بعض المشتغلين بالدراسات المصرية القديمة –منذ مطلع القرن العشرين– إلى حدوث اختلاط جنسي في مطلع عهد الأسرات، وأن بناة الأهرام –كانوا شعبًا غالب ذكي، جَلب إلى مصر معرفة البناء بالحجر، والنحت، والتصوير. واستندوا في هذا كله إلى زيادة حجم الجمجمة عند بناة الأهرام.

هذا الاتجاه الذي ظهر في مطلع هذا القرن تقوم ضده اعتراضات كثيرة دعت بعض من قالوا به، أو رجحوه في أول الأمر إلى الرجوع عنه –كالأستاذ إليوت سميث–؛ إذ يقرر: "أن المعرفة الجديدة المستخلصة من

---

[٢] سليمان حزين : البيئة والإنسان والحضارة في وادي النيل الأدنى: المجلد الأول من تاريخ الحضارة المصرية ص ٢٨ – ٢٩ (وزارة الثقافة والإرشاد القومي).
[٣] نفس المرجع ص ٢٩.

جبانات بلاد النوبة قد أوضحت بجلاء أنه في الألف الرابع قبل الميلاد كانت هناك سلسلة من الأقوام منتشرين على نهر النيل كانتثار حبات العقد على خيط. وقد امتد انتشارهم جنوبي مصر حتى بلغ بلاد الزنج"[4].

وعاد هذا الاتجاه إلى الظهور مرة أخرى، وذهب إليه الأستاذ دري. وقد ناقش الدكتور البطراوي آرائه مستندًا في ذلك إلى الأبحاث الحديثة التي قام بها في منطقة النوبة، وإلى أبحاث أخرى. وبين أن الفروق التشريحية بين شعب الشمال –وكان مُركزًا في مصر الوسطى ما بين رأس الدلتا والفيوم– وشعب الجنوب الممتد إلى حلفا كانت محدودة . وترجع إلى عزلة بيولوجية لا إجتماعية، أو سياسية، وظل هذا حتى عهد الدولة الوسطى، ثم اختلط سكان الشمال والجنوب اختلاطًا متينًا نتج عنه تغير في الصفات التشريحية.

(٥)

أما عن التفاعل الحضاري بين المصريين، وحضارات الرافدين، وأيهما حقق تقدمًا أكثر من الآخر في فجر التاريخ، فيمكن القول بأن كلاً من سومر ومصر وصلتا بجهودها المستقلة إلى درجة متقدمة من الحضارة، وأنهما اتصلتا قبيل الأسرة الأولى وفي أوائلها، وأعجبت مصر بفن سومر في العهد المسمى بعهد "جمدة نصر" في بلاد الرافدين وبعض مظاهر حضارتها، واقتبست منها شيئًا من طريقة رسم الحيوانات، وأخذت عنها

[4] يراجع في عرض هذه الآراء والرد عليها.

الختم الأسطواني وبعض المظاهر الفنية، ولكن العناصر الأساسية لحضارة مصر ظلت مصرية صميمة نشأت في وادي النيل. ولهذا لم تلبث حتى تركت من تلك المظاهر ما لا يتفق مع حضارتها وذوقها وعدلت فيما قبلته منها. أما "الكتابة" فإن كلاً من مصر وسومر قد توصلت إليها مستقلة عن الأخرى. وربما كان اكتشافها في وقت متقارب جدًا بين البلدين [٥].

(٦)

يبدو من هذا العرض وحدة الجنس بين المصريين والقدماء والعرب، وأنهم جميعًا ينتمون إلى جنس البحر المتوسط. وصلة سكان الجزيرة العربية بمن حولهم كانت من قديم قائمة على الوساطة التجارية بين الإقليم الموسيمي ذي المطر الصيفي في الجنوب، وإقليم البحر المتوسط ذي المطر الشتوي في الشمال. وفي هذا اختلفت طبيعة صلاتهم بمن حولهم عن صلة سكان مراعي وسط آسيا.

وقد ظلت الجزيرة العربية بوتقة بشرية كبيرة تدفع من حين إلى آخر دماء جديدة في صورة هجرات بشرية إلى أرض الرافدين، والشام، ومصر، وجمعت هذه النبضات –من قلب الجزيرة– السومريين، والكنعانيين، والآراميين، ثم جاءت النبضة الإسلامية فكانت أعمقها تأثيرًا واستطاعت أن توحد الإقليم لغويًا وحضاريًا من المحيط إلى الخليج، ونشرت الإسلام إلى المحيط الهادي قلب آسيا، وإفريقيا، وجنوب أوروبا.

---

[٥] أحمد فخري . مصر ومكانتها من العالم القديم . المجلد الأول من تاريخ الحضارة المصرية ص ٦٠١ .

(٧)

وتبقى بعد هذا مشكلة أخرى: هي أن الكتّاب العرب لم يتفقوا حتى الآن على طريقة موحدة لكتابة الأعلام الأعجمية والقديمة. وما زال لكل كاتب جهده الخاص في التعريب. ومع أن مجمع اللغة العربية في القاهرة والمجامع العربية الأخرى تقوم بجهود مشكورة في هذه السبيل، إلا أن توالي الكشوف الأثرية والتطور العلمي يلقى كل يوم عبئًا جديدًا على هذه المجامع، ويدعوها إلى نشر قوائم للأعلام والمصطلحات في شتى نواحي المعرفة الإنسانية على تنوعها واتساع مجالاتها.

وقد بذل المترجم والمراجع ما وسعهما من جهد في تحقيق الأعلام والرجوع إلى المصادر المختصة في الحضارات الكثيرة التي عرض لها الكتاب. ولا يخلو عمل بشري من قصور.

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة إلا أن أنوه بالجهد الصابر الكريم الذي بذله الأستاذ المترجم، كما لا يفوتني إزجاء الشكر للإدارة العامة للثقافة بوزارة التعليم العالي لنشر هذا الكتاب.

عبد العزيز كامل

الدقي ٢٩ أكتوبر ١٩٦٢م.

مقدمة المؤلف

التاريخ في أوسع مدلولاته: هو دراسة الأحداث، وكشف ما يقع منها وتسجيله. والفكرة التي تنطبع في أذهاننا إذا تحدثنا عن التاريخ الطبيعي مثلا ليست سوى دراسة ما يحدث في الطبيعة وفي العالم الذي يحيط بنا.

"والعلوم التاريخية" في مدلولها الضيق هي العلوم التي لا تعتمد على التجارب العملية في استنباط حقائقها، ولكنها تقتصر على دراسة ما يقع في الأحداث حسب تتابعها الزماني الذي يتفق وقوعها فيه. وعلى ذلك فإذا قصصنا بعض الأمور في ترتيبها "التاريخي" فإنما نبين توزيعها الزماني تمامًا كما نبين تنظيمها الجغرافي عندما نصف توزيعها المكاني. هذا المعنى هو الذي يجعل علم التاريخ وعلم الجغرافيا توأمين، يعني كل منهما بترتيب الأحداث، وأسباب هذا الترتيب ونتائجه.

ولكن جرت العادة أننا إذا تكلمنا عن التاريخ، فنحن لا نعني التاريخ الطبيعي، وإنما نعني تسجيل أعمال البشر. ومع هذا فكثير من أعمال الناس لا ينال من علماء التاريخ إلا عناية قليلة، إلا إذا كان موضع دراسة خاصة كالأدب، والموسيقى، والحروب حتى أن المؤرخين ألحقوا دراسة تاريخ الجنس البشري بعلم الإنسان (الانتروبولوجيا)، كما ألحقوا سلوك الإنسان في الجماعة بعلم آخر "هو علم أجناس البشر" اثنولوجيا

KEthnology، أو أهم بحوث هذا العلم: وهو ما يسمى عادة بعلم الاجتماع وهو في رأيي تسمية ثقيلة فجة.

وليس من الهين تحديد خط فاصل بين علم التاريخ وبين هذه الدراسات، ومن المفيد هنا أن نذكر أننا إذا قصدنا الإيجاز في عرض حقيقة تاريخية أوجزناها في "اسم وتاريخ"، فالفتح النورمندي مثلا نوجزه إيجازًا مقبولا في كلمتين "وليم الأول ١٠٦٦". كما نعبر عن تركيب الماء بالرمز الكيميائي يد ١٢ وهاتين الحالتين لا يدل الرمز على معلومات كثيرة من حقائق الموضوع، كما لا يعد مطلقًا بديلا من المعلومات الخاصة بها. ومن أهم الأسباب التي تجعل دراسة التاريخ مملة لدى المبتدئين فيها: أن بعض الناس يعدون "الاسم والتاريخ " بديلين من دراسة الحقائق ومعرفتها. والاسم والتاريخ لا تعدو فائدتهما أن تكون مجرد "تذكرة تاريخية".

ومع ذلك كيف نستطيع أن نحقق الترتيب الزماني الذي وقعت فيه الأحداث، أو الفترات التي تفصل بعضها عن بعض، أو طوال العهود المختلفة، ما لم يكن لدينا معلومات وحقائق يمكن الاعتماد عليها على وجه من الوجوه؟ن

وكيف نعلم حقيقة ما حدث ما لم نعلم أسماء الشعوب والأمكننة وعلى الأخص أسماء الأفراد، ومن الذي قام بها؟ وأين وقعت؟ ومن أسهم فيها من الشعوب الأخرى أو تأثر بنتائجها؟

ومن المعروف في علم التاريخ العادي أن أسماء الأفراد وأعمالهم هي من أهم حقائق هذا العلم، وبلغ من الاعتقاد بصحة هذه الحقيقة أن عُرِف التاريخ بأنه دراسة لتأثير عظماء الرجال. وإنا لنعلم كذلك أن الشطر الأكبر من التاريخ تسجيل ظاهرات التغير لا الثبات. ولذلك كانت عنايتنا بعظماء الرجال راجعة إلى أنهم عوامل تقوم بالتغيير، أو يحدث التغيير عن طريقها. وقلما يدرك الناس –في مقابل ذلك– أن الظروف لا تهيئ للشعوب البدائية إلا أضيق الفرص؛ لتغيير وسائل معيشتها، فكل شيء عندهم محدد. وتتحكم فيه عاداتهم الصارمة، فهم يخشون التجديد والمجددون عندهم مكروهون. ولا تقوم لهم قائمة. على هذا الأساس لا يكاد يتسع المجال لظهور "عظيم" في الجماعة البدائية إلا كما يتسع لظهور فرد عظيم بين جماعة من القردة، إن مثل هذه الجماعة من الناس –على الرغم من أن أفرادها كائنات عاقلة– فإن لبيئتهم من ناحية، ولشيوخهم من ناحية أخرى سلطانًا عليهم يربطهم إلى نمط موحد في طريقة معيشتهم، لا تبديل فيها إلا كما تتبدل عادات الحيوان تبعًا لتغير بيئته، أو أهم من ذلك تبعًا للوسائل التي يحصل بها على قوته. ليس إذن لمثل هذه الجماعة تاريخ اللهم إلا التاريخ الطبيعي الذي به بدأنا، وفيه متسع لأعمال جميع الحيوانات على السواء.

وبعد فمن عاداتنا أن نذكر أيام ما قبل التاريخ ونحن بذلك نعترف أن هنالك أطوار في سلم ارتقاء الشعوب "التاريخية" لم تصل إلى علمنا لسبب بسيط: هو أن أسلاف هذه الشعوب "التاريخية" لم تصل إلى علمنا لسبب بسيط: هو أن أسلاف هذه الشعوب لم تخلف لنا عنها خبرًا يصل

إلى علمنا، وليس لنا في دراسة عهود ما قبل التاريخ إلا أن نركن إلى ما نكشفه استناجًا في الآلات، والمساكن، أو الأعمال الفنية التي بقيت – دون تلف– إلى الوقت الحاضر. ومع استطاعتنا في أغلب الأحيان أن نستنتج التتابع الزمني لما نعثر عليه من المخترعات، وما لحقها من التحسينات، وما حدث في ذلك العهد من تطور، فنحن أبعد ما نكون عن أن نكشف لها اسمًا، أو تاريخًا.

ولكن إذا انتقلت الشعوب في عصور ما قل التاريخ ذات الحياة الرتيبة البدائية –بل الحياة الحيوانية– إلى الوجود التاريخي، بما يسايره من تطور في العادات والنظم، رأينا هذا التطور يحدث تدريجيًا لا فجأة تقوم به –بين الفينة والفينة، أو في فترات متقاربة– شخصيات تاريخية. وكثيرًا ما نعرف عن فن شعب من الشعوب، أو تجارته، أو صناعته قبل أن نعرف كثيرًا عن لغته، ونظمه في الوقت نفسه. فإن معظم الشعوب الذين قاموا بأدوار هامة في التاريخ بدءوا حياتهم التاريخية في الواقع بما يشبه الأزمة في فترة من التغيير السريع.

من هنا وعلى هذا الأساس نستطيع أن نتحدث عن "فجر التاريخ" كمادة لها دراستها العلمية، ويستهدف هذا الكتاب إجابة السؤال الآتي: كيف، ومتى، وأين ظهرت في التاريخ البشري الشعوب التي كانت أعمالها أعمق تأثيرًا على مجرى التاريخ؟. كما نرجو أن نبين –ما استطعنا– السبب الذي من أجله أخذت لها ذلك المظهر الخاص في التاريخ.

الفصل الأول

الشعوب التي لا تاريخ لها

التاريخ كله –إذن–: هو سجل لأعمال البشر. هو سجل لكفاح الإنسان مع الطبيعة، ومع غيره من الناس. ولكنا رأينا من قبل أنه ليست كل الأعمال التي قام بها البشر تعتبر تاريخًا –بالمعنى الضيق والشائع– وهناك شعوب، أو بعبارة أدق، هناك جماعات من الناس ليس لهم "تاريخ" بالمعنى المتقدم، وفي وسعنا أن ندرك إدراكًا أوضح ماهية التاريخ، وكيفية إضفاء الصفة التاريخية على أعمال الشعوب إذا نحن ألقينا نظرة على أمثلة مستمدة من الشعوب غيرن ذات التاريخ.

وليس علينا إلا أن نلقي نظرة على نموذج الكرة الأرضية أو على خريطة للعالم؛ لندرك أن كل المؤرخين في الواقع قصروا همهم على مناطق صغيرة جدًا من العالم. إن تسعة أعشار كتب التاريخ تعني بأعمال الأمم الأوروبية، والمهاجرين من أوربنا، ويعني معظم كتب العشر الباقي بأقاليم قليلة غير أوربية: كمصر، وآشور، وبابل، والهند، والصين، واليابان (حديثًا)، وفي الوقت نفسه هناك مساحات شاسعة لم تكتب عنها أية

مؤلفات تاريخية، والسبب واضح؛ إذ ليس فيها أعمال بشرية تدعو المؤرخ إلى اتخاذها موضوعًا لكتابته.

وقد يكون هناك سبب لذلك، فهناك دائمًا –في كل الحالات– توزيعات جغرافية أخرى يمكن أن تلقي الضوء على هذا التوزيع الجغرافي الغريب للمناطق ذات الأهمية التاريخية، منها توزيع الأمطار الذي يحدد موارد المياه على سطح الأرض. فالطرف في زيادة المطر وقلته لا تتفق وقيمة الإقليم التاريخية، ويظهر مدى هذا الارتباط إذا استعرضنا حياة الناس في المناطق الصحراوية التي يندر فيها سقوط المطر، وحياتهم في مناطق الغابات حيث يسقط المطر في معظم أيام السنة. لقد اخترت هذين المثالين المتطرفين من بين كثير من الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بهما؛ لبساطتهما وللتباين الكبير بينهما، ولسبب أهم في نظري من هذين السببين، يبدو أن كل المجتمعات السياسية التي استوطنت في العصور القديمة حول البحر المتوسط، وفي العصور الحديثة في أوروبا قامت بعد أن تهيأت ظروف خاصة للجماعات التي بدأت حياتها في المراعي.. واضطرت هذه الجماعات، أو رغبت في الهجرة إلى مناطق أوفر ماء ونباتًا، وأقرب إلى البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وحملوا معهم نظمهم، وعاداتهم العائلية، وطرق معيشتهم، وكانت ضرورية لهم في منطقة المراعي، ولكنها لم تعد بطبيعة الحال ملائمة كل الملائمة لحفظ الحياة والرقي بها في المناطق الجديدة التي هاجروا إليها.

ولننظر الآن في حالة الجماعات البشرية في المراعي والغابات –لا عندما يعتري حياتهم العادية أي اضطراب– ولكن كمثالين للتوازن القائم في الصراع بين الطبيعة والإنسان.

إذا انتقلنا من أية منطقة غزيرة الأمطار إلى منطقة لا تكفيها أمطارها رأينا آثار هذا الانتقال على الحياة النباتية، والحيوانية، والبشرية متكررة في كل أنحاء العالم. فأشجار الغابات التي ترى في أحراش متعانقة يحل محلها أشجار مبعثرة في متسع من الأرض تكسوه الحشائش، ثم تقل الأشجار عندما يحول الجفاف دون تكاثرها، وتدع مكانها للأحراش دائمة الخضرة التي تحتمل وطأة الحرارة. ثم تنقطع هذه، فلا يرى إلا الحشائش دون غيرها من النبات، ومن الحيوان يختفي غزال الغابة، والخنزير الوحشي، ويحل محلها البقر الوحشي، والمعاز. كما يحل الأسد والفهد ذوات اللون الأغبر الذي يعينهما على الاختفاء في الحشائش اليابسة محل الحيوانات المفترسة كالذئاب والدبة. أما الإنسان –وليس القدرة على أن يقتات بالسعتر، أو العشب– فهو لا يقتحم هذه الأماكن الجافة إلا كعدو ومغامر (كالبوشمن، وذوي البشرة الحمراء من سكان المراعي)، أو كضيف متطفل في الواقع على حيواناتها الأخرى. ولن نقف طويلًا عند الإنسان المغامر بين فلاته، وعشبه حتى ولو كان لديه كلب يعاونه كسكان أستراليا الأصليين، فإن الخطر محيط به، فحظه في الحياة يستدر الرحمة، ويقال أنه عند القليل من الهنود الحمر –سكان البراري الأمريكية– من السرعة وقوة الجلد ما يمكنهم من البطش بالغزال، أو الجاموس الأمريكي Bison، فإذا كان في منطقة خالية من الأشجار فهو في الواقع أعزل ولا سلاح له يحميه. ومعظم

حيوانات أرض الحشائش من الأنواع التي تمتاز بسرعتها في الحركة، وليس في استطاعة الصياد أن يدنو من أي حيوان إذا لم يتوافر له ساتر.

والسبيل الوحيد التي يجب أن يسلكها الإنسان ليستطيع سكنى أرض الحشائش هي استئناس الحيوانات آكلة النباتات؛ ليشرب ألبانها، ويطعهم الفائض من لحوم صغارها. وهكذا يظل متنقلًا في أثر قطعانه من مرعى إلى مرعى، وبذلك ينشئ له –على حد تعبير أرسطو الخالد– "مزرعة متنقلة" يقيم بها أوده، ويحفظ حياته، ويقي بها نفسه هلاكًا محققًا، حتى بدأ يمتهن الزراعة –وحدث هذا منذ أمد بعيد– بعد توفيقه إلى تآلف الحيوان لم يعد عالة على الحيوانات التي يعني بتربيتها وتمده بألبانها. إنه الآن يقيها عائلة الحيوانات المفترسة، بل لعله هو الذي يعينها على اختيار مرعاها، ولكن على العموم ما عليه إلا أن ينقاد لها في هجرتها التي تنزع إليها بغريزتها إبان السنة، وأن يستمد منها طعامه اليومي عند عودته صباحًا ومساءً طلبًا للراحة. أما الحصان فهو سيد الموقف، فرغم أنه يمد صاحبه بالغذاء ويحمله من مرعى أخضر إلى مرعى آخر، لا يتجاوز الحدود التي يجد فيها غذاءه. أما الجمل فهو وحده الحيوان الذي يحمل في أحشائه تموينه وإن كانت لا تفيد الراكب نفسه.

وهناك أمر يستطيع الإنسان أن يقوم به، وقد قام به فعلًا؛ ذلك هو اختيار أصلح السلالات لتحسين ما يدره الحيوان من ألبان، وما ينتجه من أشعار وأوبار. إلا أن تحسين المراعي فوق قدرة الإنسان. والواقع أنه من الأفضل له ألا يعبث بالغطاء الرعوي ولو بالمكث الطويل في مرعى

بعينه. وأسوأ من ذلك أن يقصد إلى إبادة المرعى. وغير خافٍ أن الزراعة –في هذا الأمر– غير ذات موضوع.

هذا وليس لأية مهارة مجال حتى تكون مجدية في تدبير صناعات إلى جانب الصناعات القديمة. ذلك لأن المواد الخام اللازمة للصناعات نادرة ندرة الشعور بالحاجة إلى هذه الصناعات، ويجب على الراعي –قبل كل شيء– أن ينتقل بما خف حمله حتى لا تشغله إلا شئون المرعى. وعلى هذا يكتفي بالحد الأدنى من الأثاث، والأدوات: وهي مواد يسهل استبدالها في أي مرحلة من رحلته كالصوف، والشعر، والجلد، والعظام ، والأوتار التي تؤخذ من الغنم والماعز، والقصب، والأخشاب الضئيلة التي تجاور مجاري المياة، ويتخذ الراعي ملابسه من الجلد، أو من أبسط المنسوجات التي لا يستخدم فيها إلا الأنوال الخفيفة. أما أدواته فلا يكاد يستعمل إلا سكينًا ومكشطًا للجلود، ومغزلًا وعرنوسًا للصوف، وآنية وأوعية من الجلد لمنتجات الألبان، ومن الأسلحة لا يحمل إلا منخاسًا، ومقلاعًا، وحبلًا. ومن الصالح المشترك للرعاة أن يتباعدوا فلا يقع بينهم صدام، وفي المراعي متسع للجميع.

في مثل هذه الظروف لا تكاد الصناعة تعدو إنتاج بديل لما يبلي، أو يفقد، وهو عمل في مقدور أي إنسان، وهو يقوم به فعلًا؛ لأنه لا يمكن أن يكله إلى غيره. ولا مجال لتبادل السلع، أو ظهور مهارة في التخصيص، فالصناعة إذا كان كل إنسان قادرًا على أن يؤدي كل شيء، وأن يؤديه فعلًا كما يجب أن يؤدى، وليس هناك داعٍ لتخزين الخامات للمستقبل ما

دامت متوافرة دائمًا، وتصنيع هذه الخامات مثل الحاجة إليها عبء يضاف إلى المتاع عند المسير. وفي نطاق الأسرة الواحدة لا تمنح أجور، ولا تؤخذ أجور، ولا مجال فيها للادخار، ولا للربح، ولا للملكية الخاصة إلا لعصا أثير، أو خنجر، والأرض ملك مشاع كالبحر عندنا، والحشائش ملك مشاع حتى ترعاها الماشية، ومثلها كمثل سمك البحار فهو ملك الجميع قبل صيده، وتهبط دواعي التفكير في المستقبل إلى أدناه جزاء المهارة، أو الامتياز والجاذبية في العمل، وكل من الماشية والناس أعضاء في جماعة واحدة كان يسميها الإغريق ومن بعدهم العلماء المحدثون (سنتروفيا)، وكلاهما يتبع هذه الجماعة وكل منهما يتبع الآخر. ونُظم الشعوب الرعوية من أبسط النظم، فهم يعيشون أينما كانوا في جماعات صغيرة من ذوي القربى، كل منها "أسرة أبوية" دون أي جهاز آخر للحكم. وتتكون "الأسرة الأبوية" من أب وعدة أمهات يتناسب عددهن عادة وموارد رب الأسرة، ثم من بعض الأطفال وعدد من الحيوانات، والعنصران الأخيران يكونان من الناحية الاقتصادية جماعة واحدة، أولًا: لأن حفظ هذه الحيوانات المستأنسة وتكثير نسلها في هذا الوسط يعد من الأعمال الاجتماعية الرئيسية التي لا تقل شأنًا عن تربية الأطفال، وبدون إكثار الماشية تتعرض الجماعة للانقراض مثلما تتعرض إذا كان في أفرادها عقم، وثانيًا: لأن كل جماعة بدائية تحرص عند تدبير أمورها على ألا يتجاوز عدد الأطفال فيها حاجتها منهم، شأنهم في هذا كشأن عدد الجراء والحملان، وإذا كان القطر فقيرًا كبلاد الإغريق القديمة وشاكوا في براجواي، أو كانت أرضها خصيبة ولكنها مكتظة بالسكان كالصين الحديثة، كان أكبر هم

الجماعة تثبيت عدد السكان فيها بقدر الإمكان. وفي هذا المجتمع الأبوي يخفف من هذه القسوة الظاهرية نحو الأطفال نظرة الجماعة في تشغيل الأحداث، ففي وسع صغار الأطفال أن يعنوا بصغار الحيوانات. ويتناسب غنى أية أسرة أبوية تناسبًا طرديًا مع عدد قطعانها من الماشية، بينما يستقيم أمرها بأي عدد من الأطفال. والأطفال في الواقع أهم صورة للملك المجزي، أو صورة للملك الوافر العطاء، هم "ميراث وهبة من الله" وقد تلجأ الأسرة إذا قل عدد الأفراد فيها إلى سرقة أطفال جيرانها الغافلين، ويصبح كل من ليس عنده أطفال رجلًا كان أو امرأة موضعًا للرثاء –بل مصدرًا للفزع– فعملهما لا شك غير صالح والله لا يحب المفسدين.

ومثل النساء في هذا المجتمع –كمثل الأطفال– فهن يكسبن نفقاتهن، لا بتربية الأطفال فحسب، بل برعاية الماشية والعناية بمنتجاتها، كحلب الماشية، وحفظ المأكولات، وعمل الأقمشة والخيام من الجلود والأوبار والأشعار، وتلقين الأطفال في الأعمال. والمرأة التي تعرف عملها تساوي في الواقع عددًا من الماشية.

وقد يكون من الصفات الطيبة أن يستبدل الرجال –بما يزيد عن الحاجة في الماشية– نساء يضفن إلى الأسرة ويبقين ضمن أفرادها ما حسنت سيرتهن. فإن كانت الصفقة في غير صالح الأسرة تعمل الأسرة على إيقاف خسارتها، وهكذا نبذت هاجر ومعها ابنها اسماعيل لتعود من حيث أتت إذا استطاعت إلى ذلك سبيلا.

إن هذا الطراز من حياة الجماعة، حيث الدولة مقصورة على أسرة، وحكومتها في قبضة فرد واحد من كبار رجال الأسرة، والنساء والأطفال في رأي رجال الأسرة أشبه بالحيوانات المستأنسة المحببة، هذا لطراز من الحياة –في مدلوله السياسي– هو لباس قديم ومعتاد، يلبسه الإنسان ليبقي به نفسه حالة بعينها في حالات الجو. وهذا اللباس باقٍ لا يتغير ما سارت الحياة على وتيرتها، فإذا طرأ عليها أي تغيير كبير لم يعد صالحًا وألقى به جانبًا.

وفي هذه الحياة يفترض وجود "سلع خارجية" على حد تعبير أرسطو، كما يفترض كذلك عدم وجود كل السلع الأخرى، ويفترض وجود حيوانات مستأنسة غذاؤها من الحشائش التي لا يستطيع الإنسان أن يطهوها، ومن المفروض كذلك أن يكون للجماعة متسع من الأراضي المغطاة بالحشائش لا تنفد مواردها، ولكن يفترض أيضًا ألا يكون لها أي مورد آخر من موارد القوت: كصيد الحيوانات المتوحشة، أو جمع الفاكهة والبذور التي يتغذى بها الإنسان. إن هذا الفرض الأخير هو الذي يوضح لنا أساس ما للدولة الأسرية الأبوية من سلطان صارم مطلق على جميع الأفراد الذين تتكون منهم رجالًا كانوا، أو نساءً.

إنما الفكرة التي نرى توضيحها في غاية الأهمية في هذه المرحلة من الدراسة: هي أن هذا المجتمع الرعوي الأبوي –رغم أنه بدائي– هو في الوقت نفسه على قدر كبير من التخصص في حفظ الحياة البشرية في ظروف استثنائية، لا لسبب إلا لأنها في غاية البساطة. وإن هذا المجتمع

الأبوي –ما بقيت هذه الظروف دون تغيير– قد حل، لا مشكلة الحياة فحسب، بل مشكلة الحياة كأفضل ما تكون الحياة في تلك الظروف الاستثنائية، ولعل توفيقهم إلى حل مشكلة بقائهم كما بدت لهم كانت السبب الأول في أن المجتمعات الرعوية الخالصة ليست لها صفحة في سجل التاريخ، ولا أثر للمناطق التي يسكنوها في الأطلس التاريخي. حتى إذا دعا أي أمر من الأمور إلى إجلاء جماعة رعوية من مراتعها كان أثر هذه الهجرة كبيرًا جدًا؛ ذلك أن نظام حياتهم وأُفق تفكيرهم قضى عليهم بتخصص دقيق في العمل، كما قضى على أفراد الجماعة أن يلتزموه بكل دقة.

ولننتقل الآن إلى حالة مقابلة: في أية منطقة بها من المياة ما يسمح بنمو الغابات يستطيع الإنسان أن يعيش على صيد الحيوانات المتوحشة وأكل لحومها، كما يستطيع أن يأكل ثمار الأشجار وجذورها.

وهنا لا تعتمد الجماعة على قطعان الماشية. وليست الغابة مما يتفق واجتماع قطيع من الماشية في مكان؛ إذ لا مفر من أن تفتك بأفراده الحيوانات المفترسة.

والإنسان لا يستخدم قطعان الماشية إذا استغنى عنها، أو عجز عن الاحتفاظ بها، كما لا يحتاج إلى أن يكون ذا أسرة كبيرة تدبر شئون هذه الحيوانات كما رأينا من قبل. بل قد يضطر إلى فراق زوجه وولده كلما نزح للصيد، وليس لأولاده أن يجاوروه في شئون الصيد ولديهم من الثمار والجذور ما يستطيعون الحصول عليه، واعتمادهم على اللحم وحده يجلب

الأذى لهمو أو ما هو شر منه. ومن المحتمل أن يعود رب الأسرة من رحلة الصيد صفر اليدين وفي حاجة إلى طعام، ويتعلم الأطفال في باكورة حياتهم كيف يعتمدون على أنفسهم؛ ذلك لأنهم كثيرًا ما يعانون من الجوع لنقص في مقدار اللبن اليومي أو الجبن –وهما عماد الغذاء لدى الرعاة– وهناك ظاهرة تبدو في الصحراء في غاية الجلاء، بل لعلها تظهر في كل مكان عدا أرض المراعي، هذه الظاهرة هي أن الرجل والمرأة يستقلان عن الأسرة بدرجة تزيد وتنقص إذا استطاعا الصيد، أو جني الثمار وجمع الجذور. وإن هذا الشعور المضاد لروح الاجتماع الذي يسود حياة الصيد وارتياد مواطن الثمار، ويساعد على فكاك الأطفال من رعاية الأبوة لهو خير للفريقين في هذه الفترة من الحياة؛ فالأطفال في الغابة أو المراعي أثقل عبء، وأكثر تعرضًا لأن يضلوا الطريق هناك منهم في أية بيئة أخرى، وغير خافٍ أن هذا مما لا يسمح بانتقال خبرة السلف إلى الخلف إلا في أضيق الحدود، كما لا يسمح مطلقًا بزيادتها.

ومع ذلك فلابد من أن يكون للجماعة أطفال إذا قدر لها أن تبقى. ومن الواضح أن طول فترة الطفولة البشرية العاجزة –وهو أمر مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتقدم الإنساني– لأعمق تأثيرًا في نشاط الأم من نشاط الأب، فليس من الميسور أن يعود الأب من رحلة الصيد في سهولة ويسر، فأما الأم، فلا تستطيع التخلي عن القيام بأعبائها، وأشق عليها أن تنقل مسكنها. وعلى العموم تنقسم الجماعة التي تمتهن الصيد في هذه المرحلة قسمين اقتصاديين، وفي أدنى القسمين تكون الهجرة من نصيب الأم –نجد هذه عند البوشمن والهنود الحمر ساكني إقليم شاكو– وهي تحمل

ابنها معها كما يحمل القنغر صغاره بمشقة أكثر. وفي هذه الجامعات –إذا جاز لنا أن نسميها كذلك– كان على الأم أن تقاوم رغبتها الشديدة في أن تعمل أي شئ، أو تقتني أي شيء، أو تحمل معها أي شئ آخر.

ولننتقل الآن من هؤلاء الأقوام الذين لا مسكن لهم، والذين يحملون أطفالهم، الذين اندثروا أو كادوا إلا في ما انبسط من الأرض الخالية من الحيوانات القابلة للاسئناس والتي تقع على حافة الغابات، فأوى إليها هؤلاء المستضعفون، وهؤلاء كالرعاة استقروا، وليس لهم تاريخ فنسجله، وقد نلبث مع الفريق التالي أمدًا أطول. في هذه البيئة تجد الأم مسكنها حيث تضع أولادها، وهنا تحفظ الأم صغارها وتجد مكانًا لمتاعها ولم تكن تحفظه من قبل إلا بحمله. وما إن يستقر المقام بسبب الأولاد في بقعة من الأرض –ولو إلى حين– حتى تتهيأ أمام الرجل –وأمام المرأة بدرجة أكبر– الفرصة للادخار واستخدام القوى الطبيعية، ورغم أن صغارها قد يعطلونها ويلهونها، فإن لدى الأم من الرغبة ما تعمل فيه على تحسين ما سميناه مسكنها، وفي استطاعتها أن تعني بأشجار الفاكهة بإزالة ما ينمو تحتها وما يتسلقها من نبات، ولربما واتت الفرصة بعض البذور والثمار المبعثرة دون قصد، أو بعض الفاكهة، أو الجوز إذا ما أصابه بعض الماء في تخزينه في أحد الأحجار الرطبة وينمو، فإذا عنى به نضج وأثمر ثمرًا يجزي كل ما أنفق عليه من عناية.

ولربما يغري دجاج الوادي بالقاء ما يلتقطه من بذور الفواكه وقشورها، ولربما بقي ووضع بيضه على مقربة من المكان. وصفوة القول أن

وجود قاعدة مستقرة، والخمول الاضطراري، ومرور الزمن في بطء– وهي العوامل التي هيأت فرص الحياة– هي بعينها التي هيأت اختراع ما يسمى بالزراعة.

وشبيه بما أدى إلى اختراع الزراعة كان انتزاع النباتات المتسلقة، أو لحاء الأشجار وغزلها دون قصد حتى تصير حبالًا، واختيار جذوع الأشجار المستقيمة، أو الأشجار الصغيرة، وتجفيفها لتستخدمها الأم فيما تريد –ربما تمد الصياد عند عودته بما يقوم مقام حربته المكسورة، أو بوتر لقوسه الذي يصيد به–.

إن للرجل الآن دافعًا جديدًا إلى العودة لمسكنه؛ لأن المرأة هي التي تعد هذه الأشياء. وهكذا أضيفت الصناعة إلى الزراعة في مقام الأسرة، ومع ذلك ففي المناطق غزيرة الأمطار تكثر النباتات بحيث تعجز جهود الأسر المتفرقة عن أن تسيطر عليها، وليس لديهم من الغذاء ما يسمح بحياة كل الأسر في مجموعة كبيرة. فإذا قامت جماعة من الصيادين لمطاردة حيوانات ضارية عديدة، فإنما تجمّعهم مؤقت ومقصور على رجال فقط، لا تؤلف بينهم رابطة قرابة، ولكن يربطهم الاتفاق على العمل وقدر من المهارة في أدائه. وتقسو الحياة على الضعفاء والمسنين، ويحظى بالسلطان من أُوتوا القوة والحكمة.

والتحديد الدقيق للنقطة التي يحدث عندها التوازن في أية جماعة من جماعات الغاب يتوقف على ميزان القوتين البشرية والخارجية، وهوما لم

نصل بعد إلى موعد تحديده بدقة. وكل ما يمكن أن يقال: أن هذا التوازن قد حدث فعلًا في نطاقات واسعة في الغابات المدارية والمعتدلة الشمالية، وأن هذا التوازن حدث في النواحي الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، حتى أصبح كل جهد تبذله هذه الجماعات هو فعلًا في وقتهم وفي قوقم، سواء كان هذا الجهد في زيادة العمل، أو التخطيط للمستقبل، أو تنظيم مجتمعهم على مستوى أرفع من مستوى معيشتهم. وهنا أيضًا لن يجد التاريخ لعهود طويلة شيئًا يسجله، ومع ذلك ففي هذا المجتمع كذلك ما إن يطرأ عامل جديد في ميزان القوى حتى يختل التوازن. فأي تغيير في كمية الأمطار، أو انتشار نبات أو شجر جديد، أو قدوم جماعة من المهاجرين، أو انتشار أية فكرة جديدة –وهو ما لابد منه– كحرق أشجار الغابة، أو قطع الأخشاب لاستخدمها في بعض شئون الحياة، أو حفر ما تحت الأشجار بحثًا عن المعادن، كل أولئك – كما لا يخفى– حافز إلى التغيير والاستجابة لغريزة التكيف مع كل تغيير حادث. وهذا أمر كامن لا يلبث أن يلعب دوره في الحياة بمجرد حدوث التغيير. وأرى لزامًا عليّ –إذا اتسع المجال– أن أبادر إلى توضيح الخطوط الرئيسية العامة لضروب الحياة المتباينة بأن أنقل صورًا معينة بدت فيها هذه الخطوط في نظامها العملي. أما عن حياة الرعاة ففي أيدينا صورة كاملة في الأسفار الأولى من العهد القديم للمجتمع الأبوي الخالص في نظامه العملي، صورة مسجلة لمهاجري الرعاة من أسلاف الشعب المختار، وإني أجازف بالقول بأن هذه الصورة الحية غير المسبوقة لهذا الطراز من الحياة الذي يختلف اختلافًا بينًا عن طراز حياتنا هي من الناحية الثقافية، وبخاصة في مراحل التربية الباكرة. إن

هذه الصورة ذات قيمة عظيمة لعناصر المواطنة والتاريخ، ولما كان هدف هذا الباب من الكتاب مقصورًا على توضيح الفروق بين الأنماط الاجتماعية بعد أن حققت أهداف من أبدعوها –ومن ثم لم يكن لها مكان في التاريخ– وبين صور أخرى من المجتمعات تحدث تغييراتها المتكررة تكيفها المتكرر، وأدت إلى ظهور سلسلة من "الأفعال العظيمة والرجال العظماء" على نسق زمني يمكن تحقيقه. يكفي أن أضيف هنا ما أؤكد به فيما أعلم أنه ليس هناك عنصر من عناصر حياة الرعاة، أو حياة سكان الغاب مما سبق ذكره إلا وهو صحيح وموثوق بأكثر من مصدر، وخشية الوقوع في خطأ ناجم من بعض الظروف المحلية كانت كل النقاط التي استشهدت بها مستمدة من حياة الجماعات البدائية في أكثر من قارة.

الفصل الثاني

مسرحية التاريخ - المسرح وممثلوه

لمجرى تاريخ البشرية الرئيسي –ابتداءً من منبعه الذي أمكننا كشفه – أربع مراحل كبرى، وكل مرحلة منها تتصل اتصالاً وثيقًا ببيئة جغرافية خاصة.

والمرحلة الأولى: هي التي كانت مراكز الرقي الإنساني فيها تعتمد وترتبط بأودية الأنهار العظيمة وتربتها الفيضية القابلة للري. ولئن كانت الأحداث في مصر وبابل تعتمد تفصيلًا على عوامل خارجية، إلا أن السمات المشتركة، التي يجعل المؤرخون من مجموعها ما يسمونه بالشرق القديم، مستمدة من مدينة نهرية مستقلة يغلب عليها الطابع الزراعي، وتتعرض دائمًا لخطر يأتيها من سكان المراعي، وسكان الجبال وإن كان التفاعل فيما بينهما متقطعًا غير مستمر.

ولقد كان التفاعل بين النيل والفرات على طول طريق مواصلات واحد ضيق نصفه شط الفرات الأعلى، ونصفه الثاني شريط ضيق من أرض جبلية يحدها البحر المتوسط من جهة، والصحراء الغربية من الجهة الأخرى، وفيها تنتهي تدريجيًا معالم الطريق. ولقد كان هذا المتن طريقًا

للمسافرين، والسلع في غدو ورواح بين بابل ومصر، وكانت طريق الجيوش كلما أنست إحدى هاتين الدولتين القدرة على أن تضرب الأخرى. وكثيرًا ما سلك هذا السبيل أجانب أعداء للدولتين جميعًا. وهذا في بحثنا هو المرحلة الأولى من التاريخ البشري –مرحلة التطور في نطاق الأودية الفيضية– وهي –وقئذ– عوالم تكاد تكتفي عمن سواها وتدور في فلك نفسها، ولكل منها نمطها الحضاري الشديد التميز والتكيف مع ظروفه المحلية. ولم يكن خارج نطاق هذين الصدرين من النور بوجه عام إلا الظلام، أو كواكب تستمد نورها من أحد هذين المصدرين، أو منهما جميعًا.

وتبدأ المرحلة الثانية من التاريخ عندما أخذ أهالي الجزائر المنعزلة في أحد خلجان "البحر المتوسط" يتبادلون الحاجيات مع السكان الذين يقيمون على شواطئ هذا البحر، ومن ثم نبتت الفكرة عن الدنيا المأهولة أنها "أرض مستديرة"، أو Orbisterranum كما يسميها الرومان. وهي حلقة من الممالك تلتقي حول حوض مائي واحد يعيش الناس على منحدراته الداخلية وفي جزائره. وكانت مواصلتهم عبر الطرق "الرطبة" كما يسميها هوميروس، وهي صحراء من أمواج لا من رمال.

ظل الناس يتخيلون الدنيا حلقة مستديرة، وكان لهذه الفكرة آثارها عند الرومان واليونان، وعلقت هذه الفكرة في الأذهان –مدة طويلة لأنها كانت تمثل فعلًا إلى درجة كبيرة– الأحوال الجغرافية التي قام فيها اليونان والرومان بتأسيس ملكهم، فإننا إذا نظرنا إلى المدينة العظيمة التي

قامت في البحر المتوسط نرى بكل وضوح وبلا أدنى ريب أنها مدينة "متوسطة" تستمد عظمتها من ملاءمتها لأحوال هذا البحر. ولقد كانت إمبراطوريات مينوس، وأثينا، وروما محاولات متتابعة لتحقيق الأرض المستديرة المتحضرة، والجهود المؤقته التي قام بها الإسكندر، وأوغسطس، وتراجان في تجاوز حدود هذه الدائرة، ماتت بموتهم أو فشلت قبل وفاتهم،ولكن عبقرية قيصر هي التي ألهمته -عندما عبر نهر الرون- مكتشفًا العالم الجديد أن يولي وجهه شطر المحيط الأطلسي لا شطر نهر الألب.

وتبدأ المرحلة الثالثة عندما قدمت سفن قيصر ذات المجاديف المصنوعة من خشب الصنوبر من البحر المتوسط، وقابلت السفن المصنوعة من البلوط والتي تمخر عباب المحيط.

نشهد في هذه المرحلة القوات البحرية من أهل الشمال في حروب طويلة مع الملاحين التيوتون حتى حلوا محل روما في القنال (الإنجليزي)، كما نشهد أقوامًا من أهل البلطيق الشماليين يحتلون صقلية وينهبون أتينا والقسطنطينية، كما نشهد في نهاية المرحلة أقوامًا من الشمال والجنوب - أيضًا- من إنجلترا، وهولندا، وبلاد البرتغال، ومن أسبانيا وجنوة يقومون بعمل كبير عندما كشفوا الأمريكتين واستعمروهما، حتى أن المحيط الأطلسي لم يعد بحرًا خارجيًا، بل صار خليجًا كالبحر المتوسط، وبحر اليونان القديم، يتوسط القارات بين الولايات المتحدة والولايات غير المتحدة، وأصبح هذا

المحيط –بدوره– طريقًا يوصل، بعد اجتياز ولس هورن، ورأس الرجاء الصالح إلى ما قد يظهر آخر الأمر أنه محيط حقيقي.

والمرحلة الرابعة التي يبدو أن العالم يجتازها الآن [٦]، باحتلال أستراليا والشواطئ الغربية لأمريكا. وبدخول التفكير الغربي في الهند، واليابان، والصين، هذه المرحلة تثير هذا التساؤل من جديد. أليس هذا الذي كنا نخاله آخر الأمر بحرًا خارجيًا، أليس هو الآخر بحرًا داخليًا محوطًا بالأرض كأمثاله في البحار السابقة؟ ألم تقم خرائط مركيتور بدورها أمدًا طويلًا فأظهرت لنا في نصف الدنيا الشرقي، ونصفا الغربي شواطئ المحيط الأطلسي؟ أما آن لها أن نستبدل بها خرائط تصور الشواطئ المطلة على عالم المحيط الهادي؟

هذه هي أهم مناظر مسرحية التاريخ في تتابعها الزمني، وعلينا الآن أن نلقي نظرة أدق على المسرح الذي مثلت فيه هذه المسرحية على حواف المناطق التي حولها الإنسان إلى أرض صالحة لإقامته، وتوزيع الأجناس البشرية المختلفة، وأثر هذا التوزيع في انتصارات الإنسان على الطبيعة.

إذا نظرنا إلى نموذج للكرة الأرضية رأينا الربع الشمالي الغربي من الكتلة اليابسة التي نسميها العالم القديم تبدو لنا وكأنها مجموعة شرائح مستوية، تحدها من الشمال الغربي مرتفعات مسننة تأثرت بعوامل التعرية،

[٦] صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩١١، والحادية عشرة من أكتوبر سنة ١٩٣٧ وعليهما اعتمدت هذه الترجمة.

كما تخترقها مجموعة من الجبال الالتوائية غير المنتظمة: وهي جزء من النظام الالتوائي الكبير الذي يبدأ من جبال البرانس ويستمر إلى جبال هندكوش، ثم يتشعب شعبتين: أولاهما إلى شبه جزيرة الملايو، والثانية إلى بهرنج وجبال روكي. هذا القطاع من المتن العالمي يتجه من الغرب إلى الشرق بين البرانس والأرارات، ثم يطوق هضبة إيران بين بحر الجزر والمحيط الهندي.

ومعظم الشرائح الأرضية التي ذكرناها من قبل تكاد تكون مستوية ولا تعلو كثيرًا فوق مستوى سطح البحر. فسهول ألمانيا الشمالية، وروسيا، وسيبيري فيما وراء جبال الأورال والصحراء الأفريقية كلها أمثلة واضحة على ذلك، وبعضها به بروز قليل، أحد جانبيه مرتفع في الهواء، والثاني مغمور بالماء. والجزيرة العربية أفضل الأمثلة على ذلك، فجانبها الغربي يكون المرتفعات المطلة على وادي الأردن والبحر الأحمر، ومنحدراتها الشرقية المتسعة تنتهي إلى الخليج الفارسي، والسهول الطينية عند رأسه، وتليها من الشرق هضبة تشرف على رأس الخليج بحافة وعرة شديدة الانحدار، ومن أمثلته كذلك المنحدرات المتجهة غربًا، والتي يشغلها وادي النيل، وتهبط من البحر الأحمر إلى الواحات والفيوم، وهي تحت مستوى البحر، والحافة المعلقة الشمالية لبحر الخزر تحت مستوى البحر كذلك، والشاطئ الأفريقي ما بين تونس وبرقة دون مستوى سطح البحر كذلك، ومع ذلك فبعض السهول الصغيرة التي تحيط بها الجبال الالتوائية ظلت في مستوى سطح البحر، كسهل المجر، أو ارتفعت معها، كهضبة أسبانيا، وآسيا الصغرى، وإيران، أو انخفضت تمامًا تحت مستوى الماء وصارت بحرًا

داخليًا، كالجزء الجنوبي من بحر الخزر، والبحر الأسود، أو سلسلة المنخفضات التي كون مجموعها حوض البحر المتوسط. وكذلك انخفض المتن الجبلي ذاته ثلاث مرات وغمر الماء بعض أجزائه. ففي طرفه الغربي نرى سلسلة جبال الأطلس ممتدة إلى جبل طارق، والجنوب الشرقي لأسبانيا حيث يستمر الارتفاع في جزر البليار، وفي طرفها الشرقي نرى من يمين وشمال الرأسين البارزين في الماء ،حيث تقع تونس وحيث كانت تقع قرطاجنة قديمًا، وهذا المرتفع يمتد إلى صقلية والمرتفعات الإيطالية الجنوبية إلى جبال الأبنين. ثم نشاهد هذه الظاهرة مرة أخرى أشد انحدارًا في المناطق الجبلية العظيمة التي تشمل شبه جزرة البلقان وآسيا الصغرى، وقد غمرت المياة أجزاءها الوسطى، فكونت بحر إيجة ومجموعة جزائره التي تكاد المياه تغمر رءوسها. فهنا وعلى سبيل المثال: يبلغ ارتفاع جزيرة كريت وجزائر كيلاديس، وانخفاظ شمالي هذه المنطقة أقل حدة؛ إذ يبلغ ارتفاع جبل الأولمب في اليونان عشرة آلاف قدم. ولا يكاد يصل انخفاض بحر تراقيا خمسة آلاف قدم، وكذلك يبلغ ارتفاع جبل الأولمب في آسيا الصغرى سبعة آلاف وخمسمائة قدم، ويشرف على بحر مرمرة الذي لا يتجاوز عمقه ستمائة قدم.

وعلينا الآن أن نكسو هذه المساحة المتباينة، بما فيها من سهول واسعة منبسطة، وسلاسل متتابعة من الجبال وأحواض بحار متصلة بما يلائم كلاً منها من النباتات حسب مناخها، وإذا رجعنا إلى كتاب الجغرافيا الحديثة، وهو من هذه السلسلة؛ لنتعرف أسباب حرارة الشمس، والرياح، والأمطار، وتوزيعها في الأماكن المختلفة، ودراسة تأثير كل منها، رأينا أن

هناك ثلاثة أنماط للغطاء النباتي، ففي السهول عظيمة الاتساع —حيث يزيد فيها المطر على عشر بوصات سنويًا، ولا تنمو إلا حشائش قصيرة النمو، ونباتات حولية تزهر في فصل الربيع، ثم تلقي ببذورها وتذوي أعوادها، وفي أنسب الظروف، إذا ما تجمع الماء في أرض منخفضة، أو إذا ما تفجر الماء من إحدى العيون، تكونت واحة تظل مخضرة طول العام. وفي أسوأ الظروف قد تختفي حشائش المرعى، فلا يرى في مكانها إلا ما ندر من خصل من نبات الجمال الشائك الجاف الذي لا يحمي تربة الأرض —التي لفحتها حرارة الجو— من أن تذروها الرياح كما تذرو الثلج، فتزيد في سُمك الأمواج الرملية في الصحراء.

وتحل محل الحشائش أدغال من الأشجار القصيرة في طرف المراعي الأكثر تمتعًا بالماء، حيث يتراوح متوسط الأمطار موزعًا على مدار السنة كما في شمال أوربا ووسطها، تحل محل هذه الأشجار القصيرة أشجار نفضية من الزعرور والعوسج. فلا تنقطع حتى تحل محلها أجمات من أشجار نفضية أخرى من البلوط والزان، كانت تمتد بلا انقطاع من المحيط الأطلسي إلى سيبيريا، وكانت تحيط بمنطقة الاستبس من جبال الكربات إلى جبال الأورال وما وراءها.

أما في الشمال حيث يقتصر نزول المطر على فصل الشتاء، فالأشجار دائمة الخضرة، كشجر الغار، والآس، والبقس، وتنمو تحتها أشجار عطرية أقصر منها كالسعتر، والقويسة، وحصا البان.

وينمو الزيتون، والتين، والكستناء الأسبانية، والبلوط دائم الخضرة، كما ينمو الكرم واللبلاب من النباتات المتسلقة حينما يتوافر الماء، أو تسمح طبيعة التربة بتعمق الجذور، سواء في الأودية أو على سفوح المرتفعات، حتى إذا تكونت السحب، ونزلت الأمطار؛ بسبب ارتفاع المكان عاد ظهور غابات الأشجار النفضية على نحر ما رأينا في الأراضي المنخفضة في أقصى الشمال.

وأخيرًا سواء أمضينا نحو الشمال، أو صعدنا فوق بعض المرتفعات لا تبقى برودة الليل ولا ثلوج الشتاء على الأشجار النفضية، ولا مجال إذن للصنوبر وغيره من الأشجار المخروطية دائمة الخضرة، ولا تكاد تظهر معها أشجار تنمو تحتها، وتنتهي هذه المساحات بشريط من أشجار البتولا القصيرة، والأعشاب التي تكسوها الثلوج، وهذه تقع على حافة حقول الجليد الدائمة.

هذه هي أهم مظاهر توزيع اليابس والماء، وأنواع النبات في المنطقة التي بزغ فيها فجر التاريخ. ولابد من زيادة التفصيل إذا عنينا بكل منطقة على حدة، وهناك نقطة أخرى يجب إبراز أهميتها لنا —نحن الذين نقطن بلادًا أقل تباينًا في مظاهر الطبيعة— فقد يكون للتجارب التي مرت بنا تأثير غريزي فينا عند دراستنا أحد الأطالس. فليس لمنطقة البحر المتوسط ولا للمنطقة الجبلية بعدان اثنان فحسب، فإن للارتفاع أثرًا يكاد أن يكون مساويًا لأثر الطول والعرض، وليس الأمر مقصورًا على أن ارتفاع المناطق الجبلية —الذي يبلغ في المتوسط ما بين ألفي قدم وثلاثة آلاف قدم، والذي

قد تصل قمم الجبال فيها إلى سبعة آلاف أو ثمانية– يستتبع وجود كل أنماط المناخ المختلفة على جانب جبل بعينه، ولا هو مقصور على أن هذا التباين في المناخ يتتبع حتمًا انعكاس أثره في تباين النبات التدريجي من النخيل إلى الزيتون، ومن الزيتون إلى الكستناء، ومن القسطل إلى الصنوبر والثلوج، فإن الأهم من ذلك هو أثر هذه المرتفعات الشامخة؛ ذلك أنها تفصل الأودية والسهول المخفضة بعضها عن بعض، وتمدها بالرتبة النهرية الخصيبة، وبقدر من المياة أوفر مما يتفق، ومناخ المنطقة أو خط عرض المكان، وأفضل الأراضي –في الغالب– ما قرب من مستوى ماء البحر، حيث تكاد المياه تغمر أوديتها، وتصل إلى المناطق العالية فيها. على أن الأراضي المرتفعة –رغمًا من أنها غير خصيبة في معظم الأحيان– إلا أنها تهيىء للرعاة وسيلة لكسب قوتهم من أدنى منطقة فيها إلى خط الثلج.

ومن الممكن –وبخاصة في المناطق المطلة على البحر المتوسط والمجاورة للمنطقة الجبلية– أن تجمع مساحة صغيرة في الأرض أنواعًا شتى في المناخ، لكل منها ما يناسبه من نبات وحيوان، وما ينبني عليه من خلاف في نظم حياة السكان من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، وفوق ذلك فإن الحد الفاصل بين ما يعد مرتفعًا وما يعد منخفضًا يتغير منسوبه على سفح الجبل بتغير فصول السنة –حتى بين أكثر الجماعات استقرارًا– تتصف بالانتقال والهجرة بين المراعي الصيفية، والمراعي الشتوية.

في هذا الجزء من العالم –وهذه أحواله ونباتاته– يعيش ثلاثة أجناس من البشر، ومع أنه من النادر أن يحيا كل منها في عزلة عن بقية

الأجناس، وأن يكون نقيًا من الأختلاط إلا أنه من الممكن تمييزها كما تتميز السلالات النقية من الحيوان عن السلالات القوية التي حدث التهجين والتزاوج فيما بينها، وتكونت منها الجماعات البشرية المقيمة في هذه المنطقة، وتعرف عادة "بجنس البحر المتوسط" والألبيين نسبة إلى جبال الألب، والنورديين نسبة إلى أهل الشمال.

وإن جهود جيلين من علماء الأجناس البشرية، وبخاصة البحث التركيبي الذي قام به سرجي Sergi، وربلي Riple ، تركت لنا صورة واضحة عن جنس البحر المتوسط، وهم أشد مجموعة السلالات البيضاء توغلًا في الجنوب، ويحتكرون القطاع الشمالي الغربي من الدنيا القديمة، وهم من حيث انتسابهم إلى الجنس ذي البشرة البيضاء أقل أصلاً من المردة البيض في حوض بحر البلطيق، والأجناس الهزلية ذات البشرة الجافة المنتشرين على جبال الألب إلى ما يليها شمالً. وجنس البحر المتوسط: كجنس الأبيض النوردي بيضي الوجه والجمجمة بشكل واضح إلا أنه أسمر البشرة وأسود الشعر، وهو أسمر كرجل الألب، إلا أنه يختلف عنه في تركيب الجسم وتناسب الأعضاء، كما أن هناك فارقًا خاصًا بينهما في أن رأسه أضيق، ووجهه أطول، وبشرته أكثر صفاء، ولو أنه هو الجنس السائد في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وهو وحده الذي تعود نظام المعيشة فيها إلى الدرجة القصوى، إلا أن سكانه ليست مقصورة على هذه المنطقة، نعم إن الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط يكاد لا يكون له فيه شريك، ولو أن سكان المنطقة الجبلية كانوا شديدي الضغط على البحر إزاء الرفييرا، وتركوا أثرًا كبيرًافي أهالي لمبارديا عامة، إلا أنهم كانوا خفيفي

الوطأة في شرقه. وإذا فكرنا مليًا كيف أننا بفطرتنا نعد اليونانيين نموذجًا لجنس البحر الأبيض المتوسط يتضح لنا لأول وهلة أن هذا الرأي لا يصدق، ولكن بحوث الدكتور فون لوشان (Von Luschan) في ليكيا (Lycia) يتضح منها أن في هذه المنطقة وفي الرفييرا كذلك جنسًا من سكان القارة يعرف بالجنس الأناضولي، أو الأرمني قدموا من الشرق كما قدم الألبيون، وهم الجنس المقابل لهم من الغرب، حتى وصلوا إلى الأراضي التي في مستوى البحر، ولم يسمحوا لرجل البحر الأبيض المتوسط أن يتجاوز ساحل البحر، وهذا عين ما حدث في جميع الشط الشرقي للبحر الإدرياتي حتى خليج كورنث في الجنوب وهناك رأي يزداد تأثيره قوة يقول: أن أثر الجنس الألبي في المورة -وقد تم لا شك في عصور قديمة- كان بدائيًا فيها، كذلك في جزر بحر إيجة، وفي كريت، وهي أماكن لا محل للشك في أن جنس البحر المتوسط اتخذها له مقامًا من أمد بعيد. إلا أن قلة من سكان القارة، لهم صلة بالجنس الألبي، أخذوا يفدون في نهاية العصر الحجري، مما يدل على أن الجنس الألبي كانت له مكانته في المنطقة الكبيرة المجاورة. على هذا الأساس يجب أن يعد جنس البحر الأبيض دخيلًا قادمًا من الجنوب، كما يتضح أن الجنس الألبي مهاجر قادم من الشرق من طريق المنطقة الجبلية. وكل من هاتين الهجرتين قد تمت من زمن بعيد جدًا، وكانتا جزءًا من هجرة كبيرة قام بها الحيوان، وقام بها النبات في الجنوب والجنوب الشرقي إلى المناطق الأشد برودة والأكثر رطوبة التي أصبحت صالحة للسكنى عند نهاية العصر الجليدي.

وإنه ليتفق ووجهة النظر التي ذكرناها في أصل جنس البحر المتوسط أن نستكشف أن هذا الجنس قد انتشر انتشارًا واسعًا في ثلاثة اتجاهات رئيسية: ففي الجنوب كان مسيطرًا –باستثناء بسيط– على كل الأراضي الصالحة للسكنى في شمال أفريقيا حتى قدوم العرب، حتى إن صورة المصري لجاره الليبي يتضح منها أنه لا يكاد يختلف عن معاصريه "في إطار البحر الأعظم" وفي الشرق يظهر أن هذه السلالات الجنوبية تتصل اتصالًا وثيقًا بساكني بلاد العرب. والخلاف بينهم في الوجوه أكثر منه في تركيب الأجسام، والشق الطبيعي بين أفريقيا وآسيا حادث حديث في التاريخ الجيولوجي بهذه المنطقة. وهذا الحاجز الذي يقع بينهما، والذي يمكن النفاذ خلاله، يليه –بعد خليج العقبة– لسان من الأرض يسكنه بعض الجنس الأرمني (أو الجنس الألبي الشرقي)قدموا من شرق آسيا الصغرى، ومروا بالمرتفعات السورية إلى نهاية فلسطين، وهنا تنقطع الصلة بين العرب وبين البحر المتوسط، وبينهم وبين أفريقيا بشكل واضح. يقابل هذا أن الشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر كان عربيًا –من حيث سكانه –كالشاطئ الشرقي في العصور التاريخية كلها–. وأن انتشار جنس البحر المتوسط إلى الشرق وإلى الجنوب الشرقي ليؤيد وجهة النظر التي قررناها هنا، بأنه نبع من جنوب البحر الأبيض المتوسط، وأن استيطانه شواطئه الشمالية لم يمكن إلا في عصور حديثة.

وقد انتشر جنس البحر المتوسط في جماعات عرفت بالإيبيريين [٧] متجهة إلى الشمال الغربي. كما سمح مناخ الشاطئ الأطلنطي بسهولة النقل إليه من البحر المتوسط، مارة بما يلي جبال البرانس حتى وصلت إلى جزرنا (يعني الجزر البريطانية)، وشرقت حتى انتهت إلى حوض الرين والجزء الأعلى من حوض نهر الطونة، ويظهر أن رحلة هؤلاء كانت أقدم كثيرًا من رحلة الجنس الألبي إلى وسط فرنسا، ووسطها الجنوبي، وأراضي حوض نهر الرين الأدنى. وأن ما حدث لهذا الجنس من حيث امتداد رقعة سطناه إلى الشمال الغربي يتفق مع ما يحول دون اتجاهه صوب الشمال لما عرف عنه من عدم احتماله البرد وارتفاع نسبة الوفيات فيه لما يصيب الرئة من أمراض. ويقع وطنه الحقيقي على الحدود الشمالية للصحراء التي تفصل بينه وبين الزنوج، وهو ينزح من وطنه هذا إلى المدى الذي تسمح به قوته الجسمانية. ولا ينتشر من موطنه الأصلي إلا إلى مدى قريب، وقد وقفت رحلته عند سفح المنطقة الشمالية وعند التلال الفلسطينية.

أما الجنس الألبي –ويقرب الجنس الأرمني إلى درجة أشد– فهو أقل احتمالًا للحياة في الأرض المنخفضة، وسرعان ما ينقرض في سفوح التلال. ولقد كان هذا دأبه حتى ساد الاعتقاد بأن الجنس الألبي هو من سلالة أقوام أقاموا في الأراضي المنخفضة، ثم دُفعوا دفعًا إلى التلال واختاروا هذه المواقع عامدين، ومع ذلك فهذا الرأي لا يكاد يتفق مع وحدة الجنس التي تتفق وخط عرض هذه المنطقة الجبلية، ولا مع الشواهد

[٧] Iberians

التاريخية قديمها وحديثها، ولا مع الهجرات التي وقعت فيها فعلًا في أوقات متتابعة.

أما العمالقة البيض من أهل الشمال، ووطنهم الأصلي ووطن سلالتهم النقية –ذلك إلى وقتنا هذا– حول شواطئ البحر البلطي وفي جميع الجزء الجنوبي من اسكندرناوة، فلن نعالج أمرهم إلا يسيرًا في الفصل الأخير من قصتنا هذه عندما نلقاهم وهم يخترقون الجدار الجبلي في نقط متعددة. ويجب أن نلاحظ مع ذلك أن هناك احتمالًا قويًا بأنهم هم، أو ذوي قرابتهم القريبة، كانوا أصحاب السلطان في النصف الغربي من المراعي الشمالية. ولربما أوحت الروايات التي شاعت عن غزاة من الجنس الأبيض لشمال الهند بأنهم كان لهم سلطان عليها جميعًا، وعلى كل حال ليس هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن قدوم المغول إلى هذه المنطقة وقع في غير العهود الحديثة. وهذا الجنس عديم اللحى إلى حد ما لم يكن معروفًا تمام المعرفة في العصر الذي كان اليونان يستكشفون فيه جنوب روسيا، مما أدى إلى جدل في أمرهم، وإلى شائعات عن نساء محاربات في الإستبس (Isteppes)، ولم تكن هذه الخاصية من خصائص السكيذيين (Scythians) الذين عبروا نهر الدون سنة ٧٠٠، لم تكن خاصية عامة فيهم، ولو أنهم كانوا من المغول –وهو أمر مشكوك فيه حقًا– فلابد أن عنصرًا غريبًا اختلط بأنسابهم. إن صورة الحيثيين الذين كانوا يعيشون في هضبة آسيا الصغرى سنة ١٢٨٥ق.م قد خالها بعض الناس صورًا لقوم من المغول، ولكن الأدلة على ذلك لا تكفي ولا توصل إلى رأي قاطع، وعلى الآثار الحيثية نقشت وجوه ملتحية كثيرة، وطراز هذه الوجوه أرمني.

هذه هي الخطوط الرئيسية للظروف الطبيعية للربع الشمالي الغربي ومن يقطنه من الناس، وعلينا الآن أن نتتبع الجهود الأولى التي بذلتها أنماط كثيرة من الناس في بعض البلاد أوتوا حظًا؛ ليجعلوا خيرات الطبيعة وقواها ميسرة، همهم أن يعيشوا حياة "طبيعية" – كما كان يقول اليونانيون– حسب ما تسمح به أحوال المكان الذي يقيمون فيه. فإذا لم تطب لهم الإقامة بحثوا عن مكان آخر ينزلون فيه وينشئون مساكنهم الجديدة، وفي كلا الحالتين سواء لديهم الإذعان، أو السلطان: إنهم يقهرون الطبيعة بمراعاة قوانينها.

الفصل الثالث

فجر التاريخ في مصر

مصر هبة النيل، وليس للنيل شبيه في هذه الدنيا. وليس يعنينا كثيرًا هنا حوضه الأعلى الذي يمتد امتدادًا عظيمًا حتى يلتقي "عطبرة" به فيما يلي مدينة الخرطوم، كما أن المنحنى العظيم الذي يشبه السين الأفرنجية في مجرى النيل، والذي يحمل مياهه العظيمة في بلاد النوبة من بربر إلى أسوان لا يؤثر في مصر إلا نادرًا ومن خارج حدودها. ولكن ما يؤديه النيل لمصر وهو يشق طريقه في الأخدود الذي أصاب قارة أفريقيا الصلبة لمختلف عما يفعله وهو يمر في سهول من الغرين جلبها النيل نفسه عند أحد شواطئ البحر المتوسط. ومع هذا قامت مصر، ولا تزال تتكون من إقليمين متميزين يختلف أحدهما عن الآخر: مصر العليا، ومصر السفلى، أو الوادي ودلتا النيل.

ومصر السفلى هي دلتا مثالية طول جبهتها البحرية المحدبة ١٥٥ ميلًا، وطولها مائة ميل من هذه الجبهة إلى الرأس، وتربتها الخصيبة الفيضية ترسب من ماء النيل بمعدل أربع بوصات ونصف بوصة في كل قرن، ويبلغ سمك الطبقة الراسبة الآن من خمسين إلى سبعين بوصة. ونظرًا إلى أننا نجهل عمق الخليج في أول أمره قبل أن تملأه رواسب النهر فلا نأمن جانب الخطأ إذا نحن جعلنا هذه الأرقام أساسًا لتقدير مدة سكنى الإنسان في هذه

المنطقة. وحيثما تركت الدلتا وشأنها فما هي إلا مستنقع متسع ينمو فيه البوص، تتخلله بحار بطيئة من الماء، تكثر فيها الأسماك والطيور المائية، وتنتابها حمى الملاريا في العصور التاريخية، ويحل محل هذا شرقًا وغربًا أراض رسوبية مستوية، تليها الرمال التي تسوقها الرياح، ثم مياه ضحلة وتلال رملية تتاخم شاطئ البحر، في وسطها برك ضحلة متسعة. وشطوط هذه المنطقة لا تقي من المياه التي تحملها الزوابع ولا من ملح البحر. وبعض مناطقها ملح إلى درجة لا تدع أملًا في إصلاحها، وليس في شرق الدلتا ولا في غربها حاجز طبيعي بينها وبين الأراضي التي تليها. ففي غربها يمتد الساحل الإفريقي القاحل المحدب المنخفض إلى مسافات طويلة تتخللها ارتفاعات بسيطة، وخير ما فيها أراض واسعة فيها حشائش، معظمها صحراء قاحلة، وهناك شريط من المنخفضات الضحلة التي تُكون الواحات على بعد مائتي ميل من الشاطئ، والواحات ليست متباعدة حتى أنها أصبحت طريقًا مطروقة، وفي الجانب المقابل للبحر حدث بعض الانخفاض في أحد العصور التاريخية. واستنادًا على ما لدينا من المعلومات عن مكان هذه المنطقة يمكن أن نقرر أن الجزء الذي أكله البحر كان آهلا بالسكان. كما كانت موانيه أكثر عددًا من الجزء الباقي منها، كما أن تغييرات مماثلة في السطح فيما يلي هذه المنطقة غربًا كانت سببًا في عزل هضبة برقة وتخلفها، وقد كانت من قبل أكثر اتصالًا باليونانيين وأكثر تقدمًا، ولطالما تلقت مصر من ليبيا القديمة هذه وفود المهاجرين المشاغبين الذين دفعتهم إلى الهجرة –في الغالب– سنون عجاف، جعلت الرعاة يهجرون مراعيهم، وجعلت من مستنقعات الدلتا حقولًا من الكرم لسكان

الشاطئ الضيق، وربما لسكان الواحات كذلك، وأن واقعة منفتاح (مر – ان – فتاح) سنة ١٢٥٠ ق.م. ضد الليبيين ومن آزرهم من الأصدقاء فيما وراء البحر خير شاهد على هذه الغزوات وصدها عندما تكون مصر من القوة حيث تستطيع ذلك. هذا والإشارة إلى مخالفة الليبيين مع ملك المستنقعات "الأراضي المنخفضة" تحت الحكم الفارسي، تبين لنا ما كان يخبئه القدر للدلتا، كلما أتيح للغزاة أن يطأوا أرضها.

ويكاد شرق الدلتا أن يكون عديم الدفاع كغربها. وفيما يلي البحيرات الضحلة التي تمتد إلى الداخل. من حدود الأرض المنخفضة حتى رأس البحر الأحمر توجد أرض صلبة صالحة لأن تكون جسرًا موصلًا إلى آسيا، حيث صحراء التيه شمالي سيناء، وهي صورة مطابقة لليبيا في مناظرها الطبيعية من شاطئ محدب، وبحيرات ضحلة أكثر عددًا، وسهول طينية، مما جرى ذكرها في المثل السائر "المستنقعات السربونية" [٨]. ويلي هذه تلال رميلة وأرض مراع تمتد حتى أرض فلسطين المنخفضة، وهي أفضل ريًا فيما دون التلال التي في الأرض، ويوجد في الداخل هضبة قاحلة يزيد ارتفاعها كلما اتجهنا إلى الجنوب، كما يزيد جدبها حتى تنتهي إلى الطبقات الجرانيتية والمعدنية في سينا، وهي صورة مصغرة لجزيرة العرب بين خليجي البحر الأحمر. ورغم أن هذه المواقع تجعل مصر في معزل عن غيرها إلا أنها في الواقع غير كافية لتوقف أي غزو من آسيا، أو هجرة القبائل الجائعة كلما سمعت "أن في مصر غلالا"، ومع هذا فقد كان هناك

[٨] تنسب إلى بحيرة، أو مستنقع سربونيس (البردويل الحالية)، وقد قيل أن حاميات كاملة غرقت في طينها، ويضرب بها المثل في المآزق التي لا مهرب منها.

على الدوام طريق واحد على الأقل للقوافل يعبر صحراء التيه من العقبة إلى السويس، ومنها في طريق محاذٍ للقناة العذبة إلى رأس الدلتا، وطريق آخر يسلكه "أهل فلسطين" مارًا بشاطئ البحر المتوسط.

كل هذا لا يتعلق إلا بنصف مصر وهو النصف الأقل أهمية من وجوه كثيرة . فإذا ما جاوزنا القاهرة جنوبًا عند رأس الدلتا فنحن في مصر العليا "في الأرض... السعيدة " كما يسميها العرب كأنها عقد من الزمرد في شق عميق يخترق سطح إفريقيا الذي يتكون هنا من صحراء ذات سطح مستو قحل يتراوح ارتفاعه من ألف إلى ألف وخمسمائة قدم فوق سطح البحر. وقلما يسقط المطر جنوبي الدلتا، والبلاد كلها قاحلة إلا شريطًا من الواحات في منخفضات منعزلة في غرب هذا الشق، أو بعض النتوءات التي تبرز فوق حافته الغربية، وتتراوح سعة الشق بين عشرة أميال وخمسة عشر ميلًا إلى مدى ثلثمائة ميل جنوبي القاهرة. وجوانب هذا الشق من الحجر الجيري الذي أثرت فيه المجاري المائية القديمة، ويغطي الأجزاء الدنيا من هذه الجوانب نطاق من الحصى القديم أصبح الآن فوق مستوى ماء الفيضان. ومجرى النيل من جوانب الوادي جنوبي طيبة من الحجر الرملي، ويأخذ الشق في الضيق حتى لا يزيد على ميلين في المتوسط. وفي أسوان ووادي حلفا عند الحدود النوبية تتعرض التكومات الجرانيتية مجرى الوادي وتعرف بالشلالات: وهي مجار ضيقة بين الجزائر الصلبة الكثيرة، ولا تزيد سعة الوادي عند كلابشة عن مائتي ياردة. ولما كانت كل هذه المنطقة التي يبلغ طولها ستمائة ميل في الواقع عديمة المطر ويزيد من جفافها هبوب الرياح الشمالية الجافة عليها، كانت الزراعة فيها مقصورة على الشريط

الضيق الذي تتصل إليه مياة الفيضان في فصل الصيف، ويبلغ منسوبها ستًا وعشرين قدمًا في موان، وثلاثًا وعشرين قدمًا في القاهرة. ونظرًا إلى أن أرض الوادي ذاتها من الطمي الذي جلبه النيل، فهي تكاد تكون كلها مستوية، ويترتب على استوائها أن أقل تغيير في ارتفاع الفيضان يؤدي إلى تغيير كبير في ما يصيب البلاد من خصب. وفي مثل هذه البلاد حيث الحياة عادة سهلة لينة يتجدد السؤال كل عام عن منسوب الفيضان، وليس من المستطاع الإجابة عنه. ولكن نظرًا إلى أن مياه الفيضان تعتمد اعتمادًا كليًا على الأمطار الصيفية الغزيرة التي على جبال الحبشة، فليس في مقدور العقل البشري ولا في إمكان إي إنسان أن يبتدع ما يعين على الإجابة عن هذا السؤال، وليس من المستطاع إلا تنظيم توزيع ما يرد من المياه بالغة ما بلغت؛ لمنعها من أن تنساب سدى في البحر [٩]، والحصول على قد من المحصولات أكثر من المتوسط السنوي بما يبذل في سبيل ذلك من الجهد المرهق في الشادوف بدلوه وعتلته.

وهناك أدلة ضعيفة على وجود "أعشاب زراعية في مصر" تفيدنا إذا أضفنا إلى الدراسة المقارنة بين شق وادي النيل، وبين نهر الأردن ذي الشق الآخر في الحصول على صورة للنبات الطبيعي في وادي النيل. وقد تكون أشجار النخيل من الأشجار المتوطنة، ولكن هناك أشجار قليلة أخرى أيضًا أضخمها الجميز، واللبخ وهذه قليلة. أما التوت، والرمان، والكرم، فيغلب على الظن أنها مجلوبة من الخارج. وتغطي الشجيرات

[٩] كان هذا قبل تنفيذ مشروعات التخزين الكبرى، كخزان أسوان والسد العالي.

الشوكية والحلفاء حافة الإقليم: وهي ذات رطوبة محدودة، وهي قادرة على تحمل الجفاف. وعلى مقربة من شطوط النهر ينمو البردي، وقد قلت أهمية هذا الورق الزراعي منذ الفتح العربي واستعمال العرب للرق وهو أمر طبيعي لدى المشتغلين بالرعي، كما ينمو القصب نموًا عظيمًا. وتزدهر زهور الربيع، وكان أكثرها انتشارًا الزنبق، والخشخاش، والأقاحي ذات الزهور الكبيرة الصفراء، وزهرة اللوتس، وكان لها مجال زخرفي عظيم في الفن المصري، وتناسبها المياه الراكدة، وكانت أكثر ازدهارًا في الدلتا. والربيع في مصر قصير وينتهي موسم الحصاد قبل حلول فيضان النيل في شهر يولية.

وكانت حيوانات مصر وطيورها مما تعيش في منطقة البحر المتوسط والمنطقة الحارة، وكان الخنزير البري في الدلتا والحمار الوحشي على حافة الصحراء. وكان التمساح وفرس الماء في المناطق المنخفضة، وهما الآن أقل انتشارًا منهما في الأزمان السالفة. أما الجمال، والخيل، والجاموس فقد جلبت من الخارج، على أن الخيل لم تدخل مصر حتى سنة ألف خمسمائة قبل الميلاد، ومن المحتمل أن الجمال والجاموس دخلت مصر في عهد اليونانيين، وكان أبو قردان والكركي وغيرهما من الطيور المائية كثيرة بمصر، كما كانت الطيور الجارحة كثيرة كذلك وصار النسر: وهو ذلك الطائر الحاد البصر الحاضر في كل مكان الذي يفرض نفسه في كل ظرف الشعار الهائل للقوة الملكية.

وأهالي وادي النيل ينتمون أصلا للجنس "البربري" الذي كانت له السيادة في جميع المنطقة الجافة في إفريقية الشمالية، وفي منطقة جبال

الأطلسو ومن المحتمل أنهم من ذوي قربى الأجناس العربية في المنطقة المشابهة فيما يلي البحر الأحمر، ومن هنا كان من العسير أن نتبين الاختلاط بين سكان مصر والعرب، سواء في العصور الوسطى، أو العصور القديمة. وقد تمكن بعض الزنوج من سكان المنطقة الحارة الممطرة بعد أن أصهروا إلى السكان الأصليين على طول الحدود المشتركة بينهم، تمكنوا بحكم عاداتهم التي درجوا عليها في الغابات أن ينتشروا شمالًا عن طريق مجرى النيل. وقد مهد مناخ الدلتا المعتدل أن ينشأ هنا جيل شديد المرأس، مع افتراض قدوم بعض المهاجرين من الشام، حيث وصل الجنس الألبي، أو الأرمني –وهو مختلف جدًا عن الجنس الآخر– إلى المرتفعات الفلسطينية ذات المناخ المتفق مع مناخهم والذي يمكن ازدهار الزراعة فيه. وبعد الاتحاد السياسي بين الشمال والجنوب الذي تم في عهد الأسرة الملكية الأولى أصبح الجنس السائد في الوجه القبلي في مدى وجيز مقاربًا للجنس السائد في الوجه البحري. وربما رجع هذا إلى اختلاط الجنسين، وقد يكون راجعًا –إلى حد ما– إلى تحسين الأحوال المعيشية، وقد ترى صورة من هذا بين ظهر انينا "في بريطانيا" وفي الانتشار بيننا، ونحن أول من استفادوا بالرخاء الذي ظهر في القرن التاسع عشر.

هذه هي أهم الأحوال البارزة في وسائل الحياة في وادي النيل، وكذا أهم الحقائق عن أقدم الناس الذين لدينا تسجيل مادي لهم. وعلينا الآن أن نتبع التطورات التي طرأت أولاً على تأثير البيئة على المصري، ثم على معاملات الناس وتصرفاتهم وأثر ذلك في البيئة المصرية.

إن كثرة ما عثر عليه من الأدوات الحجرية في أرض الصحراء المرتفعة على جانبي وادي النيل وفي أماكن متعددة بالقرب من مجراه لتدل دلالة واضحة على قدم سكن الإنسان في وادي النيل، وفي النوبة، وبلاد الصومال جنوبًا، وسوريا في الشمال الغربي، آثار مماثلة لأول من سكنوا هذه المناطق من بني الإنسان. وليس من السهل أن نجعل لهذه الآثار علاقة بالتاريخ، ومن الناس من لا يزال يعتقد أن عملية سكن الوادي ركدت في فترة من الزمان؛ ذلك أنه في العصر الحجري كان المناخ غير المناخ، كما تغيرت حدود البلاد. على أن قومًا آخرين يرجحون أن توزيع الأدوات والآلات لم يكن مخالفًا لما تقتضيه ظروف تشبه الظروف الحاضرة إلى حد كبير، ويجمع الكل على أنه عندما نزل سكان العصر الحجري الجديد هذه المنطقة كانت كل المنطقة فيما يلي الوادي صحراء. وأن هيئة البلاد الطبيعية بصفة عامة لم تختلف كثيرًا عنها في الوقت الحاضر. ومعلوماتنا عن هؤلاء السكان القدامى لا تزيد إلا قليلًا على ما نعرفه عن أسلافهم في العصر الحجري، إلى أن عرفوا صناعة أشياء لها صفة البقاء زيادة على الآلات الحجرية. وليس لنا وسيلة لمعرفة أحوال معيشتهم طالما كانت سكناهم في أكواخ من الطين، أو في زرائب من القصب كالفلاحين. والنوبيون قانعون بأوعيتهم التي اتخذوها من الجلود، أو قشور الثمار، فما إن عرفوا صناعة الفخار حتى خطوا كما خطا كثير من البلاد الأخرى أول خطوة كبيرة إلى المدينة وإلى التاريخ.

ومع ما لنا من سلطان على خيرات الطبيعة وقواها فإن مهارة صانع الفخار في تشكيل الطين يضرب بها المثل بيننا على المقدرة الفائقة، ولكن

الأمر غير ذلك بين البدائيين. إن اختيار حجر مستدير لاتخاذه قذيفة، أو عظمًا مسننا لاتخاذه مخرزًا، أو دبوسًا. أو قشرة صلبة لثمرة فرع جافة لاتخاذها قدحًا أو قارورة، كل ذلك لا يتطلب إلا بذل جهد ذهني ضئيل. إنه استعمال لهذه الأشياء لا اختراع لها، ومن العسير أن يقال أنه يبلغ مرتبة التكييف، قد يقال أنهم وصلوا إلى هذه المرتبة إذا ما فقد حجر جدته بطول استعماله، فأعادوا له حدته بسنه، أو ببريه. أو إذا حولوا حجرًا على هيئة قدح إلى وعاء، أو وقفوا نمو قرعة بأن يربطوها بخيط حتى إذا نضجت وجفت أصبحت على هيئة قارورة ذات عنق. أو إذا سلخوا العنزة أو الحمل لم يشقوه وأبقوه كاملًا؛ ليكون كيسًا لحفظ الطعام أو الشراب. وهنا أيضًا لم يزد الأمر على مساعدة الطبيعة وتجويد ما تصنعه. أما الفن الخلاق فلا نزال نبحث عنه في مظانه.

حتى إذا كان في استطاعة يد الإنسان أن تخلق من قطعة من الطين اللين لا هيئة لها ولا نفع –يحدوه الخيال وحده – فيخلق شيئًا في هيئة القرعة، وشيئًا يشبه القارورة، أو يشبه الوعاء من الحجر، وما هو بقرعة، ولا قارورة، ولا وعاء، فهنا ظهر الاختراع ووُلد الفن الذي كلما حاول أمرًا جديدًا تطلّب جهدًا من الخيال في التصميم ومن الفكر في التنفيذ. وهكذا يولد فعلا شيء جديدًا. وإنه لمن حسن الحظ أن هذه المادة التي نتحدث عنها عندما تجعل منها النار شيئًا ذا شكل لا يتغي،ر تجعل منها في الوقت نفسه مادة قابلة للكسر لا أمل في طول بقائها. وعلى هذا الأساس كانت الحاجة ملحة إلى تعويض ما يكسر منها، حتى إن بعض الجماعات البدائية تعوض ما يستهلك من الفخار بما تصنعه الجماعة نفسها، كما في بعض

القبائل في جبال أوديس في شمال إفريقيا. وأصبحت الأواني الفخارية عمل عادي في أعمال ربة البيت، كالغسل والخبز، بل لعله ألزم لها منها.

ولابد أن صناعة الخزف من سائر الصناعات في أهميتها العقلية، إلا صناعة النسيج سواء كانت نسج السلال، أو نسج الأقمشة، ولكن بينما تُبلى السلال، والحصر، والأقمشة بمرور الزمن، أو قد تحترق، فإن الفخار لا يمكن أن تزول آثاره إذا كسر لسبب بسيط؛ ذلك أنه إذا كسر فلن تكون له أية فائدة. وإن أثرًا كهذا له صفة البقاء مع توافره في كل مكان وكثرة أشكاله، بمعنى أنه سجل صادق لأحوال الفنان المتغيرة، كما نرى في قطع الفخار المكسورة –في مكان قديم– إن أثرًا كهذا لمن أثمن الذخائر التي نستطيع بها أن نعرف فجر الثقافة الأولى. وزيادة على ذلك ففي بلد كمصر عديمة الشجر كان كثير من الأشياء الشائعة الاستعمال تعمل من الطين، مع أن استعمال الخشب في صناعتها أفضل. وعلى هذا فإن لدينا معلومات عن الحياة المنزلية وما يُستخدم فيها من أدوات، أو ما يمكن أن نتخيل وجوده في بيئة أكثر أشجارًا من هذه المنطقة. ولا علم لنا الآن بالمصدر الذي تلقّى عنه المصريون الأولون صناعة الفخار، ولا دليل على أنها ابتكرت في وادي النيل. وليس للطين المجلوب من النيل الصفات الصالحة للفخار الجيد. كما أن الأشكال التي تركها صانعو الفخار المصريين الأوائل، ولو أنها على هيئة كئوس الزهور تماثل ما صنع في سوريا، وقبرص، وأماكن أخرى في الشرق الأدنى. ولا نستطيع الآن أن نقرر بما لدينا من معلومات، أي البلاد هي التي اقتبست المهنة من غيرها، وكل ما يمكن أن نقرره أن الصناعة الحديثة ظهرت –بل ظهرت فجأة– في مكان بعينه في

صعيد مصر على مستوى عال من المهارة الفنية، وفيها دلالة على خبرة واسعة، وإن كان من غير المؤكد أنها ترجع إلى زمن بعيد.

والمكان الذي نحن بصدده يمتد فيما يلي أبيدوس إلى ما وراء هيراقونبوليس[١٠] والكاب. وتقع طيبة –وكانت عاصمة مصر العليا في العصور المتأخرة– في وسط هذه المنطقة، ولكن يظهر أن مركز المنطقة الأول كان عند ثنية النيل شبه الدائرية بين طيبة وأبيدوس، حيث تقع قفط على ضفة النيل الشرقية، ونقادة ودندرة على ضفته الغربية، وفي هذه المنطقة يجري النيل أقرب إلى وسط واديه منه في أي مكان فيما يلي أبيدوس، حيث يأخذ في الاقتراب من حافة الوادي الشرقية. وعلى هذا ينقسم السهل الذي يغمره الفيضان قسمين متساويين، كما أنه هنا أضيق من الشمال، ويأخذ الوادي في الضيق فيما يلي الكاب جنوبًا، حتى يكاد يختنق عند السلسلة، ولا يبلغ عرض الوادي هناك شيئًا مذكورًا.

في هذه المنطقة كذلك لا يتصل الوادي بما يليه، ويصبح في عزلة لا يقطعها إلا طريقان، ففي الشرق ينثني الانثناءة التي سبق ذكرها، ويصبح في هذه المنطقة أقرب إلى البحر الأحمر منه في أي نقطة أخرى في مجراه. ويكاد قربه من البحر هنا يساوي قربه منه عند خليج السويس، وتبلغ المسافة بينهما مائة ميل. وعند فقط واد جانبي كبير يقال له وادي الحمامات يجري من الشرق، وقد حفر له مجرى عميقًا يمتد مسافة طويلة في الهضبة، وهيأ للناس طريقًا معبدًا إلى الساحل عند القصير، وكان الماء

[١٠] مكان إدفو Hieraconpolis.

متوافرًا على طول الطريق، ولو أن الوادي نفسه كان جافًا. وإذا افترضنا إقامة بعض الناس عند ساحل البحر الأحمر هناك، أو ظهور بعض عناصر الثقافة عند القصير، أو جنوبيها حتى سفوح جبال الحبشة كانت هذه هي النقطة الوحيدة التي يمكن أن يجيء منها الاتصال بسكان وادي النيل.

وفي الغرب كذلك —على مسافة مماثلة— تقع الواحات الخارجة: وهي أقرب واحات صحراء ليبيا إلى قنا وأكبرها، ويربطها بالوادي، ويصل إليها طريق سهل في الصحراء يبدأ عند أبيدوس، أو على مقربة من طيبة، ويمكن متابعة هذا الطريق إلى الداخلة، والفرافرة، وغيرهما من الأماكن المأهولة. ولم نقف بعد إلا على القليل من التاريخ القديم لهذه الأماكن، ولكن ليس هناك ما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت غير مأهولة، أو أنها أصعب اتصالاً من القصير. وعلى كل فإن الصلة بينها وبين وادي النيل كانت في غدوها ورواحها من هذه الطريق.

ومن السهل تصور حياة هؤلاء السكان بمطالعة الآثار التي خلفوها. كانت سكناهم في قرى كبيرة لا تتعدى شريط الأرض الضيق الذي لا يصل إليه ماء الفيضان وإن كان في نفس الوقت مهددًا به. وقد أقاموا في نتوءات من الأرض المرتفعة بارزة على جوانب الوادي المرتفعة، وهي أماكن صحية لارتفاعها فوق مستوى المستنقعات ومياه الفيضان، ومن السهل تحصينها إذا لزم الأمر، ولو أنها لم تحصن فعلاً ببناء جدران من الآجر إلا في عهد متأخر. ولم يبق لدورهم أثر، ولعلها أقيمت لتكون مأوى بسيطًا من القش والقصب تكفي للوقاية من حرارة الشمس نهارًا؛ ولتلطف

شدة البرودة ليلًا، أما المطر فلا يسقط مطلقًا في هذه المنطقة. وكانت قبورهم تبعد عن مسكنهم في الأرض الجافة، بحيث لا تعترض المراعي، أو الأرض المعدّة للزراعة. وكان القرويون يمتهنون الرعي –إلى حد ما– لما لديهم من الأبقار والماعز تحرسها كلابهم، وكان لديهم الحمير ليركبوها ولتحمل أثقالهم. وليس من المؤكد أنهم طهروا الوادي من الأشجار والغابات التي ازدحمت فيه مما لا يزال ينمو في أعالي وادي النيل، وليس من المؤكد أنهم عرفوا ري الأرض، ومع ذلك فقد صادوا التمساح وفرس النهر، كما صادروا الفهد، والغزال، وطيور الماء، وحفظت أعمالهم الفنية صورًا قوية تدل على أثر النعامة في فنهم، وكانت النعامة تعيش حتى هذه المنطقة شمالا، وكان لها منزلة خاصة بسبب ريشها وبيضها. وركبوا متن النيل في قوارب كبيرة نهرية، واستعملوا المجاديف والأعلام، وكان كل علم شعارًا لإحدى القبائل.

كان معروفًا بين القبائل أن كل قبيلة تملك المنطقة التي تنزل بها، وكان يشار إلى كل منها باسم أحد الحيوانات المقدسة، أو أحد الرموز الدينية التي يحترمها رجال القبيلة، وكانت بعض الأسماء والرموز موضعًا للتقدير إلى العهود التاريخية، وهذا يدل على قدر من المعرفة في قواعد المعاملة –ما للإنسان وما عليه– كما يدل على معلومات بدائية في القانون، وعلى تقدير حقوق الغير، وإلى تجارب لهم بدائية في نظامي الحكم المحلي، والحكم الاتحادي. ولما كان الانتقال في الغابة التي يشطرها النيل أقل عسرًا منه في مكان آخر، وكانت الإقامة على كل من جانبي النيل، فقد كان هناك إذن ما يدعو إلى الانتقال بين الجانبين. وهذا الاتصال فتح

مجال المقارنة، ولربما دعا إلى المنافسة، ولا شك في أنه –آخر الأمر– أدى إلى تبادل السلع بين الضفتين. ويجب أن نذكر أيضًا أن الوادي تتغير أحواله بعض الشيء (جنوبي الكاب)، كما تتغير تبعًا لها غلاته، وكما تتغير طرق المعيشة التي يقتضيها هذا التغيير، ويدعو هذا الاختلاف بدوره إلى المقارنة بين ما يملكه أهالي أي منطقة وبين ما يملكه أهالي المناطق الأخرى، وهذا يدعو حتمًا إلى مبادلة السلع. ولا غرور.. فكل نهر عظيم يقيم الناس على ضفتيه مجال متسع للتجارة صعودًا وهبوطًا في النهر.

هذا الإقليم بما فيه من العلاقات القبلية سواء كان مردها إلى الصداقة، أو المنافسة، أو العداوة، وما زاد عليها من المعاملات التجارية بين أعلى النهر وما اقتضته الحاجة إلى طرق للمواصلات بين الشاطئ والواحات. هذا الإقليم في مركز ممتاز لا يكفل له الحصول على حاجاته فحسب، بل وعلى أفكار كذلك مما يهون معه عبء الحياة في منطقة لم تصل بعد إلى أن تكون الأرض السعيدة كما كان العرب يسمونها، ولتمده بأدنى نصيب من وقت الفراغ، ولتحفظ له ذخيرة من الحيوية تؤهله لما كان فيه من وسائل الترف والكماليات، كالفنون، والتنظيم، وغير ذلك من المشروعات. ولقد حصل أهالي هذه القبائل المتشابكة بطريقة أو بأخرى على قدر ضئيل من الذهب، والعاج، والفيروز، كما كانت لهم معرفة بالنحاس والحديد. ومن المحتمل أن الذهب جاءهم من بقاع متعددة من أعالي النيل ومن الغرب فيما وراء الواحات، ومن الحبشة عن طريق البحر الأحمر، والعاج من أهالي النيل غالبًا، أو مما نقله التجار،كالذهب من بلاد الصومال وما وراءها عن طريق البحر، فضلًا عن أن الفيلة كانت توجد في

منطقة النوبة شمالًا فإن صور الفيلة كانت ترى في أقدم الآثار، أما المرجان فلا شك أنه من البحر الأحمر، ولا شك كذلك في أن الفيروز من مناجم وادي مغارة الشهيرة بسيناء، ومن المؤكد أن المصريين استغلوا هذه المناجم في عهد الأسرة الأولى، ومن المحتمل أنهم أضافوا المنطقة إلى ملكهم في عهد الأسرة الثالثة. أما أقْدار النحاس الخام، فمن المرجح أن مصدره من النوبة وسيناء. هذا وأن التماثل بين أشكال الخناجر، ورءوس الفئوس والدبابيش في العصور الأولى وبين مثيلاتها التي ظلت عهدًا طويلًا من المميزات التي اشتهرت بها جزيرة النحاس —قبرص—، هذا التماثل يجعل من قبرص مصدرًا آخر محتملا يرجح ذلك التشابه الفني الكبير بين الفخار المصري القديم والفخار القبرصي.

وندرة الحديد في مصر منذ عهد الأسرة الأولى يجعل مصر في مكانة فريدة بين البلاد التي تستخدم المعادن؛ ذلك لأنها رغمًا من القليل الذي لا شك في وجوده بمصر آلاف السنين، فهي من البلاد التي تستعمل البرنز ولبثت مدة طويلة لا تستعمل إلا النحاس.

وكان استخدام الحديد في مصر نادرًا ندرة استخدام البوصلة والبارود في الصين. كان الحديد في مصر شيئًا نادرًا تتخذ منه التمائم والحليظ، كما استعمل كآلة استوردت مصنوعة من الخارِج. ويظهر أنه لم يكن يعدن في مصر ولم يكن مصدره معروفًا للمصريين، وظل يطلق عليه "معدن السماء" حتى العصور التاريخية كأنهم حصلوا عليه من النيازك، ويبدو لنا الآن أن أقدم معلومات المصريين عن الحديد جاءتهم من الجنوب،

فإن وسط إفريقيا على ما يبدو لنا لم يمر بالعصر البرونزي بل كان الانتقال فيه قديمًا ومباشرًا من الأسلحة الحجرية إلى الأسلحة الحديدية، ومع ذلك فلما قهر المصريون الشام في القرن السادس عشر وجدوا الحديد يستعمل هناك في الحياة اليومية، وأخذوا الجزية من الحديد. ومصر —مع هذا— لم تدخل في إطار العصر الحديدي حتى تقابل المصريون مع جيش الآشوريين سنة ٦٦٨م، واستخدمه الإغريق —من وراء البحار— في الصناعة.

يبدو أن العلاقات التي كانت بين مصر وبين غيرها من قرى وادي النيل في المناطق التي حبتها الطبيعة بخبراتها وعلاقاتها بالشرق والغرب والجنوب فيما وراء حدودها كانت أساس الرقي في مصر. ذلك أن المطالب الجديدة تستدعي جهودًا جديدة، وكل جهد جديد يشيد أساسًا أمتن في وسائل الحياة والأعمال المستحدثة، وهذه —على قدمها— هي قصة الإنسان الأول الذي أعد نفسه وحده للحياة. قد تكون الفرص أمام الناس مواتية من موقع جغرافي، وثروة طبيعية، وجيران مسالمين لهم وفي مستواهم العقلي، ولكن هذه الفرص تحتاج إلى من يستغلها، وكلما كثر عدد من يستطيع استغلال الفرص قوي في البلاد الدافع إلى الإبداع، وسيكون السبق حتمًا لمن هم أذكى عقلًا وأنشط خيالًا، وهؤلاء ملاقون على الدوام ميادين جديدة للفوز، فهم يعرفون كيف يرون الأشياء على حقيقتها، وماذا وراء ما يرون، وكيف يحسنون الاستفادة منها إذا أمسكوا بزمامها؟.

وهناك رأي يعتقد صحته كثيرون في الوقت الحاضر؛ ذلك أن هذه ليست القصة الكاملة لأصل المصريين. لقد اتضح لكثير ممن يوثق في أبحاثهم أن في لغة المصريين، مع أنها إحدى اللغات الحامية، أو البربرية التي تسود شمال إفريقية وجوه شبهت باللغة السامية. التي نشأت في بلاد العرب، وهذا هو عين ما نتوقع حدوثه نتيجة لدخول عدد من الساميين وإقامتهم بين الأهالي الذين يتكلمون البربرية.

ومن الحقائق المتواترة أنه ابتداء من الأسرة الخامسة كان خاتم الملك على صورة الجعران، ونقوشه محفورة في أسفله. بينما كانت خواتم الملك قبل ذلك إسطوانية، والنقوش على سطحها المحدبة، وعند استعمالها تحرك حركة دائرية، والخواتم الأسطوانية من مميزات بابل القديمة، ووجودها منطقي في حياة مدنية تستعمل فيها الوثائق بكثرة على ألواح من الطين. ومع أن الطين قد استخدم في ختم جرار النبيذ وغيرها من الأوعية، فإنه لم يستخدم في تسجيل الوثائق في مصر، حيث كان نبات البردي ينمو نموًا طبيعيًا والورق مستعملًا من أمد بعيد. ومن المسائل التي كانت مثارًا للجدل: أن معرفة مصر بالخواتم الأسطوانية كانت منقولة من بابل، ولم يكن من الضروري أن يتم ذلك بطريقة مباشرة، بل عن طريق التجارة، حيث كان استعمال العقود المختومة ضروريًا، وربما دخلت مصر مع مهاجرين من الشرق لهم صلة بالثقافة البابلية. ومن الأدوات ذات المميزات الخاصة: رؤس العصى الحجرية البديعة الصنع، وملابس العظماء المزركشة، والقلاع المتينة المبنية من الآجر والتي لا تزال صورها باقية. كل ذلك غريب على عادات سكان وادي النيل ومتفق مع عادات بابل،

ولربما رأى بعض العلماء أثر بابل في فن النحت وغيره من الفنون في ذلك العهد.

ثم ظهرت في ذلك العصر بعض الطقوس الجنائزية في المنطقة التي تحيط بأبيدوس وقفط، وهي تُرى ممثلة أحسن تمثيل في جبانات العمر. وأهم ما استحدث في هذه العادات دفن الجثة ممددة بدلاً من دفنها على هيئة القرفصاء، وبناء حجرة من الآجر بدلا من قبر بسيط من الطين، ولقد ظل وضح الجثة منكمشة كما في دشاشة حتى الأسرة الخامسة، وكان الوضعان متبعين في عهد الأسرة الرابعة. وفي نفس الوقت وجدت الجثث التي مددت بطولها محنطة وموضوعة في توابيت. وكلما زاد الإتقان في بناء حجر المقابر أخذت تتحول شيئًا فشيئًا إلى ما يشبه المعابد، حيث تستطيع أرواح الموتى أن تقيم، كما يصبح من الممكن الاتصال بهذه الأرواح، وظلت في نفس الوقت مثوى لراحة الجسد. ويظهر أن لهذا التقليد اتصالا وثيقًا بانتشار عقائد جديدة عن مصير الروح وصلتها بالجسد بعد الوفاة. وكان يوضع مع هذه الجثث المحنطة متاع كثير يشير إلى علو منزلة الميت، ويدل هذا على دخول عنصر جديد من الناس على المصريين.

وفي نفس الوقت كانت عبادة الآلهة ممثلة في الشمس والسماء مع عبادة الآلهة المحلية القديمة، ويعطينا هذا مثلا آخر للتشابه بين عقائد المصريين، والبابليين القدامى، والساميين بعامة، ومن كل ذلك يمكن أن نستنتج أهمية الأسطورة المصرية القديمة التي تزعم أن حورس إله الشمس والسماء عندهم، وأن هاتور إلهتم العظيمة —آلهة السماء، والرعي عندهم—

جاءوا إليهم من "أرض مقدسة" من مكان ما على شاطئ البحر الأحمر، ومما وراءه جنوبًا مع عدد من التابعين من عمال المعادن الذين كانوا في رأي بعض الكتاب المتأخرين "شياطين"، أو كانوا بمعنى آخر يتقمصون الشياطين والأرواح. ومن المعتقد أن هؤلاء الدخلاء المستحدثين دخلوا وادي النيل عند إدفو في نفس المنطقة التي ندرس أحوالها، وأنهم توسعوا في فتوحاتهم "المباركة" في أسفل الوادي، واشتبكوا في معركة كبيرة عند دندرة بجوار أبيدوس مع الأهالي الجهلة أو "المظلمين"؛ لأن كل من لم يؤمن بإله الشمس كان من "أبناء الظلام" في نظر المؤمنين من عابديها.

ولعل شيئًا من هذا حدث في الدلتا في الوقت عينه، ففي هيليوبوليس (مدينة الشمس) على الجانب الشرقي من رأس الدلتا كانت الشمس تُعبد كما تُعبد في إدفو، وحدث أكثر من هذا. فعندما اتسع سلطان عابدي الشمس من أهل الجنوب حتى شمال الدلتا واتخذوا إله الدلتا إلههم، واعتبروا الأفعى إله برتو، وهي عينها "نخابت" إله هيراقونبوليس. ومن المحتمل أنه وفد إلى الدلتا جانب آخر من الدخلاء الذين يتكلمون اللغة السامية، ويدينون بالديانة السامية أيضًا، وكانوا على شيء من المدنية البابلية، ودخلوا الدلتا عن طريق السويس عندما دخل منطقة أبيدوس أقوام من البحر الأحمر، وقد بلغ من شأن هذا الغزو أنه أماط اللثام عن سبب الاختلاف الذي أيدته المقاييس الحديثة، وظهر بجلاء في ما رسم على الآثار الحديثة من صور الناس.

وليس من الممكن أن نتحقق إلى أي مدى كان انقسام مصر كلها إلى دويلات، كل منها في رعاية آلهة محلية على صورة حيوان في أغلب الأحيان معبرًا عن الخلافات في الحياة البدائية. وليس من الممكن كذلك أن نتحقق إلى أي مدى كان هذا النظام راجعًا إلى تفكير عقل جبار من غير أبناء البلاد. ولا شك في أن الحدود تصبح أكثر دقة كلما اتسع نفوذ القبائل المتحدة، ولهذا سبب اقتصادي سليم، فإنه باستصلاح أرض الوادي تزيد قيمة أراضي كل جماعة، كما تزيد مساحة الأرض المزروعة في أعلى الوادي وأسفله زيادة مستمرة، ويصبح من الواجب ضبط الحدود بدقة عظيمة بعد أن ظلت مبهمة خشية أن تصيبها مياه الفيضان.

وهذا التوسع في مساحة الأرض الذي تناولنا أسبابه لم يسبقه فيما نعلم وجود أي نظام للري يضمن زيادة الأراضي القابلة للزراعة. ونظرًا لانقسام الوادي بين قبائل مستقلة لم يكن من الميسور التفكير في نظام الري أو المضي فيه. ولا ترجى أي فائدة من حفر قناة على حافة حدودك الصحراوية إلا إذا وثقت من أن جيرانك في أعلى الوادي يبيحون لك من الماء ما يغذي القناة، كما أن جيرانك في أسفله سيجتذبون مياهك فيملئون بها قنواتهم. ومع ذلك من الواضح أنه بعد ذلك بوقت قصير كانت مصر قد بلغت الكيان الاقتصادي الذي استمر إلى وقتنا هذا.

وهذا "نعرمر" أحد الملوك الأوائل. يرى رسمه محفورًا على رأس صولجانه المحفوظ الآن في جامعة أكسفورد، ومنجله في يده في طريقه إلى فتح القنوات وافتتاح موسم الري. وفي عهد "دن" أحد ملوك الأسرة

الأولى كان بحر يوسف —وهو اسم للقناة العظيمة التي تحد المنطقة المروية غربًا، كما يحدها النيل شرقًا— مجرى لماء الري، يبلغ طوله حينذاك ثلثمائة ميل من أبيدوس إلى منخفض الفيوم التي تبعد عن القاهرة خمسون ميلاً. والفيوم نفسها، وهي واحة تتصل على نهر ما بالنيل، كان جزء منها مهيئًا للزراعة. ولا يعني هذا أن كل أرض الوادي قد استصلحت في عهد الملك "دن". ولكنه يعني أن الملك الذي أنشأ بحر يوسف قد تخيل أن مصر لابد وأنها متحولة كلها إلى أرض خصبة، رغم أن أرضها إذ ذاك كانت تغطيها الغابات، ولم يضع الخطة اللازمة لتنفيذ ذلك فحسب، وإنما كان له من النفوذ والسلطان في طول البلاد وعرضها ما مكنه من تنفيذ هذه المشروعات. وفي الوقت الذي تم فيه استصلاح أرض الوادي ودخول مصر من باب التاريخ من حيث وجهة النظر الاقتصادية تم إنجاز عمليتين في غاية الأهمية في عهد ملوك الأسر الأولى. إن الملك لا يمكن أن يكون إلا في مكان واحد في طرف معين، والصعاب العملية التي يلاقيها حاكم فرد عظيمة جدًا في بلد كمصر بأبعادها وأشكالها الغريبة. ولم يكن من الممكن وهذه حال البلاد إلا علاجان: حكومة حازمة، ووسائل موثوق بها لنقل الأوامر الملكية، وكان العلاج الثاني أيسر تنفيذًا مع أن أهميته للإنسانية أجلّ: إن آخر ما يتعلم الإنسان كيفية إخضاعه لنفوذه هو أخوه الإنسان.

وفي عصر ما قبل الأسرات كان فنانو العصر الحجري يستعملون الرسم لتسجيل الأحداث، ونقل الأخبار، واستعمل الرؤساء وكافة الناس الرموز مما يشبه شارات الفرسان في الوقت الحاضر، كما استعملوا شارات

وفق هواهم مأخوذة من رسوم غير فنيه؛ استعملوا ذلك لتعيين ممتلكاتهم، ورمزًا للآلهة ببعض الحيوانات المقدسة، ولمصر العليا بذلك القصب الخاص بها. وهكذا وما هي إلا خطوة يسيرة حتى تصير هذه الرموز المستقلة مجموعة من الرموز تستذكر بها مدلولاتها وما لها من معانٍ بعيدة. وإنما الخطوة الكبيرة حقًا والتي تدل على قوة ابتكار أعظم هي أن يوضح للكلمات المتشابهة في النطق الدالة على التورية صور للكلمات، وصور للأفكار التي لا يمكن أن يكون لها صور، ففي اللغة المصرية القديمة مثلا يشبه اللفظ الدال على "ابن" اللفظ الدال على الأوزة، فإذا أُريد التعبير كتابة عن اللقلب الملكي "ابن الشمس" رسمت صورة الشمس ومعها صورة للأوزة.

بهذا التدبير العظيم الذي لا يقع فيه ربط بين الصورة وأحد الأشياء، ولا بين الصورة وأحد المعاني فحسب، بل يحدث ربط بين الصورة واللفظ. بدأت كل نظم الكتابة ولعلها بدأت على سبيل التسلية، فالبدائيون كالأطفال يستملحون ما بَعُد عن التناسب أو جانب العقل، فهم يحبون التورية، والفوازير، والاستعارات. ولكن الهزل صار جدًا على وجه السرعة. وقد كانت كالطلسم تحمل معنى مستترًا غير منظور، كما تستخدم في الوقت نفسه –كما نستخدم نحن الآن ألواح الإعلانات– وسيلة لإغراء البسطاء من الناس على أن يشهدوا أمرًا رسميًا من الواجب أن يشهدوه، وكانت هاتان الوسيلتان مما حرص عليه الملوك المصريون الأوائل وافتنوا به، ومن المحتمل أنه كان لأكثر من منطقة –في أقدم العصور– صورها الخاصة للكتابة، ولكن القبائل " الطيبية " الاتحادية كان

لها أسلوبها العام في الكتابة عندما شرعوا في غزو باقي الإقليم وضمه، وكان هذا الغزو هو الفرصة المواتية لتعميم استعماله، كما أنه كان العامل المهم في تبسيطه. حتى في الأسرة المالكة الأولى كانت الممتلكات الملكية تميز بنقش اسم الملك وألقابه. كما كانت تسجل الأحداث الهامة السنوية، ولا غرو إن كان من أبرزها فيضان النيل ومنسوب هذا الفيضان. ومن أفضل القول أن نقرر أن مستوى الجمال في رسم صور الكتابة كان يهبط مع سرعة الرسم، حتى يصير نقوشًا رديئة لا تبين الصلة بينها وبين الصور الأصلية: كالصلة بين خط اليد، والحروف المطبعية. وقليل من الناس من يعرف أن الخط الدارج المسمى بالكتابة الهيراطيقية كان مستعملًا في عصر الأسرة الأولى.

ومشكلة نظام الحكم أشق كثيرًا من محاولة بقاء الاتصال قائمًا بين الملك ورعيته بوساطة الكتابة. وكان لهذا الأمر في مصر حلان كلاهما ميسور: إما المركزية في بلاط الملك، وإما الحكم المحلي في الولايات القديمة، وكان تاريخ مصر السياسي تسجيلاً لسيادة أحد النظامين يتبعه سيادة النظام الآخر وهكذا دواليك. وفي كلتا الحالتين كان عبء المسئولية في الأعمال العامة –أي في أي أمر يتطلب تعاونًا منتظمًا بين الأفراد المشتغلين بالزراعة– ملقى على عاتق ملاك الأرض بوصفهم ممثلين لمن له وحده الفضل في لاحية الأرض للاستغلال.

أما كافة الناس الذين كان لهم نصيب فيما تجود به الطبيعة تحت إمرته، فكانوا يعتبرونهم أيضًا ممثلين لمعاونة الأصليين، وكان لهم نصيب

كذلك فيما يزيد من غلة الأرض من أثر جهودهم الجماعية، على أساس شروط تقضي بأن يتقاضوا جزاء العمل، والإدارة، والحماية من أي خطر خارجي. وكان ينصب نصيب كبير من هذه الأعباء الثلاثة إلى شركاء من غير الإنسان، وبخاصة إلى الإله الخاص بالمنطقة. فإن الطبيعة في وادي النيل –كما رأينا– هي في الأعم الأغلب قاسية غير رحيمة، وعوامل الشر والتدمير فيه في غاية القوة ولاسيما حرارة الشمس والحيوانات السامة. وليس من الممكن تجنب أذاها مهما بذل الإنسان من جهد، إلا أن يكون ذلك إحساناً من ذوي قوة يناصره، وله سلطان عليها.

كانت هذه نظرية الحكم في مصر، كما كانت نظرية الحكم في العالم حسبما تستخلصه مما جرى عليه العمل في مصر. وكثير من الحقوق التي تتعلق بالأرض وحق الشرب، وهما حقان غير منفصلين متى كانت الأرض خاضعة لنظام الري –إذا توافر الماء– هذان الحقان كانا منذ القدم في أيدي الأقرباء من الأفراد ويستمسك بهما أسرهم. وكان الباقي في أيدي رجال الدين بوصفهم الهيئة الأمينة على أموال الآلهة، وكانت نسبة أموال رجال الدين إلى أموال الكافة في الزيادة بمرور الزمن. ففي السنين العجاف ذات البلاء والجفاف كان أصحاب الأرض من غير رجال الدين يتنازلون عن أرضهم للإله ابتغاء حمايته، ويبقون بها يزرعونها له هم وأولادهم من بعدهم، ويمنحون الكفاف بوصفهم مستأجريه الوراثيين. كان نظام الأرض هذا نظرياً، وأما ما جرى عليه العمل فقد كانت سياسة الأسرة الأولى تقتضي بأن تنتقل إلى الملك أراضي الرؤساء في المنطقة التي فتحها، ومن هذه الممتلكات التي لا يمكن أن يطلع بها إلا ملك على مصر كلها، صار

في مصر إدارة كبيرة للممتلكات الملكية التي أصبحت للملك على أساس انتصاراته على الطبيعة. ولما كانت معظم أوجه الخلاف لا تنشأ إلا بسبب الأرض، أو الماء، أو لفتور في نشاط أحد الفلاحين، أو لتذمر آخر –إذ لم يكن من أسباب النزاع غير ذلك– كان القضاء في قبضة أكبر رأس في المنطقة، العليم بعاداتها المحلية. ولم يكن هو في الواقع إلا كبير أصحاب الأرض فيها، ولما كان المصريون قليلي الانتقال، ولا يوجد ما يحملهم على الهجرة منها إلا نادرًا،لم يكن هناك ما يضيرهم إذا كانت العادات وساحات القضاء غير متفقة بين منطقة وأخرى. وعلى كل حال نستطيع الجزم بأن الاختلاف بينها يسير؛ لأن كل ما يتطلبه موضوع النزاع من حاجات وحقوق واضح ومتشابه. ومن هنا لم تشعر مصر مطلقًا بالحاجة إلى أن يكون لها قانون عام، ولكن الشكايات كثيرًا ما كانت ترفع إلى الملك عما يحل بالناس من ظلم طاغ قريب لو أن هذه الصعاب تجد إلى آذان الملك سبيلاً. وأحيانًا يسمع الملك من الشعب ما يحمله على إصدار أوامر عامة لمنع أسباب شكوى الزراعيين. هذه هي نظرية الحكم في الحكومة المصرية المحلية وهذه طرق تطبيقها عمليًا.

ومن جهة أخرى بلغت مصر –كما رأينا– مكانتها في عهدها التاريخي بسلسلة من الانتصارات التي كان الفضل فيها للقيادات الحازمة التي قامت بها قبائل طيبة المتحدة. ولقد كان هذا العمل الباكر الذي كان يمزج فيه البطش بالخير العام أساسًا للملكية المطلقة والحكم المركزي، ولقد أصبحت مصر بحق الفتح مِلكًا للملك، ولكنه احتمل كل المسئولية في رفاهيتها. كان في قبضته حق الدفاع والإدارة، ولم يتخل عن واجب جباية

كل ما يمكنه من القيام بأعباء الحكم. وقد استسلم له الرؤساء وكبار الملاك، واعترفوا بالولاء له، وقد ثبت أقدامهم في ممتلكاتهم، وبقيت لمن رضى عنهم الملك، ولكنهم مطالبون بالإسهام في نفقات الحكم، وإمداد الحكومة برجال السخرة الذين لا يمكن الاستغناء عن خدماتهم في الأراضي المرورية، إذا ما طغى الماء المخزون، أو زاد، أو نقص ماء الفيضان. وكانت العلاقة بين ملك مصر وبين نبلاء مملكته والزراعين فيها هي ما يقرر هذا الاتفاق الاجتماعي بين الفريقين: "امنحوني بعض ما لكم من أرض، وابذلوا بعض ما لديكم من جهد أمنحكم ما لدي من الماء". وكان الملك يتخذ عاصمة ملكه في مكان ثابت. كان في مبدأ الأمر في أحد المراكز القديمة على مقربة من أبيدوس، حيث يقيم آلهته، وحيث توجد مقابر سلفه ومعابدهم. ثم انتقل مقر الملك عندما أصبح الملك "ملك الدولتين"، ولبس تاج الشمال الأحمر فوق قبعة أمراء الوادي البيضاء، وانتقل مقر الملك إلى منف حيث تتصل الدلتا بالوادي. وكان العود دائمًا إلى منف، أو إلى مكان قريب منها كلما كانت مصر كلها في قبضة الملك.

ولكن أصبح من المحتم أن يكون هناك نائب للملك يتمتع بقدر ما من سلطان، ومنذ عهد الملك "دن" الباكر أخذنا نسمع عن "نائب الملك في الدلتا"، و "حامل أختام الملك في مصر السفلى". وكان الملك يحتفظ لنفسه بحكم الوادي على مقتضى العرف القديم وعلى سنن السياسي الحكيم. فإن الوادي كان هو مدر المتاعب، والملك القوي هو الذي يستطيع أن يقبض على أزمة الأمر في بلاد أبعادها الجغرافية لا تيسرها

للحكم فضلا عن أن نظام الإدارة فيها كان يقتضي تقسيمها إلى مناطق لكل منها عاطفته الخاصة وإنتاجه الخاص.

ولم تلبث الأخطاء والمطامع إلا زمنًا –طال أو قصر– حتى كانت مدعاة إلى الاحتكاك بين الملك من ناحية، وبين النبلاء ورجال الدين من ناحية أخرى. وكان في وسع ملك واسع الحيلة أن يكبح جماح الأمراء، لو أنه أرضى رجال الدين وطواهم تحت جناحه، وهو سر من أسرار الحكم غير مجهول في سائر البلاد أو في سائر العهود، وكان له الفضل في تشييد المباني الملكية المتعددة "وترميم" المعابد التي خلدت ذكر ملوك مصر الأقوياء من أقصى الوادي إلى أقصاه. ولكن إذا انضم رجال الدين إلى الأمراء في التآمر ضد الملك، أو إذا استطاع الأمراء أن يمدوا نفوذهم على المناصب الدينية –وهو ما حدث في عهد الأسرة السادسة– فقد تقرر مصير الوحدة المصرية وحلت الفوضى والاضطراب. ثم تأتي المناسبة السعيدة عندما يسترد أحد القواد الحديثين سطوته في منطقته أول الأمر – وهو ما حدث مرارًا لأمراء طيبة وما جاورها– ثم في الوادي جميعه، ثم يمد نفوذه إلى الدلتا بوصفه "حاكمًا"، ولا يأتي هذا النصر الأخير إلا بعد حروب طاحنة تنهك قوة الفاتحين البواسل من أهل الشمال؛ وذلك لسعة موارد الجنوب وتفوقه في الإدارة. وتقديرًا لهذا النصر تنتقل العاصمة مرة ثانية من إحدى المقاطعات إلى منف، أو إلى أحد المواقع الأثيرة في المنطقة الوسطى مع جعل الفيوم حديقة أثيرة للملك.

وقد توالت حكومات مختلفة على البلاد كانت نظمها كلها ضعيفة، وفي استطاعتنا أن نرسم الخطوط العريضة هنا. فملوك الدولة القديمة: وهي تشمل الأسرات الست الأولى، كان يكفيهم أن يحكموا الأمراء المحليين بشيء من اللين، مع أن الموظفين الملكيين كانوا كثيرين إلا أن عملهم كان مقصورًا على الأعمال الإدارية الخاصة بالأملاك الملكية، أو على بعض المسائل السياسية العليا، وهم ممن يدينون للملك بكل شيء، فقد رفعهم من الحضيض، ولا يوجد في بلاط الملك في الغالب إلا " الأبناء الملكيون"، "والأصدقاء الملكيون". أما الجيش فكان تكوينه إقطاعيًا، كل أمير يساهم في تكوينه وإعداده، ولكن للملك –حتى في الجيش– فصائل من الجنود المرتزقة يمنحون أجورهم من إيرادات الملك الخاصة، ولما كانت الضرائب الإقطاعية مفروضة على المصريين جميعًا كان معظم جنود الملك بطبيعة الحال من الأجانب، كالليبيين والسودانيين. ولقد تدهور نظام الحكم الذاتي الإقليمي، وانتهى إلى عهد من النزاع فيما بين الأسرة السادسة والأسرة الحادية عشرة. ولم يغب هذا الدرس عن الأسرة الطيبية العظيمة التي أسست "الدولة الوسطى" بأسرتها الثانية عشرة. ورغم الاعتراف للإمارات السابقة باستقلالها الذاتي كان في كل منها ناموس ملكي لتحصيل الضرائب الملكية، ومراجعة الحسابات، ومخابرة الجهات الرئيسية في الحكومة المركزية، وكل رئيس فقد رئاسته لا تتجدد له، وفي كثير من المناطق يبدو لنا أن الأسر العريقة القديمة فقدت جاهها ونفوذها، وكذلك لم يكف أعمال الملك نائب واحد، بل كان للملك نواب ثلاثة يحكمون الشمال، والوسط، والجنوب، وكان لهذا أثره الطيب. ويمكن أن نعد عصر الأسرة

الثانية عشرة من أزهى عصور التاريخ في مصر، ولكن كان فيها من العيوب ما أظهرته القيادة الضعيفة عندما اعترضت سير الحوادث العادي غزوة الهكسوس، التي كانت أول ما منيت به مصر من خطر التدخل الأجنبي.

أما أسباب هذا الغزو وطبيعته فهو ما يجب أن نبحثه في فصول قادمة، والذي يعنينا الآن بيان أثره في البلاد. ويظهر أن الحكومة الملكية في طيبة في أعلى الوادي كان لها كيان محفوف بالخطر لوقوعها تحت السيادة الأجنبية. ولكن الغنيمم في هذا لم تكن للأمراء؛ إذ لم يكن لهم كبير وزن لدى الحكّام الأجانب. وهذا ما خفف العبء كثيرًا على الأسرة الثامنة عشرة عندما استردت سلطة الحكم، وهذا ما قد يذكرنا بسهولة وصول أسرة تيودور إلى الحكم بعد الوردتين في انجلترا.

لقد تم طرد الهكسوس نهائيًا إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة: وهي أسرة طيبية كذلك. وفي الدولة الحديثة التي أسستها هذه الأسرة كان كل أمر في يد الملك، وكانت الأسرة المالكة بمعزل عن كل طبقات الشعب. حتى أن إصهارها كان محصورًا في أفراد الأسرة، أو كان يتم ليربط الأسرة سياسيًا بالأسر الملكية الأجنبية. وكان مندوبو الملك يقبضون على أزمة الأمور في جميع الإدارات العامة وهم كثيرون لا يخلو منهم مكان، وقد صاروا طغاة على مر الزمن وهو أمر طبيعي في حكم يقوم على هذا الأساس. أما الأمراء فقد خلا منهم المكان وانتقل سلطانهم إلى الملك. وفي أوج عظمة هذا العهد يمكن أن يقال أن الملك قد بلغ من القوة بحيث أصبح رجال الدين لا حول لهم بجانب الملك، وبحيث استطاع إخناتون

ذلك الملك العبقري (الكافر) أن يعلن الوحدانية، ويدعو للدين الجديد، ويستبدله بآلهة المصريين القديمة المبنية على طبيعة الحيوان. ومن السهل التنبؤ بما يترتب على ذلك فقد يكون إخناتون – وشعاره "الحياة للحق"– فنانًا، أوعالمًا دينيا، أو أحد الأولياء الصالحين، ولكن في الواقع أنه لم يكن سياسيًا مطلقًا ، فإن دعوته التي تعارض ما كان للزراع ورجال الدين من عقائد وعادات لخليقة أن تثير في طول البلاد وعرضها مقاومة عنيفة. لقد قُضي على الدين الجديد بموت صاحبه. ولقد أظهرت الأسرة التاسعة عشرة التي تفتح عليها عهد الفوضى القصير الأمد بعد موت إخناتون بما شيدت من معابد عظيمة، مقدار الجهد الذي كان عليها أن تبذله لتستعيد ثقة رجال الدين، ولكن رجال الدين عرفوا مكانتهم. وما هي إلا مسألة زمن فواتتهم الفرصة حتى حصلوا على امتيازات كانت من قبل الملك. والفشل الذي كان من نصيب الأسرة التاسعة عشرة في حروبها الخارجية، كاد أن يكون أعمق تأثيرًا في ضياع هيبتها من أعمال السلب وابتزاز المال التي كانت سائدة في الحكومة الأوليجاركية التي قامت على أساس الحكومات الأوليجاركية في الإمارات المتعددة.

وقد انتهي عهد الدولة الحديثة عندما قام كهنة آمون رع بطيبة بثورتهم السافرة، وسلبوا لأنفسهم ألقاب الملك في آخر عهد الأسرة العشرين. ولما تنازع السلطة "الملك"، والأمراء، والكهنة لم يبق من هذه القوى الثلاث إلا الكهنة، وكانت إدارتهم مطلقة طاغية، قصيرة الأجل، جالبة للدمار. ولأول مرة في التاريخ أخذت إحدى حكومات أثيوبيا تتوسع في الفتوحات، ولم تكن من قبل إلا محجرًا لمصر، حتى صارت لها السيادة

على معظم الوادي. ثم إن آشور -وقد صارت السلطة التي لا تنازع في الغرب الأدنى- قد بسطت نفوذها عام ٦٦٨ق.م. واستولت على الدلتا، وكسرت شوكة الجنوب زمامًا، ولكن آشور ارتدت بعد مدة لم تزد على أربعة أعوام على إثر حركة وطنية ظهرت في مصر السفلى، كانت القوة الحقيقية فيها من اليونانيين وغيرهم من مغامري الغرب، ورجال البرنز جاءوا من الحبر كما أسمتهم النبوءة، وأخيرًا رغم محاولة الفرس إدماج مصر ضمن إمبراطورية التي كانت تضم الشرق كله، استطاعت هذه المؤثرات الغربية أن تقضي تدريجيًا قضاء لا رجعة فيه على عزلة وادي النيل، وأن تهيء ضمه إلى إمبراطورية الإسكندرية سنة ٣٣٢ قبل الميلاد.

هذا العرض لتقدم مصر السياسي قادنا بعيدًا عن فجر التاريخ. إن هدفنا أن نبين كيف أن الأحوال الطبيعية التي لها أكبر الأثر في أول مظاهر الثقافة في مصر ظلت ذات أثر كذلك في تطويرها إلى أمد بعيد. ومن المفيد أن نتتبع هذه الأحوال لنرى استمرار تأثيرها في محاولة اليونانيين، والرومان، والعرب "أن يعيشوا سعداء" في وادي النيل، وتعظُّم الفائدة إذا نحن درسنا أحوال "رجال الحديد من البحر" وهم يلاقون نفس الصعاب في الحصول على الماء، وحيازة الأرض، وطرق المعيشة الموغلة في القدم التي يعيشها الزراع المحدثون المصريون أبناء المصريين القدامى، ويحلون بأسلوبهم الخاص نفس مشكلات الدفاع ضد السودان والشرق الأدنى، وضد الشمس ورمال الصحراء.

بقيت لنا كلمة عن الشئون الخارجية في تاريخ مصر السياسي. إذا جاز لنا أن نستعمل هذا اللفظ فليس لمصر في الواقع أي تاريخ سياسي خارجي، فنحن نرى الصحراء -بمجرد النظرة الأولى- تحيط بوادي النيل من الشلالات إلى البحر، ولكن هذه العزلة كما رأينا من قبل ليست كاملة. فإن طريق البحر الأحمر -فيما يبدو لنا جليًا- هو المسئول عن كل أثر هام تأثرت به مصر منذ أقدم العصور من بلاد العرب، وما وراءها من البلاد، وتمكن السودانيون وهم قوم متبربرون ميالون للحروب، يغلب عليهم الارتجال واحتراف الرعي وإن كانوا يقومون بقدر يسير من الزراعة الأولية إذا توافرت لهم ظروف المكان تمكنوا أكثر من مرة من إقلاق راحة المصريين، حتى تجاوزوا مصر عند الشلال الأول من أسوان، بل استطاعوا في إحدى المرات على الأقل أن يسيطروا على هذا، وفي الغرب كذلك. كان من أول واجبات "الإمبراطوريات" المصرية الواحدة بعد الأخرى أن تعيد النظام إلى الحدود الغربية فيما يلي الصحراء وبخاصة في المنطقة التي تصل سلسلة الواحات بذلك الطريق المنحرف إلى حدود الدلتا، وفي أكثر من مرة كان التوسع الليبي مصدرًا لخطر داهم، وبخاصة في نهاية الإمبراطورية الحديثة عندما حدثت الهجرة على نطاق واسع جدًا، وكان سببها في الغالب ما حل بالمراعي من جفاف في المنطقة التي تقع في النطاق الذي يتأثر برطوبة البحر المتوسط. وقد جلب ذلك على مصر جماعات من أشباه الرعاة يطلبون "الغلال في مصر" والاستيطان في غرب الدلتا. ويصل خطر هذا التدخل إلى أشده عندما يصحب هؤلاء قوم من ملاحي السواحل الليبية، كما حدث في عهد منفتاح (مري – أن بتاح) (١٢٣٠

ق.م)، ورمسيس الثالث سنة ١٢٠٠ ق.م، فقد أفسدوا خطوط الدفاع، حيث هاجموا جناح الجيش ومؤخرته، وتقدموا نحو مصاب النيل، واجتاحوا الدلتا نفسها. وسنعرف فيما بعد من هم هؤلاء المغيرون من أهل البحار، ويكفي الآن أن نثبت وجودهم واشتراكهم مع الليبيين. بقي أمر البرزخ والطريق إلى آسيا، من هذا الطريق تم غزو مصر مرات متعددة في العصور التاريخية، قام بغزوها الهكسوس وهم "الملوك الرعاة" وآشور وبختنصر ملك بابل. على أن مدة الاحتلالين الأخيرين كانت قصيرة لمشاغل خارجية لدى الفاتحين، ثم فتحها الفرس في حكم قمبيز، وفتحها الإسكندر والمسلمون. وقد كان متفقًا مع الجغرافية الحربية أن الإنجليز لم يدخلوا مصر عن طريق الإسكندرية بل من الطريق الواقع شرقي الدلتا بإزاء قناة نكاو ودارا. وكان هذا الطريق وحده طريق مصر كلما فكرت في أي فتح خارجي، وكانت محاولات مصر المتكررة للوصول إلى (بنت Punt) بلاد الذهب، والعاج في الجنوب على ساحل البحر الأحمر للكشف والتجارة أكثر منها للفتح، والمنطقة التي نرغب فيها في الواقع كانت بعيدة جدًا. وفيما يلي البرزخ وراء الطريق الصحراوي المستطيل تقع سيناء في عزلة تامة، وفيها النحاس، ومناجم الزبرجد، والأحجار الصلبة الصالحة لنحت التماثيل: كأحجار أسوان والنوبة. وهنا تقع كذلك فلسطين وسوريا، وكانتا قبلة أنظار المصريين، وكان تقطعهما الطرق الرئيسية الموصولة إلى بابل والشرق الأقصى، وكان غزو مصر لهما طمعًا فيهما، أو لملاقاة أعداء غير معروفين لنا في عهد الأسرة الثانية عشرة، وكانت رغبة الأسرة الثامنة عشرة فيهما أشد؛ لتكونا حصنًا واقيًا لمصر بعد ما شهدت من الملوك الرعاة ما

يستطيع الأعداء الرحل أن يجلبوه من الخراب والدمار. وإنا لنكتفي في هذه المرحلة أن نصور كيف كانت مصر في البدء، وكيف سارت قدمًا. أما ما لاقته في فتوحاتها، وما أصابها من غزاتها فإننا سنعود إلى ذلك فيما يلي في الكتاب (الفصلان الخامس والسابع)، وصفوة القول في الموضوعات التي جعلناها أساسًا لدراسة مصر –أنها بلاد تعيش عزلة لا شبيه لها، وذات كيان فريد نستطيع أن نرقب فيها المدنية المنبثقة في الغالب من صميم البلاد. نرقها وهي تنمو وتزدهر فترة من الزمان مع تعدد في مظاهرها لا مثيل له في أي بلد من بلاد العالم. ولقد حاولنا تفهم الأسباب الإقتصادية لتقدمها ذلك التقدم الغريب، والمشكلات السياسية التي اصطدم بها المصريون وحكامهم، والوسائل التي تذرعوا بها لحلها. كما رأينا كيف أدرك المصريون تدريجيًا –تبعًا لاتساع تجاربهم وبعد أطماعهم– أن هناك عالمًا خارجيًا فيما وراء الصحراء جدير بهم أن يعرفوه. وأن هناك بعد ذلك بلادًا اسمها مصر، يرى هذا العالم الخارجي أنها جديرة بالفتح، كما رأينا ما جلبه معرفة ذلك من الاضطراب عندما أراد بعض الناس أن يعملوا على أساس هذه المعرفة.

وسنترك اللمسات الأخيرة لهذه الصورة لمن يرى لديه متسعًا في الوقت لإتمامها، مستعينًا بما يتاح له من دراسة خاصة في مصادر أوفى. ولا يزال لدينا سؤالان بارزان ينبغي لنا أن نبحث عن إجابة لهما:

أولًا: هل من سبيل إلى أن نعرف شيئًا عن تلك الحضارة التي سبقت فيما يظهر حضارة المصريين، والتي لم يكن مفر من أن ننسب إلى تأثيرها

البالغ في القدم الحافز الوحيد الخارجي إلى التطور والجهد الذي كشفه استعراضنا لأصول المصريين؟ وأن نعرف أين نبتت، وما أصلها، وماذا كانت روابطها مع بلاد أخرى كانت أكثر تأثرًا بها من مصر؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستكون هي فجر التاريخ في بابل، وآشور، وشاطئ سوريا.

وثانيًا: ما معنى "ظهور أقوام من وراء البحر الأخضر" يطوفون حول حدود الدلتا، بلغ من قوتهم وشدة ساعدهم –كلما قدموا مصر في زياراتهم المتكررة– أنهم كانوا أقدر من بابل، أو الدويلات المتفرقة منها على تقرير مصير مصر في إمبراطورياتهم. إن فجر التاريخ هنا هو في الغرب في البحر المتوسط.

الفصل الرابع

فجر التاريخ في بابل

بابل تشغل الدلتا التي يكونها اتصال نهري دجلة والفرات. وكان ازدهارها ودمارها راجعين إلى حسن استغلال خيرات هذين النهرين، أو سوء استخدامهما.

ويمر الفرات كالنيل في ثلاث مراحل متباينة من منبعه إلى مصبه، وتقع منابعه في أقاصي أرمينية، ولقد شق له مجريين متوازيين يزيد طولهما على أربعمائة ميل، قبل أن يجاوزا الجبال، وفي مجرى متحد يجري في واد عظيم. ثم يجري النهر ٧٢٠ ميلا من سامات إلى حيت في برية عديمة الشجر، يزداد استواؤها وقحولتها كلما زاد بعدها عن الجبال. ويمده من الجانب الغربي نهر واحد هام هو نهر ساجور، ومنابعه شديدة الارتفاع بجوار قرقميش، ولا يصب فيه من الجانب الشرقي إلا فرعان: هما بلخ، والخابور، وكلاهما في ثلث هذا القطاع الأوسط. وكان الجانب الشرقي قديما آهلًا بالسكان إلى منطقة نهر الخابور، وفيه قام إقليم حران ودولة الميتاني القديمة. وفيما عدا هذه المنطقة أرض صحراوية فيما يجاور بلاد العرب، وفيما بين النهرين. والنهر نفسه سريع الجريان، وتعترضه بعض الشلالات، ويجري في وادٍ عميق تحده جدران صخرية، ويبلغ سعته بضعة أميال وهو صالح للزراعة إلا أنه مغطى بأحراش الطرفاء والصب، والخنزير البري نزيل

ثقيل فيه. وجماعة العرب المقيمين الذين يشتغلون بالري البدائي فيه يستخدمون السواقي، ويدفعون إتاوات لقبائل البادية الأقوياء. وعند منتصف المسافة يحل النخيل محل الزيتون. وقبل أن يصل النهر حيث يضيق مجراه وتكثر فيه الجزر، والأرض عند حيت صلبة وتنتهي بحاجز جبلي أشد صلابة به عيون فيها الكبريت، والأملاح، والبيتومين، وتبلغ سعة النهر هنا ٢٥٠ ياردة، ولا يزال جريانه سريعًا خلال هذه العقبة الأخيرة، ويتكون الجزء الثالث كله من الغرين الذي جلبه النهر، وطوله ٥٥٠ ميلا من حيت إلى الخليج الفارسي[١١]، وسرعان ما يتفرع النهر فرعين رئيسيين يتفرعان بدورهما إلى مجارٍ ضيقة مختلطة ببقايا القنوات القديمة، ويرسب النهر كثيرًا من الرمال والغرين في مبدأ مجراه، ثم يرسب طينًا شبيهًا بما يرسبه نهر النيل، وقد زادت مساحة شاطئ البحر كثيرًا بما يحمله النهر في الأزمنة التاريخية، نذكر على سبيل المثال (إريدو Erido) إحدى الموانئ الهامة في بابل القديمة: وهي الآن على بعد ١٢٥ ميلا من شاطئ البحر، ولو اتخذنا المعدل الحالي لامتداد الأرض داخل البحر —وهو يبلغ ميلا كل ثلاثين عامًا— أساسًا للتقدير —وهو لا يمكن الجزم به إلى الآن—، فإن إريدو قد بدأ الغرين يرسب حواليها عام ١٨٠٠ قبل الميلاد.

ومجرى دجلة يشبه مجرى الفرات من الناحية الجغرافية، ومنبعاه الرئيسيان اللذان يبدآن على القرب من منابع الفرات يستمدان مياههما من مشارف أرمينية، وتبلغ المسافة من نقطة تقابلهما إلى سامرا، حيث تبدأ

[١١] الخليج العربي.

دلتا النهر ٢٥٠ ميلا، فيها تلال متجاورة أولها ثم ينبسط الوادي. وهذا الوادي كان موطن الآشوريين، ثم يلي ذلك مراع وصحراء لا يصب فيه الآن نهيرات في الجانب الغربي، ولكن كان هناك قديمًا مجرى فيضي يجري إلى الجنوب الشرقي من حوض الخابور. أما في الشرق: فإن المياه الغزيرة التي تسقط على مرتفعات ميديا -وهي الأرض التي تكاد أن تكون موازية لمجرى النهر- يجلبها إلى النهر عدد من النهيرات أشهرها الزاب الأكبر، والزاب الأصغر، ومن هنا كانت مياه دجلة أوفر من مياه الفرات، ونظرًا إلى سرعة التيار فيه كان ما يحمله من الطمي أكثر.

وعند خط العرض الذي تقع عليه بغداد -على نحو مائة ميل جنوبي سامرا (وفي المنطقة الفيضية) يقترب النهران حتى لا تتجاوز المسافة بينهما ٣٥ ميلا، ثم يتباعدان في سرعة إلى مائة ميل. وعلى مسافة قصيرة فوق هذه النقطة كان الفرات في الأزمان القديمة مقسمًا إلى فرعين رئيسيين، وكان الفرع الشرقي منهما مقصودًا به ري المنطقة المجاورة لبغداد، وكان جزء منه على الأقل -وهو ما يعرف بقناة صقلوي- غير طبيعي، بل قام الأهالي بحفره، وكان هذا الفرع يجلب أيضًا مياه الفيضان؛ لأن مستوى الفرات في الجزء المرتفع من بابل أعلى من مستوى دجلة. وجنوبي هذه المنطقة تنعكس الآية، فلا يمد شط الحي فيما يلي منطقة (لاجاش) نهر الفرات بالماء، ولكنه يصب ماءه في أوقات مختلفة في دجلة عند أور وما وراءها. وفوق ذلك كان يملأ الدلتا منذ أزمان قديمة جدًا شبكة من القنوات أعدت لتوزيع مياه الري، كما أعدت لوقاية الأراضي المنزرعة من رمال الصحراء. وكان أهمها قناة شط الهندي التي تنحرف عند بابل، ثم

تسير بمحاذاة حدود الدلتا الغربية، ثم تتصل ثانية بالنهر على مقربة من (إرك Erech) ، ثم شط الحي: وهي القناة التي مرَّ ذكرها. وتدبير أمر هذه القنوات العظيمة يستلزم شيئًا من المهارة، ولا يحدث الفيضان في هذه الأنهار في مواعيد منتظمة، ويرتبط بذوبان الثلج التي تغطي الجبال في المدة من مارس إلى أبريل، وكثيرًا ما تزيح أمامها السدود والجسور المنشأة من الطمي، كما أن ما تحمله المياه من الطمي يبلغ من كثرته أنه رفع مجاري المياه والأرض المجاورة لها فوق مستوى الأراضي القريبة منها، والمجريان الرئيسيان اللذان كان بين مطبيهما في عهد الإسكندر مسيرة يوم أصبحا الآن مجرى متحدًا عند البصرة على بعد ٣٠٠ ميل جنوبي بغداد. وتبلغ سعة شط العرب وهو اسم هذا المجرى المتحد ألف ياردة، وهو صالح للملاحة وعلى مسافة قصيرة يصب فيه من الجانب الشرقي نهر قارون العظيم، ويحمل مياه منطقة عيلام القديمة.

وكانت هذه المنطقة كلها ذات التربة التي جلبتها الأنهار آية من الخصب في ظل الحكم الصالح. النخيل فيها محلي، وكان الرأي قديمًا أن القمح –كذلك كان موطنه هناك، وكان محصوله مرتين، وأحيانًا ثلاث مرات في السنة– تنتج كل حبة مائتي حبة، أو ثلثمائة حبة، أما الأرز وهو المحصول الرئيسي الآن فقد أدخل المنطقة إبان حكم العرب. إن حالة هذه المنطقة اليوم من ضعف يعزي أولًا إلى الأتراك الرحل في القرن الحادي عشر، ثم ما كان عليه عرب العراق من الإهمال وعدم المبالاة.

وكانت كل أنهارها صالحة للملاحة صيفًا، أو كان من السهل إعدادها للملاحة، وكانت السفن الشراعية تسير في النهر صاعدة إلى حيت وسامرا، ولكن الفيضان كان ينتهي في سبتمبر وتهبط مناسيب الأنهار إلى أدناها في نوفمبر، وعندئذ تمنع المياه الضحلة وبقايا الجسور المتهدمة الملاحة منعًا تامًا.

هكذا كانت بابل. ولكن قبل أن نتبين الأعمال التي كان على الإنسان أن يقوم بها لاستغلال مواردها يجب أن نلم إلمامًا وجيزًا بالبلاد التي تحيط بها.

ففي غرب بابل يقع سهل بلاد العرب العظيم؛ ذلك السهل الذي يتدرج في الارتفاع إلى الأردن والبحر الأحمر، ولا يكاد تميز سطحه صفة خاصة، وأفضل مواقعه ما بنيت فيه الحشائش. على أن معظم بقاعِه صحراء في الوقت الحاضر، ولقد كان لأهل الصحراء المولعين بالارتحال المشتغلين بالرعي أثر بالغ كما سنرى فيما بعد فيما وقع لبابل من أحداث، وكذلك في سائر البلاد التي تجاورهم مما يعد من الحقائق البارزة في سجل التاريخ.

وفيما وراء دجلة شرقًا تشرف المنطقة المرتفعة، وهي تتكون من سلسلة الجبال فوق أخرى من الحجر الجيري الضخم، يبلغ ارتفاع الممرات التي توصل إلى الهضبة المجاورة خمسة آلاف قدم وستة آلاف قدم. وارتفع قمم الجبال إلى ما فوق أحد عشر ألف قدم، ويتراوح ارتفاع الأجزاء الدنيا

في الهضبة بين ثلاثة آلاف قدم وألف وخمسمائة قدم. وتبلغ سعة النطاق الجبلي المحيط بها حوالي ثلثمائة ميل. كما تتراوح سلاسل الجبال الموازية بين خمس وعشر، وبين هذه السلاسل أودية يختلف اتساعها وارتفاعها، ويختلف عدد سكانها قلة، وكثرة، وأهل كل وادٍ يعيشون في عزلة عن كافة الأودية، بل في عزلة عن العالم الخارجي، وبعض الأودية لا منفذ فيها لتصريف مياهها، ولكنها تحتوي على بحيرات عظيمة: كبحيرة وان وأرميا في الشمال، وشيراز في الجنوب، ومعظمها تصب المياه الكثيرة التي تأتي من سلاسل الجبال المغطاة بالجليد إلى خزائن عظيمة، ومنها إلى مجارٍ ضيقة واقعة إلى الغرب، وتنتهي إلى قليل من الأنهار الكبيرة، وبعض هذه الأنهار كما رأينا روافد لنهر دجلة وبعضها فيما يلي هذه جنوبًا يصب ماءه مباشرة في خليج العرب. ولها دالاتها الفيضية الخاصة. وفي الجزء الأوسط ثلاثة من أكبر الأنهار: هي قارون، وجراحي، وتاب، تتصل سهولها بسهول شط العرب الآن، وتبلغ مساحتها مجتمعة مساحة بابل –أي "بين النهرين" وتعوق الملاحة فيها بعض المواد الرسوبية، ولكن أوديتها المنخفضة خصيبة وصّالة للزراعة.

وفيما يلي هذه الشطوط، ترتفع التلال بين قارون ودجلة على مقربة من رأس الخليج القديم، ويلي هذه فلاة متسعة متموجة السطح، حتى إذا انتهينا إلى حيث يقابلنا أول مجموعة من الجبال العالية، فتجتذب الرطوبة من الهواء. نرى هناك نطاقًا ضيقًا من الغابات حيث يوجد البلوط في منخفضاتها، والأرز والصنوبر في مرتفعاتها، وهذه تمتد من نهر ديالة جنوبًا إلى شيراز. وفيما يبدو كان الوصول إلى هذه البقعة الغنية بالأخشاب

–في منطقة عديمة الشجر– من العوامل التي كانت تدعو إلى النزاع في الأزمنة القديمة. وفي البقاع الأكثر ارتفاعًا يكثر الصنوبر، ولا يكاد يوجد أي أثر للنبات في الأودية العميقة ذات الماء القليل. ولكن على المنحدرات الشرقية الجافة هناك بعض الشجيرات العطرية القليلة، وشئ من الصموغ الطبية. ثم تبدأ هضبة خاوية تنتشر فيها الأملاح في معظم الأوقات: هي القلب الميت لبلاد فارس –في عصريها القديم والحديث– وعلى أطرافه الواحات، تكونت بفعل ما يصل إليها من المياه التي تجري إليها من جوانب الجبال. ونحن لا نعني بهذا القلب الميت الآن ولا بواحاته الهاشمية، ولكن بحثنا مقصور على السهل الرسوبي، وعلى سفوح التلال، وعلى نطاق الغابات التي تتكون من مجموعها منطقة عيلام القديمة، وعلى السهول الداخلية والأودية المرتفعة التي كانت موئلاً للميديين والفرس القدامى، وهم أوائل من دخل سجل التاريخ من سكان المرتفعات.

هذه إذن جيرة بابل: في الشرق تلال حضيض وجبال عالية، وفي الغرب صحراء منخفضة رتيبة لا معالم فيها، وعند منابع الأنهار صحراء أخرى ومراعٍ لا يخترقها إلا مجاري الأنهار دون غيرها. فمن أي النواحي قدم إلى بابل سكانها؟. إن المدينة التي سادت هذه البقعة ذات الطبيعة المتباينة –التي نسج أديمها نهر ومراع ومستنقعات– مدينة موغلة في القدم، كما بلغ من احتفاظها بوحدة طابعها منذ أقدم العصور أننا لا نعرف لهذه المدينة مصدرًا. إنما هناك أمر واحد محقق؛ ذلك أنها كانت قائمة ومزدهرة حينًا طويلًا من الدهر قبل أن يبدو عليها أية سمة دالة على مجرد الاتصال بالعرب الرعاة. وليس في وجوههم ما يدل على تشابه بينها وبين وجوه

سكان الصحراء، وأكثر دلالة على التباين أنه ليس بين لغتهم البدائية الأصلية وبين اللغة السامية أي تشابه، بل أن هناك تشابهًا ملحوظًا بين أهل بابل ولغتهم من جهة، وبين اللغة وأصحاب هذه اللغة الذين يعيشون في الإقليم الذي يبدأ في المرتفعات التي تلي نهر دجلة وتمتد شرقًا إلى مدى بعيد، كما أن تكوين كلمات اللغة السومرية من جملة من كلمات —متصلة وهذا هو اسمها الوطني القديم— في النصف الأدنى من دلتا النهر يشبه تركيب الكلمات في اللغة التركية، والمغولية في هضبة آسيا الوسطى. ونظرًا إلى أن هذه اللغة ذات هذا التركيب الخاصن تنتشر في معظم الدنيا الجديدة كذلك، فلا مجال للشك في احتمال استعمالها قديمًا في هضبة إيران. وما وراء حدودها الأولى هي حضارة سفوح التلال المجاورة لرأس الخليج الفارسي، والمتاخمة لحوض دجلة.

ومن الطبيعي أن نفترض أن في أقدم المحاولات، بل إن أقدم المحاولات لإصلاح تلك المستنقعات قد قام به أول الأمر سكان المنطقة القابلة للزراعة التي يخترق فيها دجلة الصحراء، فالزراعة هنا ممكنة بمجهود يسير كما رأينا، ويبدو أنها قديمة جدًا، وبخاصة فيما يتصل بهذه المنطقة شمالًا. وهناك ما قد يحمل على الاعتقاد أن أول محاولة لضبط نظام الري في الأنهار التي تتفرع جنوبي حيت. فتكوّن دلتا الأنهار كانت محاولة لتحسين الجزء الأعلى من هذه المنطقة الرسوبية. وليس من ريب في أن ضبط نظام الري كان يتجدد من وقت إلى آخر عندما اتسعت رقعة الأرض المنزرعة، وعندما أخذ الأمر يستقر، والنظام يستتب في بابل لدى دخولها في العصر التاريخي، ونظرًا إلى أن هذه المدنية ذات أصل مزدوج

فقد يبدو من الضروري أن نتناول بالشرح هذا الازدواج في المدنية الأولى. ففي الشمال تقع أكاد وهي صغرى المنطقتين وأفقرهما، يعوق اتساعها على الدوام الرواسب الخشنة —وهي أول ما يرسبه النهر— وفي الجنوب سومير: وهي أوسع المنطقتين، وأرضها خصبة معقدة آخذة في الاتساع على الدوام. أحد جوانبها مطل على الخليج، وجانب منها يحده نهر دجلة والبحيرة الكبيرة الضحلة التي تليه في اتجاه نهر قارون. وجانب آخر يتاخم الصحراء حيث توجد طرق مطروقة —كما في مصر البدائية— تتجه نحو الجنوب الغربي إلى الواحات الداخلة، وسنرى كيف أثّر هذا الظرف الأخير في تاريخ بابل فيما بعد في الفصل الخامس عندما نتناول بالبحث علاقتها بسكان المراعي. وإذا وقفنا برهة لنوازن بين موقع ما بين النهرين وبين بلاد النيل، رأينا الاختلاف في اتجاه النهرين، وما ترتب عليه من أن أعالي النيل حارة المناخ، وأن دال النهر المعتدلة في الشمال، بينما تقع دال الفرات في منطقة من أشد مناطق العالم حرارة. وتقع شلالات النيل كلها في أعاليه، وانخفاض الوادي مقصور على مناطق قليلة. حتى إن مياه النهر البطيئة لتصلح للملاحة من أسوان إلى شاطئ البحر، ثم إن النيل قد فرغ من ترسيب المواد الخشنة —التي تعوق الملاحة— على مسافة كبيرة من هذه الشلالات، ولا يحمل الآن إلى مصر إلا الغرين المخصب الناعم الذي لا يترك في نظام الري إلا أثرًا ضئيلًا. أما الفرات فعلى عكس النيل سريع الجريان رغم اتساعه في كل مجراه الأعلى وآخر سد فيه عند مدينة حيت، وهي على النهر أشبه بالقاهرة على النيل منها بأسوان. وعلى هذا كانت مياه النهر تصل إلى المستنقعات وهي محملة بالرواسب الخشنة التي كانت

تردم مجاري الأنهار الواحد بعد الآخر، وتسبب الفيضانات المدمرة التي نقلتها إلينا الأساطير البابلية، وذكرت أنها غمرت البلاد حتى وصلت إلى الصحراء كما قرأنا في أشهر قصصهم: "إن كل ما أظلته السماء من تلال عالية كان مغمورًا بالماء" ولقد طغى الماء على ارتفاع ثماني عشرة كوبيتا [١٢]، وما من "جبل" في بابل إلا أتلفه أحد الفيضانات ذات المنسوب المعتدل. ولقد لبث هذا الطوفان حوالي واحد وعشرين أسبوعًا، وهي المدة التي يفيض فيها نهر الفرات؛ إذ يبدأ فيضانه في أبريل ومايو، ويبلغ أوجه في أغسطس. وفي سبتمبر "أي في الشهر السابع" تنخفض مياة النهر.

ونهر النيل مُبرأ من هذه التقلبات المثيرة. والشمس في الديانة المصرية هي الإله العظيم النفع، أو العظيم الضر، وعلى ذلك فهي (على مر الزمان) الإله الأكبر، وهي "القوة فوق العرش" وأعداء هذا الإله قُوى الظلام والبرد لا قُوى الرطوبة، أما في بابل وفي آشور بوجه خاص: وهي أقرب سفوح التلال، فالناس و الآلهة الكبار سواء: لا حول لهم ولا قوة إذا انطلقت شياطين الرياح. وأول نصر للخير هو أن يوثق التنين الذي يعيش ليتكاثر في المياه المظلمة، وهو آية عندهم على تجمع الرواسب حتى تسد مجرى الماء.

وعلى هذا فهناك عدة أسباب لازدهار المدينة البابلية في الدلتا لا في الوادي. وهذا ما كان محتملًا لولا أن الحضارة في وادي النيل نضجت بخطى أسرع. وترتب على ذلك أم مراكز الحضارة في بابل، وكانت حوالي

---

[١٢] حوالي ٢٠ قدمًا.

اثنى عشر مركزًا كانت متجمعة لا مبعثرة في شريط واحد طويل أخضر يبلغ مئات الأميال. ولما كان مجرى دجلة ومجرى الفرات مشتبكين يفيض الماء في أحدهما حينًا ويفيض في الثاني حينًا آخر كانت المواصلات الداخلية عظيمة إلى أبعد الحدود، على خلاف ما كان يعرض من أخطار عند اختراق دلتا نهر النيل في الانتقال من مكان إلى مكان. وفي بابل لم يكن المألوف الانتقال إلى مدينة بابل إذا ما أريد السفر من لاجاش إلى أور، كما يصعد القطر والسفن إلى القاهرة إذا ما أريد الانتقال من الإسكندرية إلى بور سعيد. وكان في معظم الجهات طريق مائي مستقيم، ولم يكن الفرات صالحًا لسير السفن الكبيرة حتى مدينة حيت، ومع أن دجلة كان صالحًا لسير السفن الكبيرة حتى الموصل لم تتجاوز الملاحة قديمًا في دجلة، أو في الفرات أسفل النهر؛ ذلك لسرعة جريان الماء وتعذر جر السفن فيه. ولا تهب مطلقًا على النهر رياح كما تهب على نهر النيل فتسير الملاحة فيه، والقوارب بل الأرمات لحمل الأخشاب —في أعلى النهر في إقليم خال من الغابات— أجل فائدة في عملية سحب السفن الشاقة. وأفضل الأرمات ما كان مصنوعًا من إطار من الخشب يشد إليه جلود لا ينفذ منها الماء حتى إذا أفرغت حمولتها أعيدت مطوية على ظهور الحمير.

وأساس الحضارة البابلية في شدة الخصب في أرضها متى توافر لها الماء بالقدر المناسب، فإذا تجاوزت كمية الماء القدر اللازم صارت الأرض مستنقعًا صاخبًا، وإذا قلت صارت صحراء قاحلة. ولا يزال في بابل إلى الآن مناطق وسط الإقليم الزراعي المهيأ للري، ومع ذلك فلا يزال الواديان باقيين يستوردان البضائع إذا كان من المعتذر أن يصدراها للخارج.

ونهراهما ينبعان كما رأينا من أماكن ذات محصولات، بابل في شدة الحاجة إليها: كالأنبذي، وزيت الزيتون، والأخشاب، والبيتومين للبناء وللوقاية من تسرب الماء، والأحجار بصفة خاصة.

ومن العسير علينا الآن أن نتخيل القيود التي كان يخضع لها مهندس البناء في عمله إذا عرفنا أن مسقطًا من الحجر في أحد الأبواب كان يعد هبة كبيرة من أحد الملوك إلى إلهه، وأنه كان يستنقذ مرة بعد مرة كلما دمر البناء، ويعاد استعماله ويعاد إهداؤه. وكانت التجارة قائمة فيما وراء دجلة شرقًا تخترق سفوح التلال إلى إحدى المناطق القريبة المنتجة للأخشاب، ثم إلى ما وراءها إلى بلاد أحرقتها الشمس المتوهجة، تنتج التوابل والعقاقير، وكانت هناك صلة ببلاد أخرى تنتج التوابل في الجنوب، وبشواطئ البحر الأحمر غربًا للحصول على المرجان، والنحاس، والحجارة الصلبة.

وأما ما كانت تصدره بابل في مقابل ما كانت تستورده من السلع: فأهمه الفائض الذي لا ينفذ من الأغذية، والحبوب، والبلح، وقدر كبير من الصوف الجيد –الذي ترجع جودته إلى أن غذاء الماشية التي يؤخذ منها كان أفضل من غذاء ماشية الصحراء– وأحمال كبيرة من المنسوجات الصوفية، والملابس البابلية، وغير ذلك من المصنوعات التي زادت مقاديرها بمرور الزمن. ومن فضل القول أنها أصبحت مركزًا ممتازًا للتبادل التجاري، وكأنها لندن العصر القديم تتجمع فيها المنتجات العالمية إلى تجار الجملة، ومنها توزع لتجار التجزئة في البلاد النائية بالاستعانة بالمكاتبات

المنتظمة والمكاتب الفرعية، واستخدام الحمار، كما استخدم الإنسان في الحمل. ولم تستخدم الجمال والخيل إلا في عصر متأخر، وقد جلب الجمل من بلاد العرب (موطنه الأصلي)، واستقدم الحصان من الشرق مما يلي التلال الشرقية.

وليس من المستغرب —وقد بلغت الصناعة والتجارة مركزًا ممتازًا في حياة بابل الاقتصادية— أن يبلغ نظامها الاجتماعي مكانة تدعو إلى حيرة عالمنا الحديث. نخص بالذكر الاعتراف بحق الإنسان في الصناعة، والمهارة الفنية، وما يغله من كسب للرجل والأنثى على السواء. ولم تكن مكانة المرأة المتزوجة رفيعة (لأن مشاركتها للرجل كانت موضع تقدير) وحريتها عظيمة فحسب، بل كان للنساء غير المتزوجات مكانة خاصة في عالم الصناعة، معترف بها في الجمعيات التعاونية الكبيرة، ويقرها الدين وتحوطها مواثيق من المرأة بالتزام العزوب والعناية التامة بالعمل. ولم يكن أعضاء هذه المؤسسات كراهبات القرون الوسطى، بل كان لهن كل الحرية في عملهن ووقتهن، يقمن حيث يشأن ويزاولن من العمل ما يحببن في حدود عضويتهن ما حفظن عهودهن وقمن بواجباتهن. ولم تكن هناك فروق اجتماعية إلا بين الرقيق والأحرار، وبين من لا يملكون شيئًا من العقار وهم العمال في الغالب، وأصحاب الأملاك، وهذه الطبقة الأخيرة تشمل الموظفين العامين، فإن أصحاب الوظائف العامة هنا —كما في أوربا في العصور الوسطى— لا يمنحون عنها أجورًا، ولكنهم يمنحون أرضًا تكفي الموظف وتقيم أوده وتسد أعباء وظيفته. ونظرًا إلى أن الامتيازات تستدعي وجود مسئوليات، فإن من يرتكب أية جريمة فإن عقوبته تكون أشد متى

كان من الطبقة العليا. وكانت أجور الأطباء متفاوتة حسب طبقة المريض، وفي أدنى السلم الأرقاء ولهم أن يدخروا، وأن يكون في حوزتهم أموال، ومن حقهم أن يشتروا حريتهم. وحالتهم أساسًا كانت تقتضي – كحالة الرقيق في سائر أنحاء العالم القديم– السير المحتوم نحو حياة أفضل.

وكانت المدينة البابلية تقام حول معبد الإله الذي يرعاها، ولن تجد ما هو أقوى دلالة على قدم هذا النظام الاجتماعي من ذلك النفوذ العظيم الذي كان لرجال المعابد، وهو يوضح لأذهاننا طغيان الملوك الكهنة في الأسرة الحادية والعشرين أكثر من أي صورة أخرى من صور الحياة الاجتماعية القديمة في مصر، وكان كبير كهنة المعبد هو حاكم المدينة. وعندما جاء الفتح وانتصر البابليون وأنشئوا إمبراطورياتهم جاء المنتصرون بمن يثقون فيهم وأقاموا حكامًا للأقاليم، وجعلوا من كل منهم كبير الكهنة في الإقليم. وكان هذا الحكم الشخصي متفقًا وحاجة المدن في ذلك الحين. وفي هذه الجماعة الصناعية المشتبكة كان من السهل ظهور أصحاب الكفاية الممتازة وظهور المقصرين. ولما كان الإله الأعظم هو المالك الأول، وصاحب العمل الأول، والتاجر الأكبر، فإنه ليهمه أكثر من سواه اختيار الحاكم الكفء. وبهذه الطريقة كانت لكل مدينة حكومتها التي تستحقها، وإلى هذه المسئولية الشخصية المركزة في الحاكم –تلك المسئولية التي كانت عماد نظام الحكم– يعزي قدر كبير من معلوماتنا عن سير العمل في الحكومة، مما دُوِّن في المكاتبات الرسمية الكثيرة بين كبار الرؤساء: أمثال

حمورابي، ونوابه في المدن، أو مما ذكره أحد رجال الإدارة مثل جوديا [١٣] (حاكم تلو [١٤]) في تسجيل كفايته الشخصية وبدافع من عوامل الفخر في نفسه.

وكان للمعبد منطقة خاصة في المدينة، وكان لها في الغالب اسم خاص بها وهذه تشتمل على تل صناعي –كبرج بابل نفسه– يبلغ من الارتفاع ما يجعله في مأمن من أكثر الفيضانات طغيانًا، كما يشتمل على مسطح مرتفع يتسع لإقامة دار الإله، وكانت هذه تبنى على طراز القصور الملكية، كما كان نظام الخدمة فيها مماثلا لنظام الخدمة في القصور الملكية أيضًا. وكان الإله يتناول الغذاء، ويسمع الموسيقى، وينام ويسير في حديقته، ويعني بحيواناته الأليفة –يفعل كل ذلك كما يفعله ملك من بني الإنسان– فإذا لم تجده في إحدى زياراتك فإنه في رحلة صيد، كما كان يفعل الإله (بعل) على جبل الكرمل. وعلى مستوى منخفض في أرض المنطقة تتجمع المخازن، والمصانع، ومساكن خدم المعبد من بنائين، وحدادين، وغيرهم من الصناع، وبجانب هذه مساكن للأهالي من غير رجال الدين. وتقام سائر الأبنية الهامة على مصاطب مماثلة، ولعل هذه المصاطب تكونت في الأصل من رواسب النهر على مدى السنين المتعاقبة، وعندما بلغ الترسيب أكثره كان معظم البناء من الطين، ولكن البابليين أخذوا بعد ذلك يعالجون البناء الفني بالآجر، ويتخيرون البناء على الأرض المرتفعة، كما كانت تبنى المعابد خشية غوائل الفيضان، وكانت تعمل لكل بناء يراد

[١٣] Gudea
[١٤] Tello

له البقاء الوقاية اللازمة في هذه البلاد (بلاد الفيضان). ولكن الدور العادية لا تستحق أن تعمر طويلًا، فلم تزد على أن تكون أكواخًا من الطين لا تتجاوز حجرًا للنوم، ومظلات تقي حرارة الشمس، وأروقة مبنية من خشب الحور الذي ينبت في مستنقعات الإقليم. وكان الآجر يستعمل فعلا في البناء منذ أقدم العصور، ولكنه كان مقصورًا في الغالب على القصور والمعابد. وإذا لم يكن في إحدى البلاد أرض حجرية، كان فن النحت بها قليلًا. وطمي نهر الفرات إذا أُحرق صار ذا لون داكن لا يصلح للزخرفة بتاتًا، والمدينة البابلية هي المدينة الفريدة التي ليس لها نصيب هام في الفن الزخرفي.

ومع هذا فقد كان للصلصال استعمال أفادت به بابل دون غيرها من البلاد؛ ذلك في استخدامه للكتابة على هيئة علامات تصويرية تمثل في أول الأمر صور الأشياء ذاتها، كما كان متبعًا في مصر، ثم صارت تمثل الأصوات ومقاطع الكلمات، وتنقش بحيث "تنتهي بطرف حاد" مرتبة في أعمدة رأسية، ثم اختزلت هذه العلامات على مر الزمن، ثم استخدم الطبع بدلا من الحفر ضمانًا للسرعة، وإتقان الكتابة بطابع مثلث الأضلاع يترك علامات تطول أو تقصر حسب استعمال الطابع. وكان اختراع هذه الوسيلة في الكتابة سببها استعمال الكتابة الهيراطيقية الدارجة في مصر من حيث أن كلا الأمرين يمثل نفس النزعة التقدمية إلى التيسير، غير أنها في بابل –على خلاف الهيراطيقية في مصر– قضت على العلامات التصويرية، وحلت محلها، وكان أهم سبب لذلك عدم وجود مادة من شأنها البقاء، تُكتب عليها العلامات التصويرية لاستخدامها في زخرفة المباني. ولقد

استدل في السجلات المكتوبة التي عثر عليها في المدن السومرية القليلة التي كشفت آثارها، وأهمها لاجاش ونيبور أننا صرنا على علم بما كان بينها من صلات . ولم يكن السلام فيها سائدًا على الدوام . وكان أهم سبب للخلاف كما يتبادر إلى الذهن متعلقًا بالخنادق التي تحمي المدن وما يصيبها من تلف عند فيضان النهر، أو بتغيير مواقعها عند إصلاحها، وكان نقل علامات الحدود معتبرًا من أكبر الجرائم في تلك البلاد التي تنتج الأرض فيها غلة وافرة متى كانت في أيد صالحة. ولقد وُصف ذلك الحلف الذي كان بين لاجاش، وشيربولا، وجارتها جيشكو Gishku) (Laqqash-Shispula لقد وصف وصفًا جغرافيًا في الوثائق التي وجدت في خرائب تلو (Tello) في الموقع الذي كانت فيه البلد الأولى قائمة. وهذه الوثائق تتعلق بمدة عدتها مائة عام، وفيها تتجلى ما يكاد أن يكون صورة حديثة للقانون الدولي العام -ورد فيها ذكر للمعاهدات، والتحكيم، ولجان تعيين الحدود والغرامات التي تؤدى من الغلال من تسخير الرجال للعمل في أرض الفريق المنتصر- وقد ضمت إحدى الولايات إليها إحدى الولايات الأخرى، وأقامت عليها ملكًا كاهنًا. وفي مرة أخرى أخضع الولايتن لحكمه (لوجالزاجيسي Lugalzaggisi) أحد أهالي جيشكو، وقد علت مكانته حتى صار ملكًا على (إريك Erech) في أسفل الوادي، ثم صار ملكًا على العالم يحكم من أدنى البحر إلى أعلاه، ولا نخال المقصود من أعلى البحر ما هو أبعد من بحيرة، وإنه قد يكون المقصود هو البحر المتوسط.

والآن وقد وقفنا على ما يستطاع معرفته من معالم الحضارة البابلية فلنرجع البحر إلى خاصية أخرى يبلغ فيها التباين أعظمه بين هذه البلاد وبين مصر. إن مصر لفي عزلة حتى عن أقرب جيرانها، والصحراء التي على جانبي الوادي هي صحراء حقيقية، ولقد لبثت على هذه الحال منذ العصر الحجري على الأقل حتى الواحات الغربية فهي قائمة بذاتها مستغنية عما عداها، ويحول ما يحيط بها دون الاتصال بالخارج إلا في أضيق حدود العلاقات التجارية. أما بابل وهي محصورة بين المنطقتين الصحراويتين – بلاد العرب وما بين النهرين–، فلا تعزلهما هاتان الصحراوان بحال، بل في كل منهما ما يجعلها أقرب إلى المراعي (الاستبش) إلى الأرض الصحراوية، كما أن بها من الكلأ ما يكفي لمعيشة بعض الأهالي الرُّحل من القبائل التي تحترف الرعي، ويبلغ تعدادهم من الكثرة حدًا يجعلهم خطرًا على الأمن، وينزل حالهم في إحدى الليالي على جوب [١٥]، وحرموها رخاءها. إنهم كانوا أبناء الصحراء الحقيقين بهذا الاسم، وتاريخ بابل الخارجي كما رأينا في جميع العصور هو تاريخ علاقاتها مع العرب الرحل أولا، ومع أهالي عيلام ثانيًا، وهم شعب لا يميلون للترحال، يقيم بعضهم في الأراضي المنخفضة وهؤلاء شبيهون بالبابليين أنفسهم في الحضارة وأسلوب الحياة، وبعضهم ذلك العنصر القوي الذي نشأ في المرتفعات، والصحراء تلك النشأة التي جعلت عيلام أشد بأسًا إذا ما آثرها من الخارج أي داعٍ إلى العمل، ثم علاقتها مع مستعمراتها وربيبتها آشور ذات المدينة المتوسطة المقتبسة من بابل ذاتها مع

[١٥] Jop

شئ من الصلابة التي ترى في عيلام، والتي تميل إلى الخشونة بسبب وسائل الحياة القاسية والامتزاج بسكان المرتفعات.

وعلينا الآن أن نبين في تفصيل أكثر علاقة بابل بأكبر جيرانها وأعدئها الثلاثة، وخير ما نتبعه أن تناول ذلك حسب تاريخ اتصالها بكل منها، فنبدأ بالعرب الساميين، ثم بشعب عيلام، وأخيراً بالآشوريين.

الفصل الخامس

قدوم الساميين

الصحراء العربية من أعظم مصادر الهجرات البشرية العظمى. ومعظم الجزيرة –لا شك– خالٍ من السكان، ولكن سطحها الذي ينحدر شرقًا حتى تغمره مياه الخليج الفارسي أشد تنوعًا من الصحراء الليبية؛ لما في هذا السطح من منخفضات تسمح بنمو الحشائش، وهذه من الكثرة بحيث يتصل بعضها ببعض عادة. وبعض أنحاء الجزيرة ذات طريق متشابكة يضل فيها الدليل، فإذا جاء موسم المطر كفت موارد الجزيرة جماعات كثيرة من الرعاة يعيشون ويرتعون هم وما يرعون من غنم وماعز، كل جماعة منها تعيش في نظام أبوي صارم غير دقيق التحديد. تُدعى الجماعة إن كان لها فيه أول قضمة من الكلأ، وأول شربة من ماء الآبار التي حفرها آباؤهم فيما يزعموا –فإذا كان موسم المطر شحيحًا وهو ما يحدث من وقت إلى آخر بسبب تقلبات الجو– فما على الإنسان إلا أن يرحل هو وما معه من الماشية، أو يهلك معها، والرحيل لحسن الحظ ميسور، والقبائل على استعداد له دائمًا، ويحل الجفاف بالمنطقة تدريجيًا. ولكن هناك عقبات دون الرحيل، فالوصول إلى أطراف الصحراء يقتضي المرور بمراعي قبائل أخرى؛ ذلك فيما عدا من يقيمون في أطراف منها والهرب محفوف دائمًا بالخطر؛ لأن النزاع يتكرر سنويًا فيما بين القبائل من ناحية، ومع من يحتلون الأرض ويعدونها للزراعة من ناحية أخرى.

وأخيرًا يقبض على زمام الأمر رجل ذو شخصية قوية يحسم الأمر بتفكيره: لو أننا رحلنا ورحلنا جميعًا فلا شيء يقف في سبيلنا، فنحن كالطوفان، أو كالرمال نقضي على العقبات التي تعترضنا بكثرة عددنا وسرعة انتقالنا. وعلى أسوأ تقدير ليس لدينا ما نخسره، ونحن نعرف من تجاربنا السابقة عن مراكزهم الأمامية في الأودية الصغيرة، أو عند مجرى نهر الفرات. وكثيرًا ما سلنا أموالهم —نعرف أن عندهم من المال ما يكفينا ويحفظ علينا حياتنا إذا نحن لم نعتدِ على زراعتهم، وهكذا عندما يحين الوقت المناسب ينتقل سكان الصحراء جملة واحدة ينفذون أينما كان المرعى إلى التلال المرتفعة، أو إلى المستنقعات المنخفضة، لا تعوقهم الأنهار، ويقهرون في رحلتهم أي جيش.

وهناك أمر واحد دون غيره: منع العرب الرحل من أن ينزلوا أقسى ضروب التخريب والتدمير، فلدينا من الأسباب ما لا يحمل على الاعتقاد، أن العرب لم يستخدموا الحصان قبل سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد — وهو ما يعد " أول خادم " للإنسان المتمدين—، وقد ظل أشد أسلحة الحرب فتكًا إذا استخدمه شجاع متهور إلى أن اكتشف سر البخار. فإذا ما قارنا بين هؤلاء وبين المغول الرحل الذين عاشوا في القرون الوسطى، أو بينهم وبين ذراري هؤلاء العرب أنفسهم بعد أن أحرزوا ذلك السلاح يتضح من المقارنة أن ضرر الساميين الرحل ضرر طفيف.

ومع ضلة المصدر التي لدينا أمكننا أن نرى أربع هجرات قام بها العرب من جزيرتهم. وكانت الفترات التي مضت بين هذه الهجرات وأسباب

أخرى داخل جزيرة العرب لا نعرف عنها شيئًا إلا أن هذه وتلك كافية لإثبات أن خواص اللغة السامية –وهي اللغة المشتركة بين من هاجروا من جزيرة العرب– وقد مضى عليها بعض الوقت حتمًا حتى لحقها شيء محدود من التغير. ونظرًا إلى أن هذه اللهجات المتتالية احتفظت كل منها بخواصها (وبما قد أضيف إليها) بعد عزلتها عن اللغة الأصلية التي هي جزء منها، فمن السهل أن تكشف على وجه التحديد موعد الهجرة التي قام بها أسلاف أي شعب من الشعوب السامية، ويشترط ألا يكون قد حدث ما يحمل هذا الشعب على تعلم لغة جديدة. وهذا يحدث فعلاً، ولكنه لا يحدث إلا نادرًا. فإن كل الجماعات الأبوية لتلقن الجيل الحديث لسان الآباء بكل دقة علمًا بأن بعض الشعوب السامية لَحَق لغتها بعض التغيير بتأثير البيئة. وأبُ الأسرة يهتم بهذا الأمر ويهمه أن يَفهم قومه كلامه إذا تكلم وأن يجيبوه "بكلام مفهوم".

ولا داعي لأن نفترض الآن أن أحد الشعوب الرحالة يبقى راضيًا عن عزلته، بينما يجاور مراعيه مناطق خصبة مزدهرة، وعلى الأخص إذا كانت هذه تجاوره في أكثر من جانب واحد . فلابد من أن تجلب له غاراته على جيرانه من حين إلى حين غنائم وأسرى، ولابد من أن تستبدل المعادن، والأسلحة، والعقاقير بما لديه من الماشية، وبما تنتجه من الجلد والجبن، وأن يوصل أحد أطراف المكان بالطرف المقابل له في الجانب الأقصى. وهو وحده الذي يعرف علامات الطريق ومواضع الآبار... ويؤمن لنفسه النقلة بين القبائل بما يوطده من صداقة الأصدقاء، وتجنب الاحتكاك بالأعداء، ولقد تبدأ العلاقة التجارية بحادث عارض في أول

الأمر، ولربما تباع سكين في سوق أحد أطراف المكان بيعًا عاديًا، فإذا هي في الطرف الثاني من معدن أو من طراز لم يسمع الناس به من قبل. وهكذا يأخذ الرحال المرة القادمة سكينين، ويتجر فيما زاد على حاجته مشتريًا بثمن بخس، بائعًا بثمن مرتفع، حتى إذا أصبح الأمر عادة أقيمت الدكاكين في أطراف الصحراء، كما تنشأ الموانى على شواطئ البحار. ويقضي العرف العام بإحترام علامات الطريق، والآبار، والمخيمات العامة، وتروح القوافل وتغدو بانتظام مسلحة كما يتسلح أهالي الهند الشرقية خشية قراصنة الصحراء. وغير خافٍ أن هذه الرحلات الصحراوية تدر الربح الوفير رغمًا عما تتعرض له من خسائر بسبب الزوابع واللصوص، وما إن صادفها التوفيق حتى يكون لها سحر وإغراء لا يقاوم، ثم تصير عادة للتاجر لا تنقطع، وضرورة للمنتفعين القاعدين لا غناء عنها. وهذه الرحلات يقوم بها ويدبر شئونها العرب الرحل أنفسهم، وتقتضي تغييرًا في بعض التصرفات وفي بعض العادات، كما تستلزم الدربة على التنبؤات وعلى مراعاة النظام —فإن القافلة مهما كثر عددها (وهي آمنة كلما كثر عددها) أسرة واحدة ينبغي أن تسير وفق النظام العسكري الدقيق، وأن تطيع قائدها طاعة عمياء. وهذه القوافل تتطلب فوق ذلك في مبدأ طريقها ونهايته اتصالا موقوتًا عدائيًا بالمقيمين غير المرتحلين؛ ذلك لأن كل من بالقافلة أشبه شيء بالبحارة— لابد لهم من قضاء بعض الوقت في الثغور للعثور على حاجاتهم وتحميلها. هذا فضلا عن أن النساء، والأطفال، وقطعان الماشية لا ينبغي أن يرافقوا الرجال في ترحالهم. فإن السرعة مدعاة للأمن والاقتصاد في النفقات، والقوافل لا تستصحب أحدًا من غير المحاربين، أو من الطامعين

الذين لا يعملون. ونظرًا إلى ما يتطلبه إمداد هؤلاء بحاجاتهم تصير هذه الثغور الصحراوية مدنًا ثابتة يدبر أمرها أهالي الصحراء، وغذاء هذه المدن يتطلب بدوره الاستيلاء على الأرض المجاورة وزراعتها. وأفضل ما يلائم هذه الأغراض: الواحة إذا كانت على حافة الصحراء، حيث يسير مجرى الماء إلى الأرض الفضاء من الثلوج الذائبة على التلال المجاورة، وأقرب مثل لهذا بخارى ودمشق. ولربما لامست الصحراء نهرًا صالحًا "للملاحة" كما في الدير عند مجرى الفرات الأوسط (أوراستراخان)، أو بربر في السودان، أو جاورت بحرًا كما في سواكن عند نهاية الطريق الذي يبدأ عند مدينة بربر، وكما في طرابلس الغرب، أو (عصيون جابر Ezion Gaber) في رأس خليج العقبة. ولقد مررنا بطريق مشابه من قبل بين البحر الأحمر، ونهر النيل في عهد ما قبل التاريخ.

ويبدو أن دخول الساميين في تاريخ بابل يشمل اتصالهم بهم في التجارة وهجرتهم إليها. وأن بلدين من أقدم بلاد بابل وأشهرها أور، وأوريدو، لا يقعان بين النهرين بل، يقعان في الجانب الغربي من نهر الفرات. وتقع أور على النهر الأعظم على مسافة من مصبه القديم في الموضع الذي يتقابل فيه مع الفرات فرع دجلة الأكبر، وهي في أنسب موقع للتجارة مع البلاد الواقعة في أعلى الوادي. أما أريدو فكانت تطل على الخليج، ولها تجارة مذكورة شاطئية مع الهند، وبلاد الأفاوية والتوابل، وكانت تقع عند الشاطئ، وتمتد بإزاء ما قد يكون أحد فروع النهر القديمة، أو أحد مداخل الخليج، وفي الإمكان الموازنة بين موقعهما وموقع كربلاء والكويت الحديثتين، ولا ريب في أنه كان لهما كل سمات المدن التي تقع في

نهاية الطرق الصحراوية، مما كان له نفس الأثر في اختيار موقع المدينتين الحديثتين.

وتؤدي هذه الطرق إلى مجموعة الواحات الداخلية، ومنها توصل الطرق إلى بلاد العرب السعيدة (اليمن)، وإلى أرض الواتبل في أقصى الجنوب، وإلى سيناء، وإلى الحدود الجانبية من سوريا. ومن المحتمل أن نجد في هذا الطريق الأخير الصلة الضئيلة بين المدنية العصرية الناشئة، والأصول البابلية التي أخذت مصر عنها مدنيتها، ولنا أن نستنتج أنه كان في هذا الموقع لبعض الساميين مقر ثابت منذ أول عهد وجد فيه من يتاجرون معهم في الدلتا نفسها، ومهما كان نصيب الحقيقة في هذه الأزمنة البعيدة فمن المحقق أن حركة الساميين الثانية، أو الكنعانية أتت في هذا الموضع بالذات بأكبر اتصال بينهم وبين بابل، حيث أعادوا تأسيس المدينة القديمة على أنها "أور الكلدانية" وجعلوا من جنوب بابل المتحدة دولة كلدانية.

وعند رأس الدلتا كان الموضع الثاني الذي اعتدى فيه الساميون على بابل اعتداءً ترك فيها أثرًا كبيرًا —في هذا الموضع— عند كربلاء، ينتهي طريق آخر يبدأ من الجنوب، ويسير بإزاء الشاطئ الغربي للنهر إلى أن ينتهي إلى الطريق التجاري النهري، وفي الجهة المقابلة في شبكة الطرق المائية تقع بابل وهذه أكبر المدن التاريخية، ولا يكاد يوجد أدنى شك في أن السبب الذي من أجله أصبحت بابل —وقد كانت مدينة عادية غير بارزة في الدولة السومرية— لها الصدارة إبان الحكم السامي، فموقعها ييسر لها

الاتصال بإحدى المدن التي شيدت كربلاء في مكانها، كما يسر لها الاتصال بالطرق الصحراوية، وبذلك صارت لها مكانة مدينة أور من حيث أن كلا المدينتين كانت مركزًا للنشاط السامي.

هذا ويدلنا الغزو السامي الثاني كما يدلنا الانتصار على أكاد في الغزو الأول كما عرفناه من المعلومات الضئيلة التي وصلت عنه إلينا –أن أثر الموانئ الصحراوية الدائم كان أقل من أثر الهجرة الجماعية التي كان الساميون يقومون بها بسبب الجفاف الذي أشرنا إليه من قبل. ويدلنا الظرف الذي دعا الأسرة الملكية التي ينتسب إليها سرجون و(نارام–سين)، إلى ألا تجعل عاصمتها في سوميربتاتا، بل في أكاد في أقصى الشمال، يدلنا هذا الظرف على أن هذه الأسرة لم يتم لها الفتح بغزو البلاد من الجانب الغربي لأراضيها الزراعية التي عمدت إلى تقويتها (كما رأينا) بشق قناة جانبية فيها، بل عبرت الفرات في المنطقة العليا من الصحراء التي بين النهرين، وغزت بابل من الشمال في أضعف حدودها. ولعل حادثًا مشابهًا –ولعل خشية تكرار وقوعه– هو الذي أوحى بتشييد ما يعرف "بالحائط الميدي" وهي التي تسير بإزاء نهاية الصحراء من الفرات إلى دجلة على مسافة يسيرة من حدود بابل، ولا شك في أنها أقدم كثيرًا من الفتح الميدي.. وترمي فكرتها إلى ما ترمي إليه الحائط الصيني العظيم، ولكلا الحائطين هدف واضح: هو حماية البلاد من غارات الرحل والساميون من أقارب سرجون الأكادي، وهم أقدم من نعرف من رحل ما بين النهرين.

وما إن استقر لهؤلاء الغزاة الساميين في بابل الشمالية ذات الحصن المنيع الذي يسمى أجاد، أو أكاد حتى ضموها إلى ملكهم جنوب سومير، كما استطاعوا بما وحدوا من القوات الحربية أن يعبروا دجلة ويحتلوا عيلام . ومن المحتمل أن سرجون و(نارام—سين) قد قاما بحملات في جميع البلاد المذكورة في الأسفار السهلة شمالًا. ويرى البعض أن أسماء عدد من البلاد المذكورة في الأسفار التاريخية القديمة تنطبق على بلاد واقعة في شمال سوريا، ويبدو أن هناك سببًا قريبًا للاعتقاد أن البلاد التي يسميها نارام —سين "ماجان" هي شبه جزيرة سيناء، ومن المحتمل أن الوصول إليها للتجارة كان بالطريق الصحراوي المباشر.

وقد نجح الساميون في بابل وفي عيلام جميعًا في أن يجعلوا اللغة السامية "لغة الرعية" جعلوها في بابل لغة الكلام العادية، وفي عيلام وحدها عدت اللغة الرسمية، واستعملت بجانب اللغة الوطنية، حتى أن الوثائق الهامة كانت تكتب باللغتين جميعًا. وكانت في بابل لغة البلاد العامة، ولم تستبق اللغة السومرية إلا للموضوعات أو الأمور الرسمية، وليس لنا من مصدر لمعرفة هذه اللغة إلا ما بقي من الوثائق التي حررها العلماء المتأخرون في بابل وفي آشور بقدر أكبر، وما دوّن من الكلمات السومرية وما يقابلها من الكلمات السامية لتيسير قراءتها. ولم يضف هؤلاء الساميون القدامى إلى حضارة بابل إلا شيئًا يسيرًا، هذا إذا استثنينا اللغة التي منحوها لها وشيئًا من النشاط في الإدارة –ما لبث أن خبا بانقضاء فترة الفتح الأولى– وليس لديهم ما يمنحوه بعد ذلك إلا القليل. ولم تذر هجراتهم خارج بابل أي أثر لهم، وأهم سبب لذلك هو أن موجة الهجرة

الثانية بعد ألف سنة من الموجة الأولى كانت أبعد مدى بحيث طغت وأزالت كل أثر من آثار الموجة الأولى.

وليس إلا فكرة سطحية عن هذه الهجرة السامية الثانية التي حدثت في النصف الثاني من الألف الثالثة، ونظرًا إلى أن أبقي آثارها كانت تشاهد في الشواطئ السورية، فقد كانت توصف بالكنعانية، ولا ندري على وجه التحقيق إن كان هذا الوصف نسبة إلى الساميين القادمين، أو إلى الشك نفسه اسم أموري، وقد أطلقه المصريون والآشوريون على البلاد التي تلي كنعان من الداخل قبل أن يستقر المقام بالهجرة السامية الثالثة، أو "الآرامية". ولم تكن الهجرة الثانية، أو الكنعانية مقصورة على كنعان فقد. كانت تتردد في بابل منذ سنة ٢٣٠٠ وما بعدها أسماء آلهة وأناس، ما من شك أنها من ذات السمات الكنعانية: كحداد، وريمون، وداجون، وفي شمال بابل توطدت أقدام أسرة جديدة ذات مكانة وسطوة، وكان ملوك هذه الأسرة يسمون بأسماء كنعانية، ولما تغلبت على الجنوب لم تتخذ من إحدى بلاد أكاد عاصمة لها كما فعلت الأسرة التي سبقتها، وإنما جعلت من بابل وهي بعد مدينة مغمورة جعلت منها عاصمة مركزية لدولة قوية متحدة، والظاهر أنه إلى هذا العهد تنسب تلك الموقعة العظمى "موقعة الملوك الأربعة مع الخمسة" عند حدود الأردن، وهي التي وصل إلى علمنا صدى لها في الأزمنة التي وردت في قصة إبراهيم. وعلى كل فإن "أمرافيل ملك شينار" هو أحد خلفاء شيرولومر Chero loamer في هذه القصة الإسرائيلية يحمل فيما يظهر اسم حامورابي الذي أعاد تثبيت استقلال بابل فيما بعد، والذي كان يعد أول مشرع في العالم.

وثمة إغارة ثانية قام بها هؤلاء الساميون أنفسهم، اتجهت شمالا وتجاوزت التلال الأولى إلى أواسط وادي دجلة، وأسسوا هناك الدولة السامية الثانية التي عرفت فيما بعد باسم آشور؛ ذلك أن أوائل أمرائها حوالي سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد كانت أسماؤهم كنعانية. وفريق آخر منهم يتكلمون نفس لغتهم بلغوا مملكة حران بين الخابور والفرات، ولكن هؤلاء لم يؤسسوا دولة، ولكنهم كانوا يقتطعون لهم مستقرًا يقيمون فيه إلى أجل قصير. ولم تكن طبيعة الأرض في هذه المنطقة لتمكن من وحدة السكان فتجعل منهم شعبًا متماسكًا، أو لتمكن من قسمتهم إلى أودية يؤلف بينها حسن الجوار. وكذلك كان للمهاجرين "الكنعانيين" أثر في المنطقة الضيقة المرتفعة الواقعة بين الفرات والبحر المتوسط، وكذلك في جميع المنطقة التي تليها جنوبًا إلى حدود الصحراء الكبرى.

أما عن انتشارهم في الشواطئ السورية فلا نعلم إلا القليل، وأصح ما يروى عنهم القصة التي لا تزال في سِفر التكوين. فهي تصف كيف أن رؤساء إحدى القبائل الميالة للهجرة التي كانت تقطن عند أور على الجانب الصحراوي من بابل، والتي عبرت اا‌لفرات عند أعلى النهر بعد ذلك "وسكنت حران" قد اتجهت غربًا مرة ثانية عند كدش، ودخلت إلى شواطئ "كنعان" في الشمال الشرقي، وأخيرًا (وهذا في القصة) سارت نحو مصر، ثم عادت ثانية إلى كنعان وفيها إشارة إلى عصر الهكسوس في مصر، وتُبين وجهة نظر صاحب الرواية أنه كان هو نفسه "أحد الملوك الرعاة". وكانت المنطقة التي تلي الصحراء في أيدي الرحل، فلقد كانت لإبراهيم

صلات مستمرة مع ذوي قرابته غير بعيد من بلده القديم، وكان لا يزال في استطاعة إسحق ويعقوب أن يتزوجا منها.

وهذه القبيلة ذاتها نقلتها الأساطير أخيرًا -كما نعلم- إلى مصر في عصر يتفق وعهد الأسرة الثامنة عشر المصرية، ثم هربت إلى الصحراء في أواخر عهد الأسرة التاسعة عشر وعادت إلى فلسطين أخيرًا ما يلي "الأردن" في القرن الثاني عشر. ولكن هذه قصة أخرى وسنرويها فيما بعد، وإنما هذه الرحلات الأولى في أعلى الفرات وفي سوريا هي التي تلقي ضوءًا على أحوال الهجرة السامية الثانية.

ومصر، ألم تتأثر بالحركة "الكنعانية"؟ هذا سؤال في حاجة إلى إجابة، ففي المدة بين القرن الثالث والعشرين، والقرن الخامس عشر قبل الميلاد التي تنشط خلالها هذه الحركة يشير تاريخ مصر إلى عهود واضحة المعالم، فازدهار البلاد في الأسرة الثانية عشرة كما رأينا قد سبقه وقد لحقه كذلك عهد سادت فيه الفوضى، وحل به الطغيان الاجنبي، وكلاهما منسوب دون أي تردد إلى الغزو الكنعاني. ومن سوء الحظ لا يزال تاريخ الأسرة الثانية عشرة موضع تحقيق، فيرجعه البعض إلى سنة ٢٥٠٠ وفي هذه الحالة يكون الغزو الكنعاني قد حدث بعدها، وعلى هذا الأساس يمكن فهم الاعتداءات الأجنبية التي أصابت البلاد بالشلل بعد ذلك، ويقربه البعض إلى ما بين ١٩٠٠ - ١٨٠٠، وعلى هذا الأساس يقدر انتهاء هذه الحركات الكنعانية قبل قدوم الأسرة الثانية عشرة.

ويبقى لدينا الفرض الثالث؛ ذلك أن الأسرة الثانية عشرة كانت في الحكم إبان ذلك العهد العصيب، وأمكنها أن تؤخر وقوع الكارثة التي لم تستطع دفعها.

ودخول الساميين المهاجرين مصر –إبان حركتهم تلك– رغم أنهم وفدوا إليها في قلة وفي فترات غير منتظمة –تدل عليه دلالة واضحة– قصة "نزول إبراهيم أرض مصر"، وهذه الحادثة يمكن تحديد وقتها على وجه التقريب؛ لأن إبراهيم قد استقر به المقام في فلسطين عندما حدثت موقعة "الملوك الأربعة مع الخمسة" التي تشير إلى أحداث وقعت إبان حكم حامورابي في بابل، وقد ولي حامورابي الحكم بعد سنة ٢٣٠٠ بوقت قصير.

وتعرف الهجرة السامية الثالثة بأنها الهجرة الآرامية نسبة إلى الإقليم الذي يقع بين الفرات ولبنان، حيث شيدوا في هذا الإقليم دون غيره ملكًا كبيرًا. ويظهر أن هؤلاء الآراميين قد أخذوا يفدون من شمال شرقي جزيرة العرب حوالي سنة ١٣٥٠ عندما اكتسحت جموع من القبائل الرحل معظم حدود وادي الفرات، وهؤلاء كما يسميهم ملوك بابل "سوتي" و "وأكلام". ومن حيث أنهم أخذوا يقلقون راحة آشور في نفس الوقت، يمكن استنتاج أنهم عبروا النهر واستوطنوا ما بين النهرين. وفي سنة ١٣٠٠ وجد (شلما نصر الأول) ما يسميهم هواريمي، يسيرون نحو نهر الخابور، ويهددون حوض الفرات الأعلى، ويعيدون ما عمله الكنعانيون في حران قبل ذلك بألف سنة حوالي سنة ١١٣٠. وقد أخذت آشور تفيق من الفوضى التي خيمت عليها ردحًا طويلا من الزمان، كان الأكلام الآراميون

منبثين على حضيض التلال من أعالي حوض دجلة إلى الفرات، ولكن مركز قوتهم كان إذ ذاك في عدد من الدويلات ذات حكومات منتظمة غربي قرقميش بين الفرات والبحر الغربي. أما دولة الحيتيين في شمال سوريا تلك التي ازدهرت في الفترة بين هجرة الكنعانيين وهذه الهجرة، فقد تقوضت وأصبحت السيادة للآراميين. ونظرًا إلى الحلف الآرامي كان في قبضته جميع الطرق الصحراوية، فقد أصبحت دمشق تحت رحمتهم، وصارت على مر الزمن عاصمة ملكهم عندما شعروا بالحاجة إلى عاصمة لحكومتهم. والواقع أن السوريين الذين هددوا إسرائيل من عهد داود إلى عهد إهاب (هؤلاء الآراميون أنفسهم) بعد أن صقلتهم المدينة، وأخذوا ينتقلون من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار، ومكانتها تشبه مكانة دمشق في عهد الخلفاء. ولما كانوا سريعي الحركة، ويشغلون كل مكان، وكانت لهم الزعامة في التجارة، فقد كانت لغتهم اللغة العامة في الجزيرة إلى حدود مصر، وظلت هذه اللغة السورية باقية إلى فتح الشام، وظل لدولة دمشق هذه السيادة في سوريا زهاء مائتي عام.

هذا وتقع الهجرة العربية في أقرب عهد إلينا –في القرن السابع الميلادي– وصدرت كسابقاتها من جميع الأطراف الصحراوية الشمالية. ولقد فاضت في مدى قرن من الزمان لا على مصر والشمال فحسب، بل في جميع إفريقيا الشمالية، وأسبانيا، ولقد احتل العرب صقلية ونهبوا بلاط الشهداء، ولم يقف تقدمهم في فرنسا إلا موقعة (بواتييه Poitier) سنة ٧٣٢م، وأفاضوا إشراقًا إلى فارس، وأسسوا دولة في الهند، وحملوا وسائل التجارة وأعلام الحرب إلى ما بعد سنغافورة، ولا يعنينا هنا تفصيل ذلك فإننا سنعالج بالتفصيل تاريخهم في إحدى حلقات هذه السلسلة "باسم الإسلام".

الفصل السادس

جيران بابل وسكان المرتفعات

لقد واجهنا بقدوم الساميين أول مثل عظيم للصدام بين المدنيات، ففي جانب قوم مستقرون يحترفون الزراعة، ثم يحترفون الصناعة آخر الأمر، وفي الجانب الآخر قوم رحل رعاة قد يتجرون في أيسر أحوالهم في الفائض من منتجات غيرهم. لقد رأينا أناسًا لهم صفات الرعاة تضطرهم الظروف إلى الهجرة إلى أقاليم لا مفر لهم فيها من الاسقرار واحتراف الزراعة، كما أن عاداتهم ونظمهم تقضي عليهم بالتخلي عنها تحت ضغط الظروف الجديدة، ووسائل الحياة السهلة الجديدة.

ولقد رأينا هذا التكييف يحدث –لا مرة واحدة فحسب– بل مرارًا كثيرة كلما جاءت جماعة غير متحضرة، فنزلت في المنطقة التي استولت عليها جماعة سابقة، وكان هذا مما يقوي المؤثرات السامية في الحضارة المختلطة في المنطقة، ولكنه لم يكن ليقضي مطلقًا على أساس الحضارة الأصلية السابقة على قدوم الساميين.

يكفي ما ذكرنا عن علاقة بابل بجاراتها الصحراء، وسكان الصحراء عامة بالأقاليم التي تجاور مساكنهم، وعلينا أن ننظر إلى الناحية

الأخرى من الدلتا. كانت لبابل مأساة في أمرين: الأول أنه لم تكن كل أراضيها الخصبة في حدود أودية النهرين، والثاني أن دجلة على خلاف الفرات بطيء الجريان في السفوح الدنيا للمنطقة، وتمده في هذا الجزء من مجراه روافد جانبية كبيرة، يسرت العيش لعدد عظيم من السكان على بعد لا يجعل من السهل على بابل أن تخضعهم لسلطانها الدائم، وكانوا في الوقت نفسه على قرب لا يجعل من السهل إغفال أمرهم، وأنهم مصدر تهديد لها. ولقد كان الأمر الأول سببًا في أن تنشأ في عيلام دولة قوية، أما الثاني فقد هيأ لآشور الطريق إلى الاسقلال، وإلى المنافسة، ثم إلى إنشاء الإمبراطورية. ولقد كان لهذين الأمرين مجتمعين ما جلب الخلاف والاضطراب في تاريخ بابل الطويل الذي يختلف اختلافًا بينًا مع تاريخ مصر في عزلتها المألوفة.

١- عيلام

إننا لنعرف من بعض نواحي تاريخ عيلام ما قد يزيد على ما نعرفه من تاريخ بابل. وعلى كل حال قد مكننا موقعها المرتفع من العثور فيها على كثير من الآثار، في حين أن ما قد يكون منها في بابل قد أضاعته تربتها المنخفضة. وفي الموقع الذي قامت فيه مدينة صوصة وهو ما يعرف في عهد متأخر "بقصر شوشان" عاصمة الدولة الفارسية –كان من حظ م.مورجان أنه عثر على قدر كبير من الآثار والوثائق التي تميط اللثام عن معظم تاريخ بابل– ليس هذا فحسب بل عثر على طبقتين مختلفتين من المساكن في العصر الحجري تمثل أقدم الطبقتين، كما جرت العادة دائمًا

نشوءًا مفاجئًا لفن مبتدع قوي، أو مدنية قوية، أو دخول ذلك الفن وتلك المدينة بينما تسجل الطبقة الحديثة منهما نفس الأفكار بعد حدوث أزمة أفقدتها حيويتها، وجعلتها عديمة الروح، وفي مستوى فني منحط.

والفخار كما هي العادة فيه توجيه وإلهام على وجه الخصوص، ونماذجه السمر مطلية باللون الأصفر، وعلى أجزاء منه ما يشبه السلال، والمنسوجات، أو ما يحاكي النبات والحيوان في بساطة الأطفال، وهو يشبه بمجرد النظرة الأولى الأواني المصرية المطلية التي كانت بمصر في عهد النهضة والطراز، ولكنه شبيه إلى درجة عجيبة بنماذج كانت مبعثرة في مساحات واسعة، هي كل ما أمكن الاحتفاظ به في منطقة لم تفتش آثارها تفتيشًا دقيقًا في مكان من العصر الحجري الحديث تحت قلعة (ساكججيزي Sakie-Geuzi) الحيتية في شمال سوريا، وفي الطبقة السطحية لمرتفعات قديمة (كابادوكيا Cappadocia)، وفي سهول عاصمة الحيتيين المنخفضة في بوغازكيوي. وأعجب من ذلك في أتاو على حافة الهضبة الإيرانية المطلة على تركستان، وفي عدد من الأماكن المبعثرة في السهول الممتدة في شمال البحر الأسود، وفي شبه جزيرة البلقان إلى مسافات بعيدة صوب الجنوب حتى مقدونيا، وتساليا، وإنه لمن السهل أن نعلق أهمية لا موجب لها على التشابه الموجود في الأعمال الفنية عندما تكون كلها بدائية. ولكنها مع اتساع المسافات بين مواقعها فإنها تمثل مساحة محدودة ومعروفة على افتراض أنها غير منقطعة، فهي مساحة شديدة الشبه بما يمثله مصور جغرافي انتشار الشعوب التي كان اليونانيون يسمونها السميديين، والمساكن –أو بأية ناحية من نواحي الحضارة– حصل

عليها العالم في القرون الوسطى من الأتراك، أو من التتار. ويظهر أننا ندرس من الناحية الجغرافية سجلا لانتشار بعض الناس إبان مرحلتهم الحضارية في العصر الحجري ممن كان لديهم مع ذلك من تقاليد في الفن الزخرفي، وقد انبثق هذا الانتشار –كما بدأ الغزو التركي التتاري– من المراعي شمال المنطقة الجبلية، ثم نفذ خارج هذه المنطقة متجهًا إلى الغرب حتى اجتاز نهر الطونه، وإلى الجنوب الغربي إلى الفرات، بل وصل إلى آسيا الصغرى، وسيعرض لنا انتشار نواحٍ أخرى من الحضارة فيما بعد في الفصل التاسع.

إن المقارنة –لا التشابه– في الفخار المصري لها قيمتها من حيث أنه في أثناء تلك المرحلة من مراحل التقدم تقريبًا مارس المصريون فيما يبدو الري، والزراعة بهمة كبيرة. وعلى مدى واسع ومن حيث أن أولى نتائج هذا الاتجاه في استخدام طاقاتهم انحطاط ملحوظ في الفنون التي كانت موضع فخر لهم حتى ذلك الحين. ويبدو أن نتيجة كهذه نراها ظاهرة في بقايا طبقات العصر الحجري الحديث في مدينة صوصة ولنا أن نسأل عما إذا كان الانحطاط في الفنون اليدوية الذي سجله السيد (د.موجان) دليلا على أن استصلاح جانبي الوادي والمستنقعات في عيلام كان هو الذي يشغل الأهالي في ذلك العهد. وأن عدم وجود ما يمثل مرحلة كهذه في أي موقع أثري في بابل ماعدا نبور، ليدل على أن عيلام اجتازت تلك المرحلة قبل أن تبدأ بابل باستصلاح أراضيها. وهذا بدوره مفاجئًا، وما كان لها إلا أن تبدأ مكتملة، فلا يوجد بها مظاهر مجلوبة من الخارج؛ ذلك لأن هذه المدنية –كالحضارة المصرية إبان حكم الأسرات– كان أساسها

المكانة الاقتصادية الجغرافية التي أوجدتها عقول رجال وجهودهم ممن كانت لهم من قبل مكانة في الحضارة البدائية.

أما مرحلة الانتقال -إن وجدت- ففي المواقع المنخفضة في عيلام، حيث عملت أولى التجارب على حدود المستنقع العظيم المقابلة للتلال. وأن التجارب الأخرى التي في حوض الفرات فوق "حت" قد حملتنا على أن نرى الفروق الظاهرة بين أكاد والجنوب السوميري، ولكن بابل السوميرية، رغم أنها تدين بوجودها إلى ما يمكن أن نسميه بحق المشروع العيلامي، قد تفوقت عليها، ثم إنها قد سددت لها دينها بمرور الزمن رغم أن ذلك لم يكن دائمًا بنية خالصة، والآن وقد قمنا بهذه المقارنة بين الحضارات شرقي دجلة وغربيه من حيث أصولها، وعلاقة بعضها ببعض، نرقب هذه الحضارة بعد امتزاجها. لقد كانت عيلام منطقة جغرافية كبابل، ولم تكن دولة، كان بها عدد من المدائن بعضها في الأراضي المرتفعة مثل صوصة، ومنها حصلنا على جميع الشواهد المفصلة التي لدينا، وبعضها بحري يحترف التجارة فيما وراء البحار مثل أريك في بابل، وبعضها في الأراضي الوطنية والمستنقعات مثل بابل وجش، وللدول -كبابل- مهامها المادية، وصداقاتها، وخلافاتها، ولها مثلها العليا في الأخلاق وفيما تعتقد أنه إرادة السماء.

ولا شك أنها كانت تحتفظ فوق ذلك بطراز من المدنية، به تشابه قوي مشترك بينهم جميعًا، وأن مدنيتها أخذت تتقدم على نحو فيه تباين للمدنية التي كانت سائدة فيما وراء دجلة.

وكان بين هذين الإقليمين كذلك مصدران بارزان للمتاعب: أولا كانت بابل خالية من الأحجار، والأخشاب إذا استثنينا النخيل، والصفصاف، كما كانت خالية من جميع المعادن على السواء، وكانت عيلام بها كثرة من هذه الأشياء جميعًا، وكانت سوسة على الخصوص الطريق إلى أفضل أنواعها وأسهلها تناولا. ولعيلام فوق ذلك موقع جعل لها فعلا احتكار النقل، فلم يكن ثمة مكان فيما يلي مجرى دجلة الأسفل به طرق مائية للمواصلات، أو طرق تجتاز الوادي كما في كرخة، وقارون.

وأقرب مكان يشبهها كان على بعد ٣٠٠ ميل في آشور، وهنا كانت "كرمة نابوت" التي كانت تغري أي ملك بابلي يرى في نفسه القوة على الاستيلاء عليها.

وكان المصدر الثاني للمتاعب بين الإقليمين أن مجرى دجلة كان على الدوام معرضًا لتغير مفاجئ عنيف واسع المدى، فإذا كان هذا المجرى هو الحد الدائم بين الإقليمين، وهو أمر محتمل جدًا، فإن حماقات هذا النهر لتثير مشكلات في المملكة لا تحسمها إلا الحروب. ومع هذا —ولو أن دجلة يقع على الحدود في أعلى مجراه— فهو ليس كذلك، حيث تمتزج داله بدال الفرات. وهنا يمكن القول إن أحوال بابل تتجاوز حدود بابل التقليدية. وإننا لنذكر بهذه المناسبة متاعب روما في علاقتها مع غاله فيما وراء الألب، أو هذا الجانب من نهر البو، أو ذلك الجانب، أو علاقتها بالقبائل التي في وادي الرون، إن حدود بابل الاقتصادية عند آخر

الأراضي الخصيبة التي جلبها النهر والأراضي التي وراء دجلة يمكن أن تعد بابل المغتصبة التي لا ترد.

هذه هي الظروف الهامة التي كانت سائدة في أثناء قيام المنافسة بين الإقليمين، أما كيف سارت المنافسة بينهما، وأما أثرها في كلٍ منهما فهو ما سجله التاريخ، ووضح بعضه جليًا في بعض الفصول. وكان ميزان القوى يعتمد على مبلغ، قدرة أية واحدة منهما على القبض على القوة في يد واحدة حازمة.

٢- آشور

أتى الخطر من الأراضي المرتفعة إلى بابل من الشمال، ويجري دجلة على خلاف الفرات بعد أن يجتاز الجبال المرتفعة، وقبل أن يسير على حافة الصحراء، ثم يخترق منطقة سهلة من الأراضي الزراعية تبلغ مائة ميل، وفي هذه المنطقة يصب فيه عدد من أكبر روافده، ولهذه الروافد أودية خصيبة، وآخرها يسمى الزاب الأصفر، وهو بمثابة حدود لها يقيها الغزاة من الجنوب الشرقي.

والنصف الجنوبي لهذا الإقليم أشد حرارة، وأكثر جفافًا، وأقل خصبًا من النصف الشمالي، ولكنه كان مع ذلك الموضع الذي عرفه القادمون من الوادي الأدنى، والذي نزلوا فيه واستقروا فيه استقرارًا غير منقطع، وكان هنا بطبيعة الحال المركز الذي صار فيه آشور الإله الإقليمي —وكان في الأصل الإله القبلي للساميين المغيرين— الإله الأعظم لآشور كلها عندما

أصبح القوم سادة على الكافة، وإذا ما قارناها ببابل، أو بنينوي فيما بعد، فهي بلاد صلبة تحيط بها أرض أكثر صلابة، وقد نشأت قومًا صلابًا ذوي عقيدة سياسية صلبة كذلك.

وكانت آشور صديقة لا تلين وعدوة لا ترحم، ولم يجرؤ ملك من ملوك آشور أن يعزو عملا من أعماله إلا إلى أمر من آشور الإله وحكمه. فإذا ما غضب آشور فكل تدبير إلى فساد، ولا يمكن أن يعد أي اعتداء بلا مبرر، أو أية غلطة قاسية إذا ما أنزلت على أعداء "آشور إلهنا الرحيم"، ولم تفعل دولة من الدول القديمة ولا روما نفسها ما فعلته آشور في تطبيق "السياسة الحقيقية" كما تسميها ألمانيا الحديثة، مصحوبة بالتعصب المرير، وعدم الاعتداد بمظاهر الرحمة والإنسانية، وهو ما تتميز به الحروب الآشورية والسياسة الآشورية بصفة أخص، وكل ما يراه أعداؤها فيها –أعداؤها الذين يتوقعوا الوقوع فريسة لها– مكتوب في وضوح فيما تنبأ به اليهود.

وليس تاريخ الساميين الأول لآشور معروفًا، ولا سبب ذلك معروفًا كذلك، ولكن من المؤكد أن فتح آشور كان سابقًا لعهد حمورابي الذي كانت آشور في قبضته ولاية تحميها جنوده، ولربما كان هذا الفتح إبان إحدى الهجرتين الساميتين الأولى والثانية، أو كان جزءًا منهما جميعًا. وأشد غموضًا من هذا معرفة ما وجد الفاتحون فيها، وربما كان هناك شيء من حضارة المرتفعات البسيطة شبيه بما كان في عيلام إلا في تقدمها بعض الشئ عن حضارة العصر الحجري الحديث، وكان ما جلبه الساميون معهم

هو المعرفة ونظام الحكم. وطبقوا نظام الري بما كسبوا من الخبرة في بابل على مدى واسع، واشتغلوا في صناعة المعادن والأخشاب في المناطق الجبلية، وأخضعوا على وجه السرعة المنطقة العليا الرطبة في الوادي، ومدّنوا الأهالي الكرديين، وسرعان ما تزاوج الجنسان واختلطت أنسابهم. إن ملامح وجوه هذا الشعب بصفة عامة، وكذلك سلوكهم العام لم يطرأ عليها في هذه البيئة إلا تغيير بسيط حتى إن في وسعنا أن نستعمل في تسميتهم الاسم الحديث. فإذا ما انطلق الكرديون وكثيرًا ما يشجعون على الانطلاق، فإن أسلوبهم في السياسة وفي الحروب، وبشكل أوضح في المصالحات، هو نفس أسلوب آشور، ولم ينصرفوا عنه إلا بقدر ما أحدثه استعمال البارود.

وفن البناء لدى الآشوريين هو فن استعمال الآجر لدى البابليين مع أغطية ثقيلة مكان الحجر، ويحرس الأبواب عندهم ثيران ضخمة لها رءوس الآدميين، وترى صور من الكتابة المسمارية في كل مكان في تمجيد الإله آشور والملك. أما الفن في آشور فهو أساسًا الفن البابلي، وقد تقدم من حيث المهارة الفنية، ولكنه فقد ميزة الابتكار من أثر واقعة المزاج الوطني المظلم، إلا أنه في أحدث العهود اقتبس روح الجمال من الغرب الأقصى، كما اقتبس الفن جمالا مستحدثًا وشيئًا من البهجة مستمدًا من جمال الطبيعة، والخيل، والكلاب، والأسود المصيدة مما يكاد يشعرنا أنه من وحي الفن الحديث.

وحامية حامورابي في آشور لها موضع منعزل في التاريخ هو سابق على عهد لا نعلم عنه شيئًا. أما الملوك الآشوريون المتأخرون فيرجعون أسرتهم إلى لحظة حاسمة تلي سنة ألفين بوقت قصير، ومن المحتمل أنها اللحظة التي عندها زاد ضغط الكاسيين على خلفاء حامورابي من الملوك وفقدوا سيادتهم، وبعد سنة ١٤٠٠ ق.م بوقت قليل عقدت معاهدة بين آشوار وأحد الملوك الكاسيين. ثم تم عقد زواج بن آشور، وأمنحتب الرابع ملك مصر. ووقعت مؤامرة البلاط، حبكت بابل خيوطها، ثم غارة تأديبية قام بها الملك آشور، وانتهت بتنصيب الملك الضعيف بورنابورياش ملكًا على بابل، ورسائل بورنابورياش هذا إلى أمنحوتب الرابع وقعت قبل سنة ١٣٠٠، كانت تمهيدًا لحادثين لهما آثار حاسمة. هما أولا: الاعتداءات الآشورية الأولى التي نستطيع أن نهتدي إليها في أعلى دجلة شمالا، ونحو الفرات غربًا إبان حكم شالمنصر الأول الذي أعاد تأسيس نينوي، إن لم يكن هو الذي أنشأها. وثانيًا: فتح بابل شكليًا سنة ١٢٧٥، دمرت بابل المدينة القديمة، ونقل تمثال معبوها الإله مردك إلى آشور، كما نقل "فلك الإله" إلى فنيستيا، وكما نقل جونو من (فياي Veii) إلى روما، ولكن الملك الذي فتحها كان هدفه الإنشاء والتعمير. لقد أعيد بناء بابل بناء فاخرًا، وشقت قناة من دجلة لري مساحة كبيرة من الأراضي، ولتحسين طرق المواصلات مع وطن الرئيس الجديد، ويمكن تقدير أثر هذا العمل في نفوس أهالي غربي آسيا بمبادرة مصر وأعدائها الحيتيين، وقد كانت الحرب قائمة بينهم سنة ١٢٨٦ إلى أن عُقد تحالف بينهما سنة ١٢٧١ في حالتي الهجوم والدفاع، ثم بعد عهد طويل من الصراع لبث قرنًا من الزمان

يتناوب النصر فيه الجانبان، هيأ طرد الكاسيين من بابل وحالة الفوضى التي كانت عليها البلاد من بعيد هيأ ذلك الفرصة الأولى من الفرص الثلاث لتأسيس إمبراطورية، كما مكن جيوشها من الوصول إلى ساحل البحر المتوسط، وأن تجوس خلال آسيا الصغرى، وأن نقف على قدم المساواة مع ملك مصر. وكان بطل هذه الحروب هو تجلات فلاسر الأول الذي ظل يحكم حكمه الطويل من سنة ١١٥٠ إلى ١١٠٠، أما أسباب انحطاط البلاد بعد ذلك فهي غامضة، وقد استمرت هذه الحال قرنًا من الزمان أو تزيد.

وتبدأ إمبراطورية آشور الثانية حوالي سنة ١٩٥٠، وتقوضت حوالي سنة ٨٠٠. والإمبراطورية الثالثة وهي أوسعها وأعظمها: تبدأ عندما قفز إلى العرش تجلات فلاسر الثالث سنة ٧٤٥، وبغت ذروة مجدها سنة ٦٧٠، وانتهت نهاية محزنة قبل سنة ٦٠٠ بقليل. وفتوحاتها التي اقتسمها خصماها القديمان كما سنرى بعد أن تحالفا على قهرها، قامت منها أولًا إمبراطورية الميديين، وتشمل معظمها الجزء الشمالي المرتفع، ومن أبرز أجزائها آشور نفسها، كما كان لديها فرصة التوسع في آسيا الصغرى، وقد أغارت عليها آشور من قبل، ولكنها لم تخضعها لحكمها إخضاعًا كاملًا، ونشأت منها بابل الحديثة، وقد ادعى نائب حكومة آشور الثائر حق استرداد جميع الحدود السورية المتاخمة لجزيرة العرب، وحق الاتصال بمصر وفق مشيئته.

وكان من حسن حظ كورش ملك فارس أنه وقع على هاتين الدولتين اللتين تعادلت القوة فيهما بتدبير حكيم أثبت صحته ما تلاه من آثار، لقد وقع كورش عليهما كأنه صاعقة في السماء، أو كما وصفه هيرودوت بأنه لم يقلد أحدًا قبله، وإنما كان "مقلدًا"، وكانت سياسته إعادة الوحدة الشاملة للجميع تحت إمرة ملوك منهم مع الإبقاء على عاداتهم، وكان هو الملك العظيم، بل كان فعلا ملك الملوك الذي يحكم من (شوشان القصر Shushan the Palace) التي كانت عاصمة قديمة لعيلام. أما من هو كورش Cyrus وكيف انتهى الأمر إليه (الملك على الفرس). فخير ما نقرؤه ما كتبه هيرودوت المؤرخ القديم، ولابد للوقوف على الأحداث التاريخية في آشور تفصيلًا، أن ترجع إلى كتب التاريخ، ولكن الصفات الرئيسية لهذه الدول وأصلها –نعني ميديا، وبابل الحديثة، و"الغرب الأدنى" المعقد في سوريا ، وآسيا الصغرى–، فالأفضل أن ننظر إليها جملة إذا حللّنا هذه المناطق ناظرين إليها من حيث اتصالها بآشور نفسها.

وإذا أصبح لآشور أهمية سياسية فإننا سنأخذ في درس أحوال دولة ذات سياسة خارجية إيجابية. والصعوبة التي يلاقيها المؤرخ لهذه الدولة إنصاف شعب ظهر متأخر اعلى مسرح الحوادث بعد أن سبقه معظم البلاد المجاورة إلى اتصالهم بعضهم ببعض، ونالوا نصيبهم من السلطان ومناطق النفوذ، يبدو أن آشور كغيرها من البلاد التي ظهرت على المسرح متأخرة قد وجهها واستغلها جيرانها، ثم أصبحت موضع احترام ورهبة عندما زادت قوتها وحققت مطامعها. ولعل آشور قد أحست فجأة كما

أحست انجلترا في القرن السادس، وألمانيا المتحدة في وقتنا الحاضر [16]، أن لها الحق في "مكان تحت الشمس" كما يبدو أنها عملت في عزيمة وبعد نظر عظيمين لكي تحتل هذا المكان. ومع ذلك فلم يخل تاريخها من أنها أصيبت بنكسات شديدة، وأكثر من هزيمة كان يمكن أن تكون قاضية.

وإذا ما أغفلنا التفصيلات وقصرنا النظر على الخطوط العريضة، فإن مشكلاتها السنوية الناجمة من كل حالة نتصورها في علاقتها الجغرافية لا تزيد على ثلاث. هي مشكلات بابل، والمرتفعات الشمالية، والشرق الأدنى. طالما أمكن آشور أن تفرق بين هذه المجموعة من الأعداء، وأن تلاقي كل واحدة منها بمفردها، وأن تلهي كلا منها عنها بما تخلقه بينها من خلاف، فإن هناك بعض الأمل في النجاح، حتى إذا اتفق منهما فريقان كان موقف آشور خطيرًا، فإذا شمل (الحلف) الثلاثة جميعًا فقد وقعت الكارثة، وإن حلفًا ثلاثيًا من هذا القبيل هو الذي أدى بنينوي آخر الأمر إلى السقوط. وإلى الجنوب الشرقي –كما رأينا من قبل– على بعد حوالي مائتي ميل من نينوي تقع مدينة بابل، وتقع إلى جانبها عيلام، ويلي عيلام أرض مرتفعة لم تمسها يد الإنسان بين الخليج الفارسي، والمنطقة المسكونة من الهضبة من شيراز إلى كرمان، وكان يسكن هذه المنطقة (ولعل ذلك كان إبان الحكم الكاسي في بابل) قوم شداد هاجروا إليها من الشعوب الشمالية، وسنعود إلى تاريخهم الخاص في الفصل التاسع. ولكن دراسة بابل كانت هي الموصلة إلى معرفة هذا كله، ولقد دخلت آشور التاريخ لأول

[16] يشير المؤلف إلى حالتها قبل تقسيمها بعد الحرب العالمية الثانية.

مرة تابعة للإمبراطورية البابلية في عهد حامورابي العظيم، وبلغت آشور ذروة مجدها القصير المدى سنة ٦٦٨ عندما أقام إسارحدون [١٧] ولديه نائبان له في حكم بابل وآشور فيما يبدو أخيرًا أنه يشكل دولة متحدة. وكان الخطآن الخطيران اللذان وقعت فيهما الإدارة الآشورية هما أولا: الفكرة الخاطئة التي كانت لدى سناخريب للقضاء على بابل (من مدة قريبة)، وثانيا: ما تبع ذلك من محاولة تنفيذ هذه الفكرة فإنها أظهرت بجلاء أن لا قدرة له على الفتح، كما كشفت لبابل قوتها، وترتب عليها ثروات متتالية قام بها شماش شوم أوكين Shamessu oukin سنة ٦٦٤ق.م، ونابوبولاسار[١٨] سنة ٦٢٥ق.م، وقيام إمبراطورية بابلية حديثة قبل حلول سنة ٦٠٠ على أنقاض آشور.

وقضية آشور الثانية تقع في الشمال الشرقي من جبال أرمينيا، وسلسلة جبال زاجروسZagross ، وطالما كانت آشور ضعيفة، وتعتبر زراعتها ثانوية، وتجارتها مهملة، لم يكن فيها إلا القليل مما يغري أجداد الأكراد الغلاظ من المقيمين في التلال بالإغارة عليها. ولكن ما إن أمن المزارعون والتجار على أنفسهم بما أسدت إليهم الحكومة القوية في نينوي من حماية، حتى نشطت الأعمال وزادت الثروة. عند ذلك كانت تقع القلاقل، أو تنتظر عند الحدود، وفي عهود الحكم العظيمة –عهد وراء عهد– إما أن يبدأ العهد بحملات تأديبية على سكان الجبال، وإما أن تقع خلاله هذه الحملات.

[١٧] Esahaddon
[١٨] Nabopolessar

ولقد حدث مرتين في أثناء فترة طويلة من التاريخ أن عمليات الشرطة ارتفعت إلى مستوى الأعمال الحربية بسبب أحد الخصوم الأقوياء. ففي القرن الثاني من قيام الدولة الآشورية؛ أي في القرن التاسع، نرى دولة أورارتو Urartu القوية ومركزها في بحيرة وان Van في أرمينية. وكانت دولة ملكية ذات أسرة ملكية حاكمة يخضع لها عدد من الملوك الموالين لها، يختلف عددهم زيادة ونقصًا من حين إلى حين. وكان لها لغتها الخاصة بها، كما كان لها إقليمها الخاص كذلك، ولكنها اقتبست الكتابة المسمارية، وتأثر فنها تأثرًا عميقًا بالفن الآشوري نفسه، والشوكة التي كانت في جانب آشور، والتي كسرت حدتها آخر الأمر، كانت دولة قوية تقع في الغرب في اتجاه آسيا الصغرى، واسترد نفس هذا الإقليم الجغرافي وحدته السياسية وأهميته الحربية في القرنين السابع والسادس، ولكن حكامه الآن غيرهم من قبل، ويتكلمون الآن لغة حديثة لها صلة باللغة الفريجية Phrygian لغة بعض الوافدين من أوربا إلى آسيا الصغرى. وكان هؤلاء يعتمدون –على ما يبدو– على عون يأتيهم من الغرب على خلاف ملوك (وان) الأقدمين الذين كانوا في حالة حرب مع الغرب، وسنعود إلى شرح موقفهم هذا في الباب التاسع.

وكانت مرتفعات مصر الخطر الثاني في نفس العهد المظلم الذي حجب عنا فيه تغيير الحكام في بحيرة وان. وعندما غزا سرجون ملك آشور مرتفعات زاجروس Zagross الواقعة شرقي مملكته سنة ٧١٣ق.م، كان ضمن من سجله من أسماء أشد أعدائه بأسًا (دياكو Diaku) الذي يحمل اسمًا ميديا. والرواية اليونانية التي بدأت تحظى بالثقة في هذا العصر تذكر

(ديوكيس Deiokes) أول ملوك المديين كمعاصر لهذا العهد، ومن المحتمل أن الاسمين لشخص واحد. وليس من السهل معرفة الفترة التي كان الميديون يسيطرون فيها على هضبتهم القاصية، ولكن لغتهم كانت تنتمي إلى نفس مجموعة اللغات الإيرانية التي يتكلمها القادمون من السهوب إلى الهضبة الجنوبية التي تلي عيلام، كما كانت مدينتهم —وهو ما سيتضح لنا فيما بعد— متفقة في جملتها مع مدينة هؤلاء. هذا وإن مخاوف آشور التي لم تنقطع طيلة القرن الأخير في عهدها الإمبراطوري، وحالة الفوضى الغريبة التي كانت بين القبائل ورؤساء العشائر إبان الحروب مع الميديين، والزيادة السريعة في مطامع سكان المرتفعات، كل ذلك يوحي إلى الذهن أن عنصرًا جديدًا أصبحت له الأولوية في ذلك الحين، إما من مكان قصي، وإما من جهود موفقة قام بها سكان المرتفعات ذاتها. ومما يستحق التنويه أن لسان حكام بحيرة وان بالرغم من أنهم من أصل غربي ينتمي إلى مجموعة اللغات الهندية الأوربية (كلغة الميديين وذوي قرباهم الإيرانيين)، كما أن دولاً حديثة ذات مطامع أخذت تقوم غربًا في المنطقة الشرقية من آسيا الصغرى هي "موسكي" Muski، وجميري Gimmiri التي كانت بعض قبائلها على الأقل من المهاجرين، أو من الرحالة. إن ثالث ملك من ملوك الميديين الذي دونهم التاريخ: وهو كياجزاريس، كان على ما رواه هيرودوت أعظم حلفاء بابل في صراعها المرير مع نينوى.

الفصل السابع

فجر التاريخ على طول المعابر البشرية

كانت مشكلة آشور الثالثة المتعلقة بسياستها الخارجية في الغرب الأدنى، واستنادًا إلى وجهة نظر ميزوبوتاميا (ما بين النهرين)، أو من وجهة نظر الجغرافيا اليونانية التي كانت تعتمد إلى حد كبير على المعلومات المعروفة فيما بين النهرين. كان الغرب الأدنى يشتمل على طريقين، أو معبرين منفرجين من اليابسة، ناتئين من كتلة القارة الآسيوية، وموصلتين إلى كتلتين آخرين من اليابسة: هما أوربا، وإفريقيا حسبما يقرره علم الجغرافيا عند الإغريق وفي العصر الحاضر. وتدلنا معلوماتنا الحديثة على أن المعبر الشمالي منهما (وهو آسيا الصغرى) هو نتوء يكاد أن يكون مربع الشكل، ويتصل في النهاية بالنتوء البلقاني في أوربا عند بوغازهلسيونت، أو البسفور، بينما لا يتجه المعبر الآخر غربًا، ولا هو في شكل شبه الجزيرة مطلقًا. إنه يتكون أساسًا من أرض مرتفعة، وسهل شاطئ يبتدئ من خليج أنطاكية إلى خليج السويس، ويقع ما بين البحر المتوسط غربًا والصحراء العربية الهائلة في الجانب الآخر. ويبدو أن الخطأ القديم السائد في اتجاه هذا الطريق كان راجعًا في الغالب إلى صعوبة التقدير الصحيح في الانثناءات التي كانت فيه –لطول الطريق من جهة، ولتغيير اتجاهه تغييرًا تدريجيًا من جهة أخرى– وقد يقع مثل هذا الخطأ حتى في المدن الحديثة، فإن الانثناء في الطريق الطويلة المطروقة كما في طريق فكتوريا، أو طريق (الهاي

High) في إكسفورد قد يدعو إلى مثل هذا الخطأ، وكان الطريق الجنوبي يهدف إلى الوصول إلى مصر، وكان معروفًا فيما يبدو معرفة سطحية في بابل في عهد الملوك (الكاشيين Kassite)؛ إذ قد وجد أثر لأحد الملكوك الرعاة الذي يدعى خيان Khayan عند بغداد، ولكن مصر لم تكن عاملاً هامًا في سياسة ما بين النهرين حتى تمت فتوحات الأسرة الثامنة عشر سنة ١٥٠٠ التي جعلت من نهر الفرات حدودًا للإمبراطورية المصرية.

١- سوريا

هذا الإقليم كان يسكنه أصلاً قوم كانت لهم قرابة –ولا تزال إلى حد كبير– بالمنطقة الجبلية، ومدنيتهم أساسها بصفة رئيسية زراعة المرتفعات الشاقة، ولكنها استمدت منذ العصور الباكرة مسحة من المدنية البابلية، واستعملت الكتابة المسمارية، كما استعملت الأختام الأسطوانية دون انقطاع. وقد اجتاحها نفس الجموع الكنعانية من الساميين الذين أسسوا أسرة حامورابي في بابل وحصنًا ساميًا في آشور، ويظن البعض كما رأينا أن فتح الهكسوس لمصر هو محاولة جديدة لهم، قاموا بها عن طريق المعبر الجنوبي. ولهذا المعبر الجنوبي الذي يمكن أن نطلق عليه اسم سوريا بوجه عام ثلاثة أقاليم رئيسية تتمز كل منها بمناظرها الطبيعية، وموارد الثروة فيه بدرجة جعلت لكل من سكانه تاريخًا خاصًا به تبعًا لمسلكه الخاص في الحياة، أحدها في الشمال، والثاني في الوسط، والثالث في الجنوب، وتقع فلسطين في الجنوب، وفينيقية ودمشق في الوسط، ويشمل شمال سوريا كل ما يقع بين فينيقية، والفرات، والمنطقة الجبلية.

ولعل الجزء الجنوبي من شاطئ سوريا هو الإقليم الوحيد في العالم القديم الذي يعرف عنه معظم الناس شيئًا من المعلومات، كما أن لهم علمًا بطبيعة أرضه وببعض تاريخه، وليس معناه إلا القوم القادمون من "وراء". وقد أطلق في العصور القديمة على أكثر من جماعة الرحل ممن أغراهم بالقدوم على الأردن "سحر الأرض الطيبة التي تفيض باللبن والعسل، الواقعة بين الوادي والبحر المتوسط". وكانت فعلا أرضًا طيبة متى تجاوز الإنسان الغابة الخانقة التي في الوادي، وصعد في الأراضي شديدة الانحدار في يهوذا، وحتى هذا الجانب من المرتفعات الذي يواجه الأرض الداخلية فإنه لمن القرب إلى البحر حتى إنه لينعم بشيء من الرطوبة ومطر الشتاء، وفي مستنقعاته تكثر المراعي. أما الجانب المنحدر صوب البحر فهو مستطيل وغير شديد الانحدار، وفيه بعض المستنقعات التي لا تخلو من البساتين، كما أن فيه مساحات أوسع ذات تربة خصيبة، وعيونًا شديدة العمق، وحافته المدرجة بما أنفق فيها من جهد عبر القرون الكثيرة، ينمو بها الكرم، وأحراش الزيتون، والغلال. وعلى مقربة من الشاطئ يزيد انحدار الأرض، وتوجد الأرض الضيقة التي يسهل الدفاع عنها في الأودية المواجهة للبحر في سوكو Socho، ورفاييم Rephaim، ووادي إله Elah ، ثم يلي ذلك شريط ضيق واقع إزاء الشاطئ، ممتد من الشمال إلى الجنوب، وهنا ينقطع الحجر الجيري فجأة في انحدار شديد، ويرى بعده سهل ساحلي هو الذي صار فيما بعد موطنًا للفلسطينيين. وقد لبث منذ أمد بعيد مزرعة للغلال ومرعى للماشية. وكان شمال السهل أوفره غلة لضمان وفرة ريه من مياه نهر الكرمل: وهو أكثر اتساعًا، وأكثر جدبًا كلما اتجهنا إلى

الجنوب حتى ينتهي إلى "صحراء التيه"، ثم يأخذ السهل في الارتفاع تدريجيًا حتى سيناء. وكان هناك طريق معبد يبدأ من مصر إزاء الساحل، وكان هذا يعرف فيما روي عن الإسرائيليين أنه "طريق الفلسطينيين"، وكان نفس الطريق يسمى في الشمال "طريق الشرق"، فإذا ما ترك الشاطئ الساحلي مرتقيًا ممرًا سهل الدفاع عند مجدو خلال وادي نهر الكرمل في سفح جبل جلبوا Gilboa عبر منابع نهر قاسيون، حيث يقع مرج ابن عامر (سهل ازدراليون Ezdraleon) الذي يفصل بين جبال اليهودية وجبال الجليل، فإذا دار الطريق حول البحيرة مارًا بطريق البحر وراء الأردن تحت سفوح الحرمون Hermon الداخلية، فإنه يسير في خط مستقيم إلى دمشق.

إلى "هذه الأرض الطيبة" حيث يوجد أبناء إسرائيل، ولعلهم عرفوا ما قدر لهم ساعة وصولهم. فإذا نظر أستاذ الجغرافيا إلى الحادث وجد فيه موضوعًا علميًا شائقًا، وكيف كان عليهم أن يستبدلوا بنظامهم الأبوي Patriachal، ومعيشتهم البدوية التي يشتغلون بها بالرعي. تلك المعيشة ذات الحاجة البسيطة والاقتصاد الهين مع عزلة تكاد أن تكون كاملة عن جميع متاعب الحياة –أرض الميعاد– التي لا تختلف عن جنان الشرق الأدنى، التي لا تهب ثمارها إلا لصاحب الجهد الشديد "والتفكير القلق في المستقبل"، حيث كل من لا رأس مال له قد حل به الخراب إذا أصابه صقيع متأخر. حيث لا بديل من الرق إلا للعمل المأجور حيث"الأرض الطيبة"، لا يمكن الحصول عليها إلا بالحرب، ولا الاحتفاظ بها إلا بالدسائس وظلم المغلوبين "قاطعي الأخشاب ورافعي المياه". حيث ينزل "الميديون إلى مصر"، والسوريون يصعدون إلى دمشق، وحيث يعرض

الفينيقيون سلعهم على جانب الطريق العام، أو يجوسون بها خلال القرى، ويغرون الناس بالتنعم والإنفاق.

فقد كان محاولة من شعب دخيل متعود معيشة الصحراء أن يحتفظ بعاداته الأبوية، وعزلته التي عرف بها مدى الدهور في وَسط جديد فيه استقرار، وزراعة، وله مكانة اجتماعية عالية، فإذا تعلموا "مهن الكفار" فمعنى ذلك أنهم حصلوا على الرخاء وعلى التقدم المادي، وكان عاقبة ذلك الاختلاط الذي ينتهي بعد مدة قد تطول وقد تقصر بالاندماج في الوسط الجديد. فإذا كفوا أيديهم فمعنى ذلك حرمان من القوة الزمنية، وحرمان مماثل له من هبات "ابنة صور".

إن معنى ذلك أيضًا أن القافلة تسير وأنت متخلف، وأنك غريب، أو عابر سبيل حتى في أرض الميعاد Land of Promise، والحيل الكثيرة والوسائل العديدة للتوفيق بين هذين المذهبين التي حاولها أبناء اسرائيل لحل مشكلة مستقبلهم هي من صميم عمل المؤرخ لإسرائيل. وليس علينا همًا إلا أن نذكر قواعد اللعبة، وأن نعد رقعتها، ونضع عليها القطع، أما الباقي بإسرائيل "فليفعل الله ما يريد".

ولكن استقرار الإسرائيليين في فلسطين ليس إلا إحدى الهجرات في تاريخ هذا المعبر الجنوبي، أو هو إحدى قصصه المتأخرة، وهي تقع حسبما كان متواترًا من التاريخ إبان القرنين اللذين كان فيهما تاريخ الأحداث مختلطًا (١٢٠٠ – ١٠٠٠) بعد انهيار الدولة الحديثة في مصر،

وانتهاء حماتها على سوريا، ولما كانت لغة إسرائيل من طراز اللغة الكنعانية يمكننا أن نعتبر أن الغزو "مما وراء الأردن" موجة متأخرة من الحركة الكنعانية الكبرى.

ومع ذلك فقد حدث قبل ذلك بمدة طويلة أن اجتاحت المنطقة جموع من "الكنعانيين" متجهة إلى الغرب، واجتازت للوصول صوب البحر سلسلة من الجبال المزدوجة في لبنان، وجبال لبنان الشرقية التي تعد تلال اليهودية، وجبال مواب امتدادًا جنوبيًا صغيرًا لها، وهنا في شريط ضيق من المرتفع أعادوا تأسيس سلسلة من الموانى سهلة الدفاع، على رءوس صخرية، أو جُزر ساحلية، حيث جمعوا بين مهنتي صيد الأسماك، وفلاحة البساتين. وهذا الشريط من الأرض هو الذي صار فينيقيًا تحت حكم الساميين، ولكنها بلغت مكانتها السامية في وقت متأخر بعد أن لبثت طويلًا في ظلام، ومع هذا ففي تاريخ مصر القديم في عهد الأسرة السادسة، ثم في عهد الأسرة الثانية عشرة وقفنا على بلدة ببلوس –إحدى هذه البلاد– وهي تتجر مع وادي النيل في الأخشاب والعقاقير، وتعليل وجود تجارة الخشب: أرز لبنان الذي كان يناطح السحاب عي شاطئ البلاد. أما التعامل في السلعة الثانية فدل على أن ببلوس كانت على اتصال قديم بدمشق تلك الواحة الدائمة الخضرة التي ترويها مياه جبال لبنان الشرقية، والتي تحتل موقعًا بارزًا في الصحراء، والتي تبرز كأنها مشرف بحري يبرز في داخل المحيط، وقد ظلت منذ عهد غير مذكور مناخًا مشهورًا في الطريق الرئيسي للقوافل القادمة من بابل إلى مصر وسوريا، ولسنا ندري على وجه التحقيق إن كانت ببلوس في ذلك العصر البعيد قد اتجرت عن

طريق البر، أو عن طريق البحر. وما من شك أنه كان هناك طريق صالح قديم يتجه جنوبًا إزاء الشاطئ الفلسطيني، كما يسير شمالا مارًا بأنطاكية إلى فينيقيا.

ولما كان من طبيعة الخشب أن يطفو فوق الماء، ومن الضروري اختزانه بعض الأجل ليكون صالحًا، فقلما يتم الاتجار فيه على عجل، ولا يمكن نقل الكتل الكبيرة من الخشب على ظهور الحمير، فهناك احتمال قوي بأنه كان ينقل إلى مصر في مواسم الملاحة على أرماث يسيرها صيادو الأسماك. والرياح السائدة في هذه المنطقة تتجه صوب الجنوب لا تميل يمنة ولا يسرة. وعلى مقربة من الشاطئ وهي بذلك ملائمة لنقل الأخشاب بقدر ما كانت ذات خطورة في غير ذلك من النقلات، وما إن كثر التردد على مصر وعرف أنها خالية من الأخشاب حتى نمت العلاقة التجارية بغاية السرعة مع هذا الساحل الغني بالأخشاب، وزادت هذه العلاقة قوة على مر الزمن بالاتجار في غيرها مما تنتجه البلاد، وبخاصة في الأنبذة، والزيوت، وربما في الفاكهة كما حدث في عصور متأخرة، وفي النحاس وهو على مرأى منهم في قبرص غربًا، وفي الفضة من أدنى الشمال، وقد ظلت من السلع النادرة في مصر حتى الأسرة الثامنة عشرة، وفي مقادير متزايدة من الأفاوية، والحلوى، والمصنوعات الشرقية، وفي مقابل هذا ألا يوجد القمح في مصر، والبردي لعمل الحبال، والتيل الرفيع، والعاج، والتحف العجيبة، والحلي ذات البريق الأزرق المدهش ذات القوة المؤكدة في دفع الشر "وهو ما كان يقوله الكهنة"، وذات القيمة الكبيرة؟ ويجب أن نذكر أن مصر كانت في العصور القديمة كما كانت إبان حكم العرب إحدى "البلاد

الصناعية" في العالم، وكان أجر العامل فيها زهيدًا، وكان يوجد بها الكتان، والبردي، ومواد أخرى محلية،كما كان يوجد بها بعض المواد التي تنفرد بها دون سائر البلاد. وكانت مظاهر المهارة الفنية والثراء متوافرة في قصور ملوكها.

وكانت دمشق مركزًا مماثلاً لمصر بما فيها من أحدث صناعات الصلب البالغة في القدم التي يرجع تاريخها على الأقل إلى الأسرة الثامنة عشرة المصرية. وكانت المدن الفينيقية تنافس كلاً من مصر، ودمشق حسب الظروف المواتية.

ولكن لم يكن لفينيقة ذكر في التاريخ حتى نهاية حكم الهكسوس حوالي سنة ١٥٠٠، فلم يبدأ تاريخها عندنا إلا في عهد الأسرة الثامنة عشرة؛ إذ نرى مدنها الفنية المستقلة المكتفية بذواتها لا تقدم لملك مصر إلا خدمات اسمية، كما نرى تلك المدن في نزاع مستمر بعضها مع بعض، كما نراها سريعة التقلب، تنقل ولاءها حتى تستطيع أن تتغلب على منافس لها سريع الانحياز إلى آخر عدو لمصر متى رأت نجمه آخذًا في الصعود. وفيما يتعلق بالتجارة البحرية إلى الغرب لا نرى لها ذكرًا في سجل التاريخ إلى العصر الذهبي لآشور، ولا مراء في أن لفظ فينيقي ورد في شعر هوميروس، وهوليس في الواقع من الألفاظ الوطنية المستعملة في البلاد، ولكنه وصف إغريق يعني "أحمر الجلد" يطلق على كل بحّار صبغت الشمس بشرته، لا على هؤلاء البحارين بالذات، وفي أقدم الأساطير الإغريقية كانت "فينيقية" في أشعار هوميروس عند ذكر زيارة الملك البحري

منلاوس Menelaos لها، كانت مختلفة كل الاختلاف عن صيدا الشهيرة بصناعة البرنز، وكان فينكس Phoenix نفسه ملكًا على كريت وجدًا لمينوس Minos، وطبيعة المرتفعات السورية فيما يلي فينيقية شمالا إلى جبال طوروس Taurus أكثر تباينًا وهي تأخذ في الاتساع حتى تملأ جميع المساحة الواقعة بين البحر ونهر الفرات. وتلاها مع هذا أقل وعورة، وأقل اتصالا،كذلك، وأمطارها متوافرة لا تعترضها سلاسل الجبال الساحلية، كما في قطاع لبنان. وسكانها أكثر عددًا ومنتشرون على مدى أوسع تربطهم روابط غير وثيقة من الاتحادات والأحلاف. وطبيعة الأرض الجبلية هذه لا تتغير تغيرًا محسوسًا عندما نعبر نهر الفرات عند (سمسات Samsat)، والتحول من الطبيعة الجبلية إلى الطبيعة الصحراوية تدريجي في المناظر والمناخ كلما سرنا صوب الشرق، وجميع هذه المنطقة أقل اعتمادًا على الأمطار، وأكثر اعتمادًا على مياه النهر بقدر بُعدها عن نسيم البحر. والطريق الرئيسية للوصول إلى هذه المنطقة، وللمنطقة التي تلي جبال كوروس تبدأ عند نهر الفرات من قرقميش Carchamish، وسمسات، لا عند دير. وتؤدي حلب ما تؤديه دمشق من حيث أنها سوق للتجارة، ووسيط في المعاملات التجارية، ومدن فينيقية الشمالية هي موانئ الصادر لهذه المنطقة. على أن التجارة الغربية التي تجتاز هذه المنطقة أقل بطريق البحر منها بطريق الساحل إلى قليقيا، حيث السهل المجاور للبحر أكثر استاعًا من فلستيا Philistia، وأجود ريًا بما تأتي به الأنهار من الثلوج المذابة من جبال طوروس، تلك الأنهار التي تكونت من دالاتها المتحدة هذه المنطقة. هذه الأنهار هي أبناء عمومة نهر الفرات الصغار التي انتهت

إلى البحر الأعظم بدلا من أن تفقد مياهها في الصحراء، ويمكن الوصول من قليقيا إلى الهضبة التي هي قلب آسيا الصغري خلال أودية عميقة في أضيق جزء من جبال طوروس، وهذا ما يؤدي بنا إلى المعبر البري الثاني، ولما كان تاريخ هذه المنطقة الجبلية عن يمين الفرات، وعن شماله، وكان تاريخ كل من سوريا وفلسطين يشكل لنا –هذه المنطقة– مسرحًا لفتوحات دولة مستقلة من الشمال الغربي، ومسرحًا لوقائعها الحربية، فلابد لنا من أن نمضي في ارتيادها إلى مدى أوسع حتى تصل إلى المنطقة التي بدأت منها الدولة، والتي كانت وطنها الأول.

٢- آسيا الصغرى والحيتيون

لو أردنا أن نرسم خريطة تقريبية لآسيا الصغرى رأيناها على شكل مستطيل تزيد نسبة طوله بعض الشيء، يتصل جانبه الشرقي بقارة آسيا، وتحت مياه البحر بأضلاعه الثلاثة، وزاويته الشمالية الغربية صارت خطًا مستقيمًا تقابله زاوية البلقان في أوربا، ولا يفصله منها إلا الطريق المائي الذي يمتد من البحر الأسود إلى بحر إيجه Aegean، ويشمل البسفور، وبحر مرمرة، والدردنيل، وتملأ هذا المستطيل التي تحدد أضلاعه شواطئ البحار هضبة بيضاوية الشكل، أو هي في شكل القرص المستدير، ويحيط به سلاسل كثيرة من الجبال الالتوائية التي تتجمع في النهاية في شكل هضبة جبلية كما في أرمينية في الشرق، وفي ليقيا Lycia في الزاوية الجنوبية الغربية، وفي فرجيا Phrygia المرتفعة فيما وراء الزاوية المتسعة نحو أوربا. وخارج هذه الجبال الالتوائية تقع سهول ساحلية حارة محمية تتلاقى فيها

المجاري المائية حاملة الكثير من الغرين في قليقيا، وفي بامفليا Pamphylia على بحر مرمرة، وبين الجبال المتوازية التي تقسم الشاطئ الغربي والتي تنحدر تدريجيًا حتى تختفي على هيئة مشارف بحرية، أو جزائر تحت سطح بحر إيجة غربًا. والمنحدرات الخارجية فيما عدا ذلك تنحدر انحدارًا شديدًا إلى أعماق البحر. والتصريف الداخلي نادر؛ لأن التلال الساحلية تحول دون وصول الأمطار إلى الداخل، ولكن نهر هاليس Halys الذي ينبع من جبال أرمينية المغطاة بالثلوج تجري مياهه طول العام، ويسير غربًا مخترقًا نصف الهضبة الأشد وعورة، ثم ينتهي شمالًا في وادٍ عميق ضيق، ويصب في البحر الأسود في منتصف الساحل الشمالي تقريبًا. ولا يوجد ما يقطع رتابة الطبيعة هناك إلا نهر سقاريا Sangarins، ولم يكن أول أمره إلا مجرى في المنحدر الساحلي يصب مياهه في البحر الأسود على بعد يسير جدًا شرقي البوسفور، حتى ليكاد يصب في أحد خلجان بحر مرمرة، أما الآن فهذا النهر يحمل مياه كل ما عسى أن ينزل من الأمطار فيما يقرب من ثلث الهضبة، ويخترق شقًا عميقًا في الزاوية الشمالية الغربية، ويهيئ لكل قادم من أوربا طريقًا مغريًا بالانتقال إلى قلب الهضبة، وهذا الطريق هو نفس طريق الفريجيين Phrygians في شعر هوميروس عندما كان الملك بريام Priam حدثًا، وكان بعد ذلك طريق السميريين Cimmerians في القرن السابع، والجيلاتيين Glatians في الثالث. والطريق الرئيسي الذي وثق الصلة بين الإمبراطورية الشرقية، والقسطنطينية أصبح في الوقت الحاضر الطريق القليل الانحدار الذي تسلكه سكة حديد بغداد.

ومن الواضح أن السؤاليين اللذين يتكون تاريخ "آسيا الصغرى" من الإجابة عنهما هما هذا السؤلان: هل كانت آسيا الصغرى قادرة في يوم من الأيام على أن تمد شعبًا بما يكفل له البقاء كقوة سياسية؟ إن كان الجواب بالإيجاب فكيف كان ذلك؟. فإن كان ذلك كذلك وهو الواقع – فقد كانت حاجزًا تامًا حال دون أي غزو، بل لعله حال دون التفاعل السلبي بين الشرق وأوربا، ومن الجلي أنه لو كان الشرق، أو كانت أوربا على درجة كافية من الضعف فإن شعبًا في مثل هذا الموقع تكون لديه الفرصة التي تمكنه من أن يقوم بدوره في التاريخ. وإذا أخذنا بالفرض المقابل وسألنا: هل كانت آسيا، وهل كانت أوربا على قدر كاف من القوة؟ فإن كان الجواب بالإيجاب فمتى وكيف تمكنت إحداهما من أن توفق إلى اختراق هذا الطريق الواقع بين الشرق والغرب، أو إلى أن تفتحه على مصراعيه بالقوة؟ وفي حدود ما لدينا الآن من معلومات نستطيع أن نرقب المناسبة الأولى التي أجيب فيها عن أحد هذين السؤالين.

ونظرًا إلى أن هذه الهضبة كان يسكنها شعب متجانس ومتحد، فقد كانت لها مزايا عدة، ورغمًا من أن منطقة صغيرة في جنوبها الغربي مغطاة بالمياة كما في إيران، وبها مستنقعات ملحة، فإن معظم أراضيها مراعي، وجميع أطراف هذه المراعي يمكن زراعته بالحبوب على مستوى متسع، وعلى حد أحد تعبيرات هيرودوت الضاحكة كان الفريجيون –وهم سكان نصف الهضبة الغربي – "أغنى من نعرف من الناس، وأكثرهم حاصلات زراعية". وكانت التلال المحيطة بها غنية بالمعادن والأخشاب، صالحة فيما عدا شق نهر زنخاريا للدفاع التام عنها، ومع هذا فليست من

السعة ولا من تنوع طبيعة أرضها بحيث تأوي قبائل تبلغ من القوة ما يجعلها مصدرًا للخطر، وشرقي نهرها ليس في المنطقة التي تحيط بها ثنية النهر فضاء غير منبسط أقل صلاحية للرعي، ولكنه صالح لزراعة الزيتون، والتين، والكرم. وفي الجنوب في سفوح التلال المجاورة لجبال طوروس وراء قيلقيا نطاقات صغيرة من الأرض، ترويها مجارٍ من التثلوج الذائبة؛ لهذا كانت خصبة دائمًا، وأهمها تيانا Tyana، وهذه تكاد أن تكون دمشق صغيرة ذات وادٍ موصل إلى الساحل. وغربي هذه تقع دربي Derbe، وايكونيوم Iconium، وعلى مقربة من نهر هاليس تقع قيصرية مازاكا Caezaria Mazaca، وكلها تكاد أن تكون صورة مكررة منها. وهذه المنطقة التي في الوسط الجنوبي من الهضبة يظهر أنها حاولت في بعض الأزمنة أن تنضم إليها.

ورغم كثرة الغزوات، وكثرة الهجرات إلى آسيا الصغرى في العصور التاريخية من الأوربيين، والفريجيين، والجلاتنيين Galatians، ومن إغريق البحر المتوسط، ومن المغول المرتحلين من وسط آسيا، احتفظ سكان آسيا الصغرى بصفة عامة بجميع مميزات الجنس الألبي Alpine الساكن الأصيل المنطقة الجبلية كلها، ولا يزال سكان المناطق الجبلية في ليقيا، وأرمينية، وشمال سورية يحتفظون بطراز هذا الإنسان نقيًا غير هجين. والذي نعرفه عن المدنية القديمة لهذه المنطقة لا يكاد يعدو العدم، ولكن ما رددته الأساطير عن موقع طرواده على شاطئ البسفور يدلنا على كثرة التبدل في أساليب الحياة بين أوربية، ووطنية ابتداءً من آخر العصر الحجري الحديث إلى أول العصر الحديدي.

ولم يحظ من المواقع القديمة ببحث دقيق في آثارها إلا موقع واحد؛ ذلك هو موقع (بوغازكوي Boyhoz Keui) على مسافة أميال قليلة شرقي نهر هاليس في منطقة كانت قديمًا مركزًا للمواصلات بين الشمال، والجنوب من قيلقيا إلى (سينوب Sinope)، وبين الشرق، والغرب من ميزوبوتاميا بين النهرين إلى أوربا، وبتريا Pteria، ورد اسمها على أنها عاصمة مملكة (كابادوكيا) في القرن السادس قبل الميلاد، وكان لها قبل ذلك قصة طويلة نذكر أهم أحداثها فيما يلي:

لقد دلت الوثائق المسمارية التي استكشفت حديثًا في بوغازكوي، وفي أماكن أخرى في كابدوكيا أن تجارًا بابليين استوطنوا هذا الإقليم، وكان لهم فيه نشاط في الأعمال التجارية في تاريخ من المحتمل أنه بعد عهد الأسرة البابلية الأولى بوقت يسير، وأكثر من هذا في الأهمية دلالته على انتشار التجارة البابلية، وحسن نظامها، مما يدل على وجود مجتمع في بوغازكوي، رأى التجار البابليون أنه جدير بالإقامة بينهم.

وهذه الوثائق المستكشفة زادت في أهمية ما أشارت إليه الوثائق المتعلقة بعصر حامورابي من وجود دولة قوية وراء جبال طوروس، كما زادت في أهمية وثائق مصرية تدل على حروب الأسرة الثانية عشرة (سنة ٢٠٠٠ ق.م على الأغلب)، ضد دولة أخذت تتوسع حديثًا في شمال سوريا، ومن المعتقد أنها قادمة من الشمال عن طريق نهر الفرات، كان البابليون يسمونها الخاتي. والرواية الإسرائيلية (عند ذكرها قصة إبراهيم) أن أحد الحيتيين –كما تسميه الصورة المترجمة الإنجليزية– كان يملك أرضًا في

حبرون Hebron في جنوب فلسطين، وأخيرًا كان "تيدال أمير الشمال" أحد المحاربين في "معرفة الملوك الخمسة مع الأربعة" يحمل فيما يظهر نفس الاسم المسمى به ملك معروف لهذا الشعب في بوغاز كوي، هذا الشعب الذي سنطلق عليه من باب التيسير اسم الحيتيين –دون أدنى حرج– واسمهم واضح في الوثائق المصرية من سنة ١٥٠٠ إلى ١٢٠٠ بتحريف خفيف في اللفظ بسبب الكُتاب الأجانب. وفي وثائق آشور من سنة ٨٥٠ إلى سنة ٧٠٠ كانت رسائلهم تكتب بالخط المسماري على ألواح من الصلصال شأن جميع الوثائق في ذلك العهد، باستثناء الوثائق المصرية باللغة السامية عادة، وإن كاننت تكتب أحيانًا باللسان المحلي غير السامي، وتماثيلهم التي هي مزيج من الفن البابلي والآشوري بروحها القوية شبه البربرية الخاصة بها. والتي عليها كتابة تصويرية لا سبيل إلى قراءتها باطمئنان وثقة. هذه التماثيل منتشرة في البلاد التي فتحوها، من الفرات إلى سارديس Sardis، والتي تمتد جنوبًا إلى حماة في سوريا، وتمثل كل العصر المحصور بين أقصى التاريخين المذكورين فيما سبق. وعلى هذا أصبح من الواضح أن الشرق الأدنى كان على علم –حوالي القرن العشرين– بوجود عامل سياسي في الشمال الغربي يحتل شمال سوريا، وله أملاك في جنوب فلسطين، ويغير على بابل، ويقلق مصر في عهد الأسرة الثانية عشرة.

ولو كان على يقين بتاريخ الأسرة الثانية عشرة المصرية، أو الأسرة الأولى البابلية؛ لكان في وسعنا أن ننتهي إلى حكم في الرأي الذي تواتر كثيرًا، بأن هذا الشعب الخاتي Khatti، أو الخيتا KKheta –كلهم، أو معظمهم– هم أولئك الفاتحون الأجانب الذي سماهم المصريون

بالهكسوس، الذين أسسوا الأسرات الرابعة عشرة، والخامسة عشرة، والسادسة عشرة، والذين خلصت مصر من حكمهم الأسرتان السابعة عشرة، والثامنة عشرة. والذي لا شك فيه أن نتيجة الخلاص من حكمهم كان فتح مصر لسورية كلها إلى قرقميش Carchamish على نهر الفرات؛ ذلك الفتح الذي يدل دلاله واضحة على أن الحرب فيه أشعلت أخذًا بالثأر، وأنها كانت حيطة سياسية لدرء أي اعتداء آخر مماثل. وهذا الفتح قد تم سنة ١٥٠٠، وقد اقتضى هذا الفتح تبادل الرسائل السياسية مع ملوك بابل الكاشيين، كما جعل مصر وجهًا لوجه مع دولة متحدة تسمى الميتاني Mitauni، تشغل جميع المنطقة الجبلية شرقي الفرات، كما جعلتها ترتبط في حلف غير وثيق مع قوم من الآراميين الذين كانوا في حالة بين الترحال والاستقرار.

وقد أغاروا في سرعة البرق على جميع حدود الصحراء الشمالية، ومن آثارها ولاء الولايات الحيتية في أعلى مرتفعات سورية وأسفلها، ودفعهم الجزية لمصر سنة ١٤٦٩.

وقد جاء هذا الفتح المصري في الوقت المناسب لإنقاذ دولة الميتاني من الضغط الشديد الذي كان واقعًا عليها من كل جيرانها في المرتفعات في وقت واحد، وربما بالتآمر بينهم من آشور في الشرق، ومن الحيتيين غرب الفرات. ومصر التي لم يكن لديها رغبة أن تزيد في فتوحها، وآثرت الاحتفاظ بما حصلت عليه، تصدقت مع متاني، وتم بين البيتين الملكيين أكثر من مصاهرة واحدة. ولكن هذه الاحتياطات الواضحة التي

أريد بها منع الكارثة قد عجلت بها، ولقد كانت عمدتنا في استقاء هذه المعلومات السجلات الملكية التي عثر عليها في بوغاز كيوي، يضاف إليها "خطابات تل العمارنة" وهي التي حررت عند اشتداد الأزمة في عهد أمنحتب الثالث، وأمنحتب الرابع المصريين.

وبعد توقيع المعاهدة بين مصر والميتاني بوقت يسير، كان سوبليوليوما Subiluliuma ملك الحيتيين في كابانوكيا، وهو من تواضع الكتبة المصريون على تسمية سابلل Saplel على سبيل الاختصار، كان على ما يبدو الرئيس الأعلى لعدد من الأمراء في أطراف سوريا الشمالية. ولما كان على ثقة من أنهم في عونه، ورغبة منه في انتهاز الفرصة المواتية، سيّر قوته كلها وعدتهم ألف وأربعمائة إلى متاني، واجتاح هذه المملكة الجبلية إلى حدود دجلة، بل إلى المدى الذي انتهى عنده فتوحات سِلفه العظيم هاتوسيل الأول Hattusil ، الذي ليس لدينا علم بأخباره إلا هذه الإشارة البسيطة.

هذا ما قضى على حياة دولة الميتاني، كما أفسد تدبير مصر رأسًا على عقب. ثم إنه كان ذا أثر عظيم في كبار رؤساء الآراميين، فكان لابد لهم من أن يخطوا خطوة ويحملوا نتائجها؛ لذلك استغلوا استغلالا طيبا تلك الفعلة الشنيعة التي قاموا بها بانضمامهم إلى الحيتيين. فعلوا ذلك أول الأمر سرًا بسبب ما اعترفوا به حديثًا من ولاء لمصر، ثم أعلنوا جهارًا بعد أن ذاع أمره بوصفهم تابعين لهم. أما مصر –وقد تخلى عنها الجميع– فقد وقّعت اتفاقًا مع المنتصرين، وتنازلت عن شمال سوريا كله، وتجدد الاتفاق

بين (مرسل Mursil) ثاني خلفاء سابلل (حوالي سنة ١٣٦٠)، وأمنحتب الرابع الذي وجد أن خصومه الآراميين قد حالوا حيلولة تامة بينه وبين البابليين الذين توارث صدقاتهم، وأن قبضته أخذت ترفع حتى عن مدن فينيقية الساحلية، وقد شعرت بما شعر به من الكرب بسبب ضياع سوريا.

ومع هذا فالبلاد الأخرى غير مصر التي أذهلتهم مثلها انتصارات الحيتيين، قد وجدوا من الوقت ما يسمح بإعادة النظر في سياستهم. فآشور التي قهرت الميتاني من قبل لم يكن غرضها من ذلك إضعافها ليبيدها الحيتيون. فرغبة في إعادة التوازن قرر شالمنصر الأول Shalmanaser أن يلقي دلوه ليحصل على ما بقي منها، فأغار عليها سنة ١٣٢٠حتى بلغ الفرات، وغزا خلفه كوماجين Commagene في التلال الواقعة بين سورية، وكابادوكيا، وفي نفس الوقت يدعي سيتي الأول أحد أوائل ملوك الأسرة التاسعة عشرة: أنه بلغ الفرات أيضًا. ومما لا شك فيه أن خلفه رميسيس الثاني استرد لبنان واحتلها من جديد، وقد أصبح الموقف حرجًا، فإن الحيتيين الذين كانت لهم يومئذ السيادة على معظم آسيا الصغرى جمعوا خلفاءهم أجمعين حتى الليثيين Lycians من أقصى الجنوب الغربي، والدردانيين Dardanians على مقربة من طروادة، وقابلوا الجيش المصري سنة ١٢٨٧في موقعة كبرى عند قادش في شمال سوريا، وأعلن رميسيًا أنه كسب المعركة، ولكنه لم يتبع انتصاره بعمل آخر؛ إذ في هذا الوقت انتهز الآراميون الفرصة للثورة على الحيتيين، فلعل الجانبين قد رحبا بوقف القتال وعقدا هدنة بينهما. وهذه أعقبتها بينهما معادة مفصلة سنة ١٢٧١ بين رمسيس وملك بوغازكوي (هاتوسيل الثاني Hattusil)

الذي يدعوه رمسيس (خيتاسار Khetasar) نص فيها إعادة تعيين الحدود في لبنان، وتسليم المعتدين، وإقامة تحالف بينهما للهجوم والدفاع –ولكن ضد من؟– فهذا ملك بابل أصبح قلقًا، وبعث إلى بوغاز كيوي يتحرى الخبر، وكان أمران محتملين في هذا الوقت، لقد سبق أن وجه هاتوسيل القول في عبارات صارمة إلى ملك دعي في بابل، متعلقًا بعدو لم يسمه، ولم يكن هذا العدو إلا ملك آشور الذي أخذ نشاطه يزيد في الغرب.

ثم إن الخطر الثاني كان خطرًا جديدًا، فقد أخذت أوربا تتمخض عن هجرات عنيفة إلى البحر المتوسط، وإلى غرب آسيا الصغرى –وسنعود إلى ذلك تفصيلًا– لقد وجهت الطعنة من الخلف إلى الحيتيين.

ولهذا السبب نفسه كان لدى رمسيس ما يدعو إلى القلق "فإن الجزر كانت ثائرة، والاضطراب كان سائدًا بينها" ولعله كان متنبئًا بالإغارة البحرية الكبرى التي أصيبت بها مصر عقب وفاته. وفي مثل هذه الحالة تعتبر صداقة مصر مع الرئيس الأعلى بآسيا الصغرى، ومع ليكي، وداردنوي Likki-Dardaniui البحريتين وأصدقائهما –وهما ممن اشتركوا في الغارة البحرية على مصر– تعتبر هذه الصداقة كبيرة القيمة في مصر. وبصرف النظر عن كل هذا كانت سوريا تربة خصيبة للدسائس. فلابد إذن من اتفاق صريح يتعلق بتسليم المعتدين، فهو وحده الذي يقي "الطرفين الكبيرين المتعاقدين" التورط في حروب تجرها خصومات الصغار، وعندما اطمأن هاتوسيل وحلفاؤه على سلامة حدود دولتهم ومواصلاتها، أصبح في

وسعهم الالتفات إلى تنظيم الأمر فيها. لقد وجد السجل الأكبر للمتلكات العقارية عندهم، والمعاهدة التي بينهم وبين حلب الدولة العميلة معهم ضمن الألواح الطينية التي عثر عليها في بوغازكوي. وكان يحيط بدولتهم نطاق من دول صديقة مستقلة، ومن بلاد خاضعة أوثق بهم صلة تدفع لهم الجزية، ويشرف عليها البلاط الملكي وأملاك واسعة يديرها الملك دون غيره. وكل ما نستطيع أن نتبينه بوضوح من أحوالهم الاجتماعية: أن للنساء عندهم المكانة الرفيعة والحرية الاقتصادية التي ظلت للنساء في بابل القديمة، وليكيا المتأخرة في سلم الحضارة إلى عصر الإغريق. وهذه الحالة تسود دائمًا فيما يبدو كلما كانت الزراعة والصناعة هما عماد الحياة أمدًا طويلًا يدعو إلى وحدة النظم واستقرارها (ذلك لأن العقول، والدأب أكبر قيمة من القوة، والشجاعة الحيوانية).

لقد أوقف الحيتيون نشاطهم والتزموا الوقوف في الوقت المناسب، ولم يتسرعوا لحظة واحدة، فلو أن حرب طروادة ابتدأت كما زعم الإغريق حوالي سنة ١١٩٤، فإن غزو الفريجيين للهضبة وحربهم مع الأمازون النساء المترجلات Hen Pecher Imazons، قد حدث فعلا قبل ذلك بحوالي أربعين سنة؛ أي حوالي سنة ١٢٣٠ في مدى سنة، أو سنتين من الغارة البحرية الكبرى التي نزلت بمصر إبان حكم مرنبتاح، وأن غارة بحرية تالية اعتدت على سوريا ونزلت بها جموع كثيرة من المهاجرين سنة ١٢٠٠، ولم يردهم عن مصر إلا شجاعة رمسيس الثالث وحسن سياسيته. ولم يكن الحيتيون الذين أسهموا في هذه العملية هم أصحاب القيادة فيها، بل كانوا إما حلفاء، وإما تحت إمرة أقوام تدل أسماؤهم على

أنهم من الإيجيين، والأناضوليين الغربيين. وأكثر الشعوب ظهروا بين هؤلاء هم الموسكي Muski، وهم في أغلب الظن المسكوي عند الجغرافيين الإغريق، ولم يزل دأبهم الهجرة إلى سنة ١١٧٠ حينما هددوا تخوم آشور وظلوا خطرًا عليها (رغم وعودهم) حتى ردهم تجلات فلاصر الأول إلى "البحر الأعلى"، ويدل السياق على أن المعني به البحر الأسود، كان ذلك سنة ١١٢٠، وقد هيأ ذلك الفرصة للبقية اليسيرة الباقية من الإمبراطورية الحيتية عدوة آشور القديمة أن تسترد أنفاسها. ولم تكن بوغازكوي يومئذ كبرى مدائنها، بل كانت حصن قرقميش على الفرات التي يبدو أنها صمدت، ولم تستسلم عندما اجتاحت جيوش تجلات فلاصر الإيالات السورية الشمالية، فلبنان والساحل الفينيقي. ومع ذلك فقد كان هذا النصر الآشوري قصير الأجل، فإن الاعتراف بسلطان نينوي من المحتمل أنه جاء من الدول الواقعة غربي الفرات طيلة أجيال عدة، ولكن الثورة التي حدثت سنة ١٠٦٠ حررت سوريا، وهزمت جيشًا آشوريًا في قرقميش.

وعلى ذلك فقد قام الآشوريون الذين واتاهم النصر في القرن التاسع بما قاموا به في القرن الحادي عشر كرة أخرى، ولكن وجوه المسألة كانت في الحالتين متشابهة، لقد كان بين دجلة والفرات إقليم ضعيف ميال المسلم، زراعي في الغالب في سفوح التلال التي كانت تشغلها الميتاني، وكان وراء النهر قوم من الساميين الآراميين يمتهنون الرعي، يجتمعون بين التجوال والاستقرار، ولا يحترمون إلا الأمراء التجاريين من ذوي قرباهم، وهم بنو حداد، وجزائيل، وقد حكموا، ودسوا، واتخذوا من جيرانهم مخلب

القط عن طريق استخدام السياسة في أسواق دمشق. وظلت قرقميش التي كانت تقع في أعلى النهر بعيدة المنال قرونًا عدة، وكان في استطاعتها أن تتجنب الاشتباك في حروب تلك الأيام، وقد سدت منافذ السبل أمام الإمارات الحيتية، وأخذت مكوسًا شخصية على كل قادم إلى حلب، وكانت حماة فيما يبدو أهم الإمارات التي في سفح التلال، كما حلب المنافسة لدمشق، ويبدو أنه كان في استطاعتهم إذا دعت الحاجة أن يستصرخوا ذوي قرباهم فيما وراء جبال طوروس. ولكن ليبق ثمة ما يدعي الإمبراطورية الحيتية، كان يقطن المنطقة قبائل الموسكي والفريجيين، وكانت موقع قليقيا وكماجيني في التلال، وتيانا فيما وراءهم،كل أولئك قد قطعوا الصلة ببوغازكيوي في كمابادوكسيا، ولم ينته القرن الثامن حتى كانت ساردس مستقلة كذلك.

وفيما يلي حلب، وحماة من ناحية البحر، اتخذت المدن الفينيقية التي كانت مراكز قديمة للساميين –قبل الهجرة الآرامية– اتخذت لها طريقًا جديدًا للعيش عندما بدأت المتاعب "في الجزر". واستعاضوا عن حياتهم الأولى حياة البحار في قرطاجة بإفريقيا، وأصبح بأيديهم القوة الزمنية في وطنهم الذي كان به كل شئ إلا الأرض؛ إذ صارت في أيديهم قوة المال وحرية التجارة. وقد قال المؤرخ م.ماسبيرو: "إن سوريا في موقع جغرافي لا تستطيع أن تكون مستقلة فيه إلا بشرط، ألا يكون لها جيران أقوياء". ولكن العكس صحيح أيضًا، ففي فلسطين استغل أبناء عمومة الفينيقيين في الجنوب الهدوء الثلاثي الذي هيئ لهم من ضعف مصر، وانقسام الحيتيين، والنكسة التي منيت بها آشور، فضربت حمايتها على جميع المنطقة

من الفرات إلى "نهر مصر"، ثم فرضت مكوسًا باهظة، وشاركت حيرام ملك صور وملك صيدا في تجارة واسعة مع "المملكة الجنوبية"، وفي البحر الأحمر. وفي أورشليم صارت الفضة ذاتها —وهي لم تزل في مصر شيئًا نادرًا— لا قيمة لها في أيام سليمان.

ولكنها عندما بلغت قمة مجدها انقسمت هذه الدولة الائتلافية على نفسها؛ بسبب مسائل مالية على ما يظهر، أو بسبب توزيع الأرباح، ولم تكن طيلة حياتها إلا دولة ائتلافية من سكان المرتفعات، رغم أن قائدين عظيمين منها وسياسيًا عظيمًا: هم شاءول، وداود، وسليمان جعلوا منها دولة ملكية وإمبراطورية. وهكذا انسلخ منها أتباعها "السوريون"؛ أي الآراميون، واستخلصوا دمشق مملكتهم مما بقي من الدولة المحمية. ولم يجمع شمل الفريقين إلى مثل ما كان قبل إلا عبقرية (عمري Omari) في الشئون الحربية، والزواج السعيد الذي تم بين أخاب وابنة صور، والمضاربات التجارية التي قام بها يهوشافاط. ولكن السوريين انتصروا في موقعة (راموت جلعاد)، ونسبت ثورة ياهو إلى ما أثارها من جزاءات عائلية، كما في وثوب حزائيل إلى العرش، ودمر أسطول البحر الأحمر الجديد عند عصيون جابر Ezion Gaber بريح شرقية.

فأما كيف أمكن آشور أن تستخلص لها من هذه الدنيا المرتبكة المعقدة إمبراطورية رغم مشكلاتها في بابل، وفي الجبال، وفي السواحل؟ فهو موضوع خارج عن نطاق فجر التاريخ، ويلقي عليه التاريخ أسطع الأضواء.

وأما كيف لم تفعل المدن الفينيقية ذلك من زمن بعيد؟ فهذا ما يزال داخلًا في نطاق بحثنا، وإلى هذا السؤال ينبغي الآن أن نعود.

الفصل الثامن

فجر التاريخ في شرق البحر الأبيض المتوسط

لم تبلغ الآثار القديمة المستخرجة من الحفريات في أي مكان في العالم تغيير ما نعلمه عن مجرى حوادث التاريخ مبلغها في مهد الحضارة الإغريقية، ففي تاريخ مصر، وفي تاريخ بابل لم تخل أيدينا يومًا ما من صورة عامة ورثها الكتاب الإغريق عن المصريين، والبابليين المتأخرين أنفسهم. وقد تكون الصورة ناقصة، أو مشوهة، أو مبالغًا في أبعادها، أو مثقلة بما ينسجه حولها الخيال وثرثرة عامة الشعب. ولكن هيرودوت أمكنه أن يكتب عن مينا، وعن خوفو، وعن سيزوستريس، كما أمكنه أن يحاكي إلى حد ما نقوم به نحن الآن من سرد الحوادث في ترتيب تاريخي. وكان أكبر اعتماده فيما نعلم على نفس الأدلة التي نعتمد عليها في عصرنا الحديث. وبابل في الواقع أدنى شبهًا ببلاد الإغريق؛ إذ بينما كان سرجون ملك أكاد معروفًا في الوسط العلمي في بابل الحديثة، وبينما يتردد اسم حامورابي، وكدورلاجامار Kudurlegamar في قصص إسرائيل القديمة، لا يمكن القول بأن التاريخ المتصل يرجع إلى الأسرة البابلية الأولى، ولا ترجع التواريخ المقارنة إلا إلى عهد الملوك الكاشيين Kassite، أما تاريخ الإغريق المتصل فلم يبدأ إلا منذ حرب طروادة، وعلى أفضل تقدير منذ قدوم الآخيين Acheans، وفي أسلوب جدلي جميل يبدي الأستاذ رجواي Ridgeway اعتراضه بقوله: "لو أن منيوس الذي يذكره القصص الإغريقي

كان هو الطاغية الذي قهره تيسياس (كما تقول الأساطير الشعبية)، وكان جدًا لإيدومينوسIdomenus، ومعاصرًا لبيلوبس Pelops، ولاميدون Laomedon، فهو إذن القاضي على المدينة المينوية Menoan لا مؤسسها، وعلى أحسن فرض إذا ما اعتمدنا على الروايات غير الهوميرية التي تجعله ابن أخ كادموس Kadmus ملك طيبة، فهو لا يبلغ في القدم إلا الفرع الثامن، أو الفرع قبل الأخير من الفروع التسعة التي انقسم إليها العصر المينوي. وكل ما حدث قبل ذلك فهو حسب ما كان يعلمه الأغريق، وحسب ما كنا نعلمه إلى زمن قريب في ظلال دامس من القصص الخرافي للبلاجيين والآرميين.

ولا جدال في أن المعلومات الحديثة قد جاءت مجزأة، وفي أثناء ذلك كانت الجهود تبذل كثيرًا لإظهار علاقتها بتاريخ الإغريق بالصورة التي كان يلقى بها في المدارس. ولا مراء في أن كل نظرية كانت على أحسن تقدير محاولة لشرح ما كان يعرف في ذلك الوقت، ولم يكن إلا نادرًا إن كان المؤرخ يدرك تمام الإدراك كل ما كان معروفًا حتى وقت الكتابة، وإلا فقلما كف عن المبالغة في أهمية كل ما كان أحدث، أو أشد تعارضًا مع المعلومات التي حصل عليها. وكان هذا هو ما يحدث في علم الآثار المصرية وفي غيره من البحوث العلمية، ولكن نظرًا إلى أن هذه الدراسات التاريخية لا تتأثر إلا قليلا "بالتطبيقات العملية" في الشئون التعليمية، فإن التناقض بين الفروض –ولو أنه يبهر العين وله ما يبرره علميًا– لم تدركه عين العامة. ومثله ما حدث كذلك في العلوم التقدمية Progressive: كالكيمياء، والتاريخ الطبيعي، ونظرًا إلى أن عقول السواد كانت تسيطر

عليها سيطرة قوية ولمدة طويلة فكثرة صبيانه هي أن العلوم الإنسانية، أو على الأقل قدرًا كبيرًا منها محل ثقة، فإن التناقض الذي يكشفه على الآثار لم يقابل أيضًا على أنه آية تقدم المعرفة، أو ترقي البحوث، فإنصافًا للسلف إذن الذين لا مندوحة لنا في الاختلاف معهم في جهودهم الكريمة، ومقترحاتهم الخصيبة، بناء على أسانيد لم تكن ميسرة لهم عندما أنجزوا كتاباتهم، وإنصافًا لوجهة نظرنا نحن، وهي عرضة كذلك لتعديل سريع بما يكشف من حقائق جديدة، يحسن عمل موجز بخطوات الكشف في هذا الإقليم مع التدقيق في التواريخ والمواعيد التي كشفت فيها الحقائق للعلماء، والتواريخ، والمواعيد أيضًا التي وصلت فيها إلى أيدي الكافة. بهذه الطريقة وحدها يمكن قراءة الملخصات القديمة بفهم صحيح ونقدها بإنصاف، ونرجو أن نذكر هنا أن هذه الصفحات القادمة كتبت في صيف سنة ١٩١١ قبل الوقوف على الكشوف القيمة التي قد تظهر في خريف تلك السنة، مما تم، أو شرع فيه، وعلى الخصوص في مقدونيا، وتراقيا، والشاطئ الغربي لآسيا الصغرى، وفي بعض الأماكن في شمال إفريقيا.

ودراسة الآثار الإيجية Aegean الخاصة بما قبل التاريخ تبدأ بمحاولة (شليمان Schliman) بين ١٨٧٢و ١٨٧٤في أن يجد "طروادة هوميروس" في تلك (هيشاربك) بجانب الشاطئ الآسيوي الهلسبونت (البسفور)، وذلك خلاف ما عثر عليه عرضًا، أو قبل الوقت المناسب للبحث في ميلوس، وتيرا، ورودس، وقبرص. وقد أثارت الطبقات الستة من الآثار التي يبلغ عمقها أكثر من خمسين قدمًا التي وجدها تحت طروادة الحديثة –"البلد الروماني الإغريقي"– أثارت دهشة عامة، وسببت شيئًا من

الحيرة. ذلك لأنه ابتداء من الطبقة الأولى التي تنتمي إلى العصر الحجري الحديث إلى الطبقة الخاصة بالعصر الحديدي القديم الملاصقة للطبقة العليا، كان كل شيء يدل على حضارة بربرية، ويتجه في الغالب إلى أعمال العصر المقابل في وسط أوربة، فلا يكاد يوجد به فخار ملون، ولم يكن به مطلقًا شيء من الصور الخاصة بالعصر الهوميري، مما تعودنا من فلاكسمان، أو فناني النهضة حتى، ولا من نقاشي الجرار الإغريقي.

ذهب شليمان من طروادة إلى مسينا سنة ١٨٧٦ في جنوب بلاد اليونان، وفيها وجد أيضًا عصرًا برنزيًا –ليس إغريقيًا بتاتًا–، ولكنه مختلف كل الاختلاف عن عصر طروادة. ومما يلفت النظر فيه كثرة الفخار الذي به رسوم قائمة للحيوان، والنبات، وأرضية فاتحة. وفضلًا عن ذلك فإن فخامة ما كشف في مسينا ينسب إلى العصر البرنزي الحديث وحده، وبه دلالات على الصلة بمصر على ما يبدو إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة (١٥٠ – ١٣٥٠ ق.م). ومن جهة أخرى وجد تطابق عجيب بينه وبين آثار قديمة مشهورة من الشمال الغربي لأوروبا، كانت تنسب في ذلك الوقت إلى "الكلت Celts"، وجدير بالذكر في أثناء هذه النظرة العابرة أن التطابق للفن الكلتي لا يزال يفتن أساتذة الفن في هذا الإقليم. ومع هذا فقد أبدى السير تشارلز نيوتون Sir Charles Newtos رأيًا معارضًا سنة ١٨٧٨، حيث نسب إلى الحضارة المسينية المجموعة الكبيرة التي بدار الآثار البريطانية التي وجدت في مقابر أياليسوس Ialysus في رودس، كما نسب إليها كثيرًا من الآثار التي وجدت في بلاد كثيرة حول البحر المتوسط.

ولما رجع شليمان سنة ١٨٧٨ إلى طروادة ليزيل التناقض بين مجموعتي الحقائق التي كانت لديه، ولتوضيح نقاط المقارنة بين طروادة والشمال البدائي صرفه اهتمامه الخاص بالمدينة (المحترقة)، وهي في الطبقة قبل الأخيرة التي كانت فيما يظهر تمثل طروادة هوميروس، فلم يلتفت إلى الطبقات العليا التي كانت في الواقع أشق الطبقات في تشريحها وإعادة بنائها، وهي الطريقة التي كانت متبعة في ذلك الوقت، وعلى ذلك فلك يكشف أن المدينة السادسة هي الطبقة المسينية الحقيقية إلا بعد وفاته سنة ١٨٩٣، وفي تلك الأثناء أي سنة ١٨٨٤ كان قد كشف قصرًا جميلًا من عصر ما قبل التاريخ في تيرانا Tiryns بجوار مسينا في عهد قريب من مقابر مسينا، وعندما توغل تحت أرضياته أثبت سابق السكنى في هذه المنطقة، ووجود طراز مختلف من الفن، وفخار كثير الألوان بدل الفخار المسني ذي اللون القاتم، ولكن غريته "للعهد الهوميري" منعته من انتهاك حرمة الطبقة العليا، فكان علينا أن نصبر إلى سنة ١٩٠٨حتى يكون لدينا معلومات عن بعض الآثار الخاصة بما قبل العصر المسيني في هذا المكان.

وفي هذه المرحلة استيقظ الرأي العام للاهتمام بتحقيق هذا الموضوع، ففي سنة ١٨٨٣ نشر بحث عظيم لهلبج Helbig عن علاقة العصر المسيني بالعصر الهوميري. وفي سنة ١٨٨٦ لقي دوملر Dumlar في مجموعة الجزائر الككلادية Cycladic أول الحلقات المفقودة بين حضارة طروادة ومسينا، كما لقي في قبرص مدينة أقرب شبهًا بمدينة (المدينة المحترقة) من أي شيء آخر كان يعتبر حتى هذا العهد قرينًا لها في الجنوب الشرقي من أوربا. وقد استنفد علماء الآثار في النمسا والصرب عشرين

سنة أخرى ليصلوا إلى رأي مقبول في هذا الموضوع؛ وليبينوا كيف أن كلاً من أوربا وآسيا كانت تتناوب دفع حضارتها مرة إلى هنا، ومرة إلى هناك عن طريق البوسفور، تنافس كل منهما الأخرى لتسود حضارتها. وفي نفس هذا الوقت كان فابريكيوس Fabrecius ، وملشوفر Milch-hoefer يؤكدا أهمية الحضارة المسينية لجزيرة كريت، بينما كان تسونتاس Tsuntas، وكثير من المستكشفين من إغريق وأجانب يبرهنون اعتمادًا على ما كشفوه من المواقع القديمة والمقابر أولًا: أن الحضارة المسينية كانت في العصر البرنزي الحديث سائدة في المنطقة الإيجية الجنوبية، وفي شبه جزيرة اليونان إلى جنوب تساليا، وإلى كيفاينيا Cephalenia غربًا. وثانيًا: أن من المحتمل أنها كانت واسعة المدى وثالثًا: أن هذه الحضارة أينما كان منشؤها، وأين كان تاريخها، فهي سابقة على حضارة الإغريق التاريخية، ويفصل الاثنتين إحداهما عن الأخرى تلك النكبة الهائلة التي نهبت فيها مدن، وهجرت مدن، وسرقت قصور ومقابر، ولم تقلب فيها موازين السلطة السياسية فحسب، بل تغيرت فيها المقاييس الاقتصادية تغيرًا تامًا، وأصبحت في "عصر مظلم" من الفوضى، والبربرية الهمجية.

ومسألة تحديد تاريخ هذه الحضارة قد حلت حلاً جزئيًا عندما كشف (فلندرز بتري Flinders Petrie) سنة ١٨٩٣ الفخار المسيني من الطراز الحديث في قصر ملك أمنحت الرابع في أطلال تل العمارنة، الذي نطمئن على أن نؤرخ لبنائه المدة القريبة من سنة ١٣٥٠ ق.م، كما أميط اللثام عنها بعض الشيء عند العثور على بعض الفخار "الإيجي" (وهذا الاسم هو الذي اختاره فلندرز بتري على اعتبار ما سيكون) في

أحد أطلال الأسرة الثانية عشرة في كاهون، فقد اعتبر هذا الفخار سنة ١٨٩٣م من الصناعات الكريتية. وأكثر من هذا في تحديد التاريخ، كان عندما وجد هذا النوع من الفخار في أطلال (فيلا كوبي Phylacopi) الهامة في ميلوس. وقد اعتبرت هامة لحسن ترتيب طبقاها، وهي تنسب إلى زمن يسبق الآثار المسينية، كما تسبق الأسرة الثانية عشرة الأسرة الثامنة عشر. وكان أفضل شيء في تحديد التاريخ ما رآه السير أرثرافانز في كريت من دلالات على استعمال نظام في الخط مماثل لنظام مصر فيه، وواضح أنه غير مستمد منه في أي عصر حديث، وهناك صلة بين هذا الخط، وبين الأشكال والأنماط المنقوشة على الأختام الحجرية التي أخذت عن النماذج المصرية في عهد يرجع على الأقل إلى الأسرة الخامسة المصرية.

أما موضع أصل هذه الحضارة، هل هي حضارة محلية، أو هي حضارة مقتبسة من الشرق؟ فقد بت فيه من حيث المبدأ في مدى السنوات العشر عينها استنادًا إلى اعتبارات ثلاثة، أولا: ظلت آسيا الصغرى على تعذر ابتداعها هذه الحضارة في كاريا، أو فريجيا، أو أية منطقة من مناطقها الساحلية، ظلت لا تستجيب لهذه الحضارة حتى النهاية، لا يدخلها إلا فلول اللاجئين المضعضة الذين ولوا هاربين كالآباء الحجاج قبل نزول الكارثة النهائية، وأسسوا أيونيا Ionia وهم لا يعلمون. وثانيًا: أمدتنا فيلاكوبيا في ميلوس –وقد ذكرناها من قبل– أمدتنا لأول مرة بتسجيل كامل للارتقاء من العصر الحجري إلى نهاية العصر البرنزي، وهو الذي كان من نصيب شليمان أن حصل عليه في تيرانا. وهنا كان من الممكن لأول مرة أن تدرس الحياة التاريخية الكاملة لمحة بعينها، استقر بها

الإيجيون، وأن يبت في استقلالها الأساسي عن الشرق. وثالثا: دلت حفريات قبرص الواسعة المدى على أن المدنية الإيجية انبثقت هنا فجأة، ونتيجة تدبير خاص، وفي عصر متأخر، ولو أن هذه المدنية كان أصلها على ما كان يزعم هلبج وبعض المؤرخين من فينيقية –وهي التي كان يحار فيها دائمًا علماء الآثار– إذن لوجدنا في قبرص دون سواها بواكير فروع هذه المدنية، فإنها على مرأي من الساحل الفينيقي، بينما تقع كريت ورودس –وهما المواقع الأمامية لبحر اليونان– على بعد ثمانمائة ميل منها.

وتدل الآثار الكثيرة التي وجدت في صقلية، وسرونية، وأسبانيا، ومارسيليا، وعند نهاية البحر الأدياتي على سعة المدى الذي بلغته الحضارة المسينية غربًا في العصر عينه.. ومع هذا فلم تسمح الأحوال السياسية –وهي شر سلاح يعوق تقدم المعرفة– إلا في سنة ١٩٠٠م بالحصول على أثمن كشف علمي قام به السيد (أرثر إفانز)، ويؤيده الآن زملاء له بريطانيون، وإيطاليون، وأمريكان. إن منبع هذه الحضارة وأهم موطن لها في العالم كان في جزيرة كريت، وهي حقيقة خلدتها بجدارة تسميتها (بالمينوية Minoan) نسبة إلى (مينوس Mino) ملك كريت البحري كما جاء في أساطيرها، وهذه التسمية هي التي اقترحها أكبر مكتشف لهذه الحضارة. وبهذه البحوث الكشفية أعيد بناء المسألة المسينية من جديد في درجة من الدقة والكمال لم نكن نطمع من قبل في بلوغها.

وفي الوقت الحاضر تصل إلينا دلائل جديدة كثيرة من حدود العالم المينوي Minoan من سوريا، وفلسطين، والشاطئ الغربي لآسيا الصغرى،

ومن وسط بلاد الإغريق وشمالها. والرأي السائد الآن خاصًا بشمال بلاد الإغريق: أن الحضارات المينوية حتى في أحدث عهودها لم تتجاوز الحدود الجنوبية لتساليا، وأن الذي عاق تقدمها في سهل تساليا أنه كان ذا حضارة أجنبية عنها، وفي مستوى أدنى بكثير من مستواها، وهناك ما يحمل على أن نرى فيها امتدادًا لمدنية العصر الحجري الجديد في سهوب روسيا الجنوبية، ولكن العلاقة الدقيقة ستظل غامضة ما بقيت دراسة الآثار معطلة في مقدونيا وترافيا، ومن النتائج التي وصلنا إليها من عمل متواصل لمدة أربعين سنة تقريبًا يمكننا إعادة رسم صورة للشعوب الإيجية وحضارتهم في الخطوط العريضة الآتية: ابتداءً من العصر الحجري الحديث يسكن الجزائر الإيجية فروع من "جنس البحر المتوسط"، وهو قصير القامة، ذو وجه بيضاوي ورأس يميل إلى الطول، ويدين وقدمين قصيرتين، ذو لون أسمر، وعيون قاتمة، وشعر أسود مجعد. ولو أن هذه السلالة كشفت لها صور في آثار المواقع القديمة التي على السواحل، فليس هناك ما يدل على توغلها أية مسافة في الداخل، لا في أوربا، ولا في آسيا الصغرى حتى العهود الإغريقية التاريخية. وعلى النقيض من ذلك كان وجود الأجناس "الألبية" حتى في الجزائر ومنذ أقدم العصور. على اختلاف يزيد أو يقل في سماتها مع ضخامة أجسامها (وكثيرًا ما تطول أجسامها أيضًا) واستدارة رءوسها ينبئ أن هذه السلالة التي تختلف عن تلك اختلافًا بينًا كان في قبضتهم جميع القطاعات المجاورة للمنطقة الجبلية، واستطاعوا أن يفرضوا وجودهم في الجزائر (الككلادية Cicladic)، وفي أقصى طرفي جزيرة كريت. ثم زادت نسبة هذه السلالة في الألبيين بشكل ملحوظ في النصف

الثاني من العصر البرنزي مرة ثانية في نهايته، وقد حدثت تغيرات أخرى مشابهة لها، أو أكبر منها في نفس الاتجاه، ونسبت بحق إلى أن حركات جنوبية حدثت في عصر النهضة في شعوب ألبية أخرى انتقلوا من قلب شبه جزيرة البلقان، ولعل زيادة النسبة قديمًا كان مردها إلى مثل هذه الانتقالات. ومن المهم أن نذكر هذه الدلالة على بعض الصفات الجسمانية بمناسبة ما نرى من الاتجاه العام إلى اعتبار الحضارة الإيجية وليدة خالصة للأصل الإيجي المقيم بالمنطقة.

وهناك دلالة قوية على أن الهمجية قد سادت هنا مدة طويلة في النصف الثاني من العصر الحجري الحديث، كما حدث في مصر، وسوريا، وبابل، وهذه الحضارة في المنطقة الإيجية الجنوبية وفي كريت خاصة قد سارت إلى الأمام بخطى وئيدة دون أن يتخللها أزمات إلى الوقت الذي أدخل فيه النحاس. وعاصر النحاس فن النقش على الفخار، وفي طروادة شليمان ذات الطبقات الست الواقعة بجوار الدردنيل التي لا تزال أساسًا للمقارنة. توجد فترات انقطاع متكررة، واستقرار جديد يصحبها تغيير في الأسلوب والفن، مما يدل دلالة لا يتطرق إليها الخطأ على حدوث تغيرات مفاجئة في السكان. وتوطدت في تساليا —كما ذكرنا من قبل— أسس طراز خاص من حضارة مفاجئة منسوبة للعصر الحجري الحديث، وعمت كل المنطقة المنخفضة، وبقيت بها حتى أوشك العصر البرنزي في الشاطئ على الانتهاء، ولكن هذا الظرف نفسه يجعل من المستحيل عمل موازنة بين بواكير هذه الحضارة وغيرها من الحضارات، أو الوصول إلى معرفة تاريخ قيامها.

ولكن بينما كانت تساليا بمعزل من التقدم الإيجي المستمر يمكن أن نرى الصلة بين كريت، ومنطقة الدردنيل؛ ذلك لأنه في كنوسس Cnossus تحت القصر المينوي لا تمثل أعلى طبقات العصر الحجري فيما يبدو إلا نفس مرحلة الحضارة التي تمثلها "المدينة الأولى" في طروادة، ومن الممكن مقارنة أقدم المقابر في قبرص بالمدينة الثانية، أو "المدينة المحترقة" وأول العصر اليمنوي في كريت، بينما مقابر العصر البرونزي الأول في ميلوس والطبقة السفلى في فيلاكوبي تساعد على أن تسد الفراغ الذي نشأ في كنوسس نتيجة لتمهيد مساحة كبيرة بكثير من بقايا العصر الحجري الحديث؛ لإعداد القصر اليمنوي الأول "والعصر المينوي" كما يحدده السير آرثر أفانز يشمل كل العصر البرنزي، وهو ينقسم إلى ثلاثة عصور رئيسية: القديم، والمتوسط، والحديث. وكل من هذه الأقسام الثلاثة تنقسم بدورها إلى ثلاثة أقسام فرعية، يتكون منها سلسلة ذات تسع حلقات، لكل منها ما يميزه تمييزًا كافيًا بتغير طراز الفخار وغيره من المصنوعات، كما يتضح بجلاء بمقارنة صناعات ميلوس، وثيرا، وغيرهما من الأماكن، وهذه تعطينا مجموعة نموذجية من المصنوعات، نقيس عليها ونقارن بها كل ما في المنطقة الإيجية.

وفي كثير من هذه الأقسام التسعة توجد أدوات من الصناعة الأجنبية، ومن الصناعة المصرية خاصة تحمل على اعتبار العصر المينوي القديم معاصرًا لعهد الأسرات الخمس الأولى في مصر. وفخار العصر اليمنوي الأوسط ذو الألوان الكثيرة يوجد في بقايا المدن المصرية من عهد الأسرة الثانية عشرة تمامًا، وفي كنوسس نرى في الآثار التي نعتبرها من

العصر المينوي المتوسط الثالث تمثالًا صغيرًا من الأسرة الثامنة عشرة المصرية، وكتابة منقوشة (لحيان) أحد الملوك الرعاة بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٦٠٠. أما العصر اليمنوي الحديث فمحدد بدقة أكثر، فمرحلته الأولى والثانية معاصرتان للأسرة الثامنة عشرة، ويمكن أن نحدد تاريخها من سنة ١٦٠٠ إلى سنة ١٤٠٠. كما يمكن أيضًا أن نحدد تاريخ المقابر في مسينا، ومقبرة قافيو Vaphio في لاكونيا ذات الكئوس الفاخرة المذهبة، وحادثة وقوع قصر كنوسس المفاجئة التي حدثت على وجه التحديد بين ١٤٠٠، ١٣٥٠ تعين الحد الفاصل بين العصر المينوي الحديث الثاني، والعصر المينوي الحديث الثالث الذي تنسب إليه المدينة الثالثة في فيلاكوبي، والمقابر الحديثة في مسينا وأياليسوس Ialysas، والمدينة السادسة في طروادة، والهجرة الكبيرة المينوية للاستقرار في قبرص وصقلية، وحدث بعد هذا في نفس العصر المينوي الحديث تلك المحاولة التي ربما كان من حظها النجاح وقتًا ما؛ لاحتلال تساليا كما حدث، أو اتصالها بالساحل الغربي لآسيا الصغرى.

ثم بدأ عصر جديد، فعندما انقطعت علاقة المنطقة بمصر، وفلسطين، وقبرص، وأدخل الحديد في نفس الوقت إلى مصر تدريجيًا لعمل الآلات أول الأمر، وبعدها لعمل الأسلحة، وكان يعرف "بالمعدن النفيس" في المنطقة الإيجية منذ العصر المينوي الحديث والثالث، بل منذ العهد المينوي الحديث الثاني، وأدخل نوع من الملابس من لوازمه دبابيس الأمان، ونوع جديد من الفن الزخرفي غير تقليدي به قدر يسير من الزخرفة المستمدة من أشغال السلال والزينة المحفورة، وأتباع حرق جثث الموتى،

وهو حديث في هذه المنطقة —وإن كان معروفًا منذ أجل طويل في المنطقة الشمالية المغطاة بالثلوج— في هذا التاريخ بدأ عصر جديد، عصر الحديد القديم، صاحَبه توزيع جديد في مناطق الاستقرار، ومراكز القوة، والصناعة، وقضاء يكاد يكون تامًا على الحضارة المينوية الحديثة التي كانت لا تزال يومئذ.

هذه هي الخطوط العريضة الخارجية للعصر المينوي، وينبغي لنا الآن أن نتعمق داخلها لنرى السمات البارزة في حضارته، من حيث علاقتها بالإقليم، وأسلوب الحياة الذي أثر فيها. ولقد رأينا عندما قمنا باستعراض جغرافي في الباب الثالث أن كريت وسائر الجزر الإيجية الأخرى مع الرءوس البارزة في البحر وأشباه الجزائر التي تحيط بشواطئه، هي كل ما بقي دون أن تغمره المياه من تلك المنطقة الجبلية شديدة التعقيد بين المرتفعات الألبانية وغرب آسيا الصغرى، وبينما ترتفع بعض هذه المنطقة حتى تبلغ القمم العالية فيها: كبرناسوس، وإيدا في كريت ثمانية آلاف قدم، وستة آلاف، فإن بالمنطقة المنخفضة لتنوعًا مدهشًا في المناخ وأنماط النبات في محيط ضيق محدود. وتتدرج من غابات صنوبرية في أعلاها إلى أحراش عظيمة من أشجار البلوط النفضية والقسطل، مما أزيل الآن مع الأسف الشديد إلى الأراضي التي تنمو فيها أشجار دائمة الخضرة: البلوط، والبقس والفار الكرزي، وألاس، والزيتون، والتين، والكرم، مما ينبت طبيعيًا، أو يزرع في ثنايا هذه الأراضي. ويوجد هنا وهناك سهول فيضية صغيرة أشبه بالواحات، تخفيها وتحدها جبال جانبية وعرة، وهي تروي شتاءً ريًا كافيًا بما يسقط من الأمطار الغزيرة، وفي الربيع بما يذوب من ثلوج

المرتفعات، وفي الصيف من مياه كثيرة من العيون العظيمة الانخفاض. وهذه العيون ينمو حواليها أشجار الدولب، والأثل، والدفلي [١٩]، وبها من الماء ما يكفي لري محصول من الفول، والخيار طيلة أيام القيظ الشديد. وفي هذه التربة، وفي هذا المناخ تنقسم السنة إلى ثلاثة فصول لا أربعة كما في إيطاليا، وفي الشمال، ويبدأ موسم الحصاد في السواحل في شهر مايو، ويليه مباشرة موسم الفاكهة: من العنب، والتين، ومن محصول الزيتون كل منها في دوره، ثم يلي ذلك وقت كاف للحرث والبذر قبل نزول المطر. وبعد ذلك؛ أي في "فصل الزوابع" من ديسمبر إلى فبراير تعاد قطعان الماشية من التلال، ويلزم الإنسان والحيوان جميعًا أماكنهم على مقربة من المساكن. ولكن عندما يحل شهر مارس يطول النهار، وتتفتح الأزهار، ويفك الحملان والأطفال قيدهم يطلبون رءوس التلال، وبين موسم المطر وفصل الصيف –وهو فترة وجيزة لا تتجاوز ستة أسابيع– تكسب أزهار الربيع الدنيا جمالًا، وتملأ الجو أريجًا زكيًا بما تزدهر من زهور، ونرجس، وشقائق، وورود، وقويسه، وإكليل الجبل، ولا يكون متعطلا –بعض الوقت– إلا الإنسان، فإن كان زراعيًا فهو في عراك مع جار له من أجل عنزاته، وإلا فهو مضطجع يتمتع بالظل ينفخ في مزماره. وإن كان باحثًا عن الآثار فهذا هو الوقت المناسب للحفر؛ لأن أهل القرى على استعداد ليبيعوه كل وقتهم، فإن كان من الإغريق القدماء فهو مشغول طول العام، إما بمقاضاة زملائه من المواطنين، وإما بحرب موسمية مع إحدى مدن الوادي المجاور.

---

[١٩] Oleander , Tanarisk , Plane

وعلى جانبي هذه الجنة التي أبدعتها يد البستاني أسلوبان صغيران من أساليب الحياة، ينفصلان حينًا ويتصلان حينًا عندما تربطهما الحاجة المشتركة بينهما. ففي التلال –وهي مجال يجمع بين الرعي، والتجوال، وارتياد الغابات– يوجد بان Pan، وآلهة الغاب التي يرد ذكرها في قصص الشعب الإغريقي، ولهم مهارة سحرية في فهم حيل الماشية وحيوانات الصيد، وهم أشبه شيء بما هو باد (غير حضري) منهم الخيِّر، ومنهم الشرير حسب إرادتهم (كما في قصة بك، والأقزام Puck and Little men الإنجليزية)، وهم في الحالتين فوق إدراك المزارعين، ومن السهل تهدئتهم بأيسر الوسائل. وهناك في أعلى التلال أرتميس Artemis، وربات الشعر Nymphs، ومن السهل سماع أصواتهم في الصيد على بعد إذا هدأت الرياح. وهناك تجري الماعز مسرعة إلى أسفل التل في ذعر شديد إلى حقول القمح، وهذا كل ما بقي حتى جاءتنا الأم الكبرى Great Mother بالقمح، الذي كانت هي أول من بذره. وطالبت بحقها في الخنازير التي غذتها أوراق الغابة. فنحن لسنا كالرعاة الذين يكرهون ما يتغذى من أوراق الغابات. تلك كانت الأيام التي كان الناس والخنازير على السواء يقتاتون فيها ثمر البلوط، والقسطل، وكان يعيش فيها تنين الماء Water Dragonفي المستنقعات، والأسود في الأحراش، وليس كل هذا ضربًا من الخيال. فقد كان في الفن المينوي مشاهد من الأسود الشهيرة، ولكن الأم الكبرى روضت الأفاعي كما روض ابنها الأسود. وأشجار الفاكهة هي أيضًا هبة منها، وهي صاحبة الحمائم التي تجني أول ثمار من مزارع قمحها. وفوق ذلك كله هي صاحبة السوسن، والزنبق، والأسماك

الطائرة، وقواقع الشواطئ، وكل ما في هذا الدنيا وهو عجيب وجميل ملك لها ولنا. هذه هي الخطوط العريضة للعقيدة الإيجية، وما أدخل الديانة الإغريقية منها، وقد ألفوا كما رأينا على ألفور بين ابتداع مينوي وماض بدائي غير مينوي.

وعلى بعد كبير من الأرض الخالية في الجانب المقابل من الجنة يقع البحر، وعلى متن هذا البحر ننتقل أول الأمر في فلك بسيطة طويلة ضئيلة ذات مقدم مرتفع ومؤخر مرتفع كذلك، وهي مصنوعة بحيث تجعل لكل قبيلة قاربًا ذا شكل خاص بها كقوارب النيل البدائية، وكان الانتقال بعد ذلك في سفن كبيرة ذوات مجاديف كثيرة، وسارية واحدة، وشراع مربع متسع مما استخدم أشباهه لغزو الدلتا، وقد هشمها تهشيمًا لا ينسى "رمسيس هذا الذي كان لديه الأساطيل والمشاة" كما ذكر مانيتون، ونحن هنا نصيد الأسماك ونلتقط المحار من كل نوع ولكل استعمال. كما نغطس تحت سطح الماء طلبًا لقنافذ البحر، ومقادير كبيرة من الإسفنج للتجارة. وفوق هذا نحن ننتقل إلى بلاد غير بلادنا ونرى أقوامًا آخرين، ولدينا ما معنا من الإسفنج، والسمك المخفف، والزيت، والزبيب، والنبيذ، والزيتون، والقدور، والجرار، والفخار المزين بالزهور، والزخارف المقتبسة من أوراق الأشجار، وكلها أجود مما عندهم منها. ولكن عندهم أحجار في تلالهم، ومنها يصنعون نصالًا للسكاكين مما يصنع عندنا من الصوان.. ولديهم الحجر الناصع الذي يلمع مما لا يوجد لدينا في كريت، ولو أن الحجر الذي يصنع منه القدور حجر جيد، وفن النحت عندنا أفضل منه في الجزر، فإن هبت رياح الصيف وتحرك معها تيار الماء فإن في وسعنا أن

نذهب إلى الجنوب أيضًا إلى بلاد النخيل، حيث نجد الناس يجلسون في ظلال الأشجار لا يقومون بأي عمل. وكذلك نذهب إلى الشرق إلى المستنقعات، وإلى النهر الأعظم حيث يوجد قصر الملك، وهناك نحصل على أثمان عالية؛ لأنه ليس في البلاد زيت ولا نبيذ، ولأن قصور الناس هناك أكبر من كل ما لدينا منها، وسنحدث ملكنا بكل ما رأينا، وسنأتيه بألوان من الحجر وقطع من الجوهر النفيس مما عندهم. ويطلب هو من عمالنا في قصره أن يحاكوا هذه الصناعات، مع أن أسلوبنا في الصناعة يفوق الطراز الشرقي، فَفنّهم لا يصل إلى القلب كما تصل إليه مصنوعاتنا.

هذه هي الأحوال الطبيعية التي فيها نشأت الحياة المينوية. حياة لينة معتمدة على أراض منعزلة للغلال، وزراعة متوافرة من أشجار الفاكهة يكملها ما في المرتفعات من مراع وما في البحر من نتاج، واتصال سهل ببلاد كثيرة مماثلة، أو بسواحل هذه البلاد التي تتفق معها في اقتصادياتها الطبيعية، وتكاد تختلف معها كلية في الموارد المعدنية، وفي الأسلوب الفني والصناعي، واتصال في غير هذه السهولة، ولكنه ميسور، مع وجود قدر معقول من السفن تسير في الموسم المناسب للملاحة بمركز له مكانته في الفن والرخاء مثل مصر، وفوق كل هذا منظر الطبيعة ذو الجمال النادر، والجو المشرق، والتباين العظيم بين الجبال السامقة والرءوس البارزة وما يستخرجه الغواصون من نفائس البحر من الأعشاب والمحار وزهور الشقائق البحرية، وليس من المستغرب إذن أن يصل هنا الإنسان إلى طراز فني طبيعي وخيالي في وقت واحد عندما يرقب بدقة أشكال الأحياء وعاداتها، مدركًا صفات المواد الخام وأسرارها مع ما له من المهارة العجيبة في فن

الخزف والرسم، وقاطع الجوهر وصانع الذهب، وفوق ذلك قدرته على أن يستلهم كل طراز وكل أسلوب دون أن يفقد ما للشئ الذي يحاكيه من قوة، أو القدرة على أن يؤثر بروحه القوية فيما يؤديه من أعمال الفن، ولقد نحسب في بعض الأحيان أننا في اليابان لا في كريت.

ولقد رأينا في مصر أن إحدى نتائج حضارتها الموحدة ونظامها الاقتصادي والسياسي الموحد أيضًا في وادٍ –في طوله وضيقه– كوادي النيل، كان من الضروري تأمين مواصلات إلى مسافات بعيدة، وأن هذه الحاجة قد عولجت تمشيًا مع انتشار الحضارة بتدعيم أسلوب الكتابة، وهذه المشكلة عينها عرضت لكريت، ولكن في إقليم أصغر فيه جبال تفصل كل منطقة آهلة بالسكان عن غيرها، وتجعل الاتصال الكلامي المباشر بين المدن المجاورة متعذرًا، كما يتعذر الاتصال الكلامي بين طيبة وممفيس في مصر. وقد صارت الحاجة أشد أيضًا كما في مصر كلما نجحت إحدى المدن كمدينة كنوسس أن تفرض سلطانها على سائر الجزيرة، وأكثر شدة عندما صارت كريت على اتصال بغيرها من الجزر، والسواحل، والقارات، مع وجودها في موطن الصدارة منها في كثير من الأحيان، والكتابة الكريتية التي نشأت في هذه الظروف فيها شبه بالكتابة الهيروغليفية وبسائر خطوط العالم الكبرى. وقد بدأت بصور تمثل تمثيلًا صادقًا الأشياء العادية، ولكن هذه الصور كان لها قيمة صوتية عندما رأيناها أول مرة في الأسرة الخامسة المصرية، وإنه لفي هذا العصر المبكر – بل قد يكون قبل ذلك العصر– ما يوجب علينا أن نقرر الاتصال بين

الكتابة التصويرية في كريت، والكتابة في آسيا الصغرى، ولكنه من المحتمل أن الكتابة في القارة نشأت مستقلة عنها استقلالا تامًا.

ولقد أضيف إلى الكتابة التصويرية في كريت، ثم حلت محلها آخر الأمر أشكال مكونة من الخطوط المستقيمة أنسب لسرعة الكتابة. وكانت تؤدى بحفار مدبب، ويبدو أن هذا الاختراع يعين التاريخ الذي استعمل فيه الصلصال وسيلة للكتابة. وليس من المستطاع الآن أن نقطع برأي فيما إذا كان هذا الاختراع ظهر هنا مستقلًا، أو كان مقتبسًا من بابل، ونشوء جملة أساليب في الخط ليس بمستغرب في إقليم ذي شعب كثيرة مختلفة مثل كريت، مع ما نعلمه من قبل من أن زعامة كنوسس فيها متقطعة غير متصلة، ولقد كان من الطبيعي أن يحدث مستعمرو العصر المينوي الحديث لقبرص، وربما لأسبانيا وبعض أجزار إفريقيا الشمالية تغييرًا آخر. ونتيجة ذلك واضحة؛ إذ تتحول الكتابة إلى نظام الاشتقاق المقطعي الذي ظل مستعملا في قبرص إلى العهد الإغريقي، وفي أسبانيا إلى عهد الرومان، وفي خطوط المواصلات التجارية التي تخترق شمال إفريقيا إلى الوقت الحاضر. ولكن الذي ظل غامضًا هو كيفية الانتقال التي تم اختيار أبجدية الحروف الصحيحة، من مجموعة أكبر من العلامات الدالة على المقاطع سجلت بها اللغة السامية في المدن الفينيقية، وفي أجزاء أخرى تبدأ من الشاطئ السوري إلى موآب على حدود الصحراء، ولكن أكثر المسائل كلها غموضًا.

تبديل نظام الكتابة المقطعي القديم في موطنه الإيجي بعد العصر المينوي بمجوعات أخرى من الأبجدية شديدة الشبه بعضها ببعض، ومن المحتمل أنها مأخوذة من النظام الفينيقي، ولكنها مزودة بعلامات لحروف العلة كما هي مزودة بالحروف الصحيحة حتى تتفق وخصائص قواعد اللغة الإغريقية في الجزائر، وفي أيونيا، واللغة البامفيلية، والليكية، والكارية في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى.

ولم تقرأ الكتابة إلى لآن. ولكن من الوثائق التي عثر عليها السير أرثر أفانز بمقادير وافرة في سجلات البلاط في كنوسس، والتي عثر عليها غيره من المستكشفين بمقادير أقل في فيستوس [٢٠]، وأجيا تريادا [٢١] يمكن أن يعرف شيء عن الحكومة المينوية والإدارة فيها. وأكثر اللوحات هي قوائم للذخائر، والخزائن، وإيصالات بعربات، وأسلحة، وأوان معدنية، وسبائك من النحاس شبيهة بما وجد في أجياترياد، ووجدت وحدها في قبرص، وساردينيا، ومقادير قليلة من الذهب غير المصنوع مذكورة بوزنها، وقد يكون هؤلاء قد جئ بهم رقيقًا على سبيل الجزية كما ورد في الأساطير الإغريقية عن المينوتور Minotaur. ومن الواضح أن علينا أن نتناول بالتفصيل إدارة كبيرة دقيقة أكبر كثيرًا مما تبرره كنوسس، والضآلة النسبية لعدد من البلاد الكريتية الأخرى في أثناء عصر القصر الأكبر (العصر الحديث الثاني) والقضاء على بعضها قضاء موقتًا. وبقايا جهاز هندسي راق من الطرق والحصون في أعالي ممرات الجبال: كل هذا يؤيد الرأي الذي

[٢٠] Phaestos
[٢١] Agia Tiradha

يقول بأن الإغريق الحديثين كانوا في الجملة على صواب فيما رأوا أن مينوس (ملك كنوسس) هو الملك الذي حكم البحار، وأرهب البلاد في استبداد وقسوة وعدالة لا رحمة فيها ولا لين.

وفن عمارة القصور فيه دلالة على الرخاء العظيم الذي أساسه وفرة في الزيوت وغيرها من الأموال، يضاف إلى ذلك المهارة في العلوم التطبيقية سواء أكانت مائية، أم ميكانيكية، أم صحية مما لا نظير له في العصر الحديث. وفي القصور ردهة متوسطة ينفذ الداخل إليها من بوابة بديعة الصنع، وتتصل بحجرات متسعة مفتوحة الأبواب ذوات أروقة ومداخل، وبه حُجر فاخرة أخرى أكثر عزلة تتصل بشرفات وأرصفة مسورة على طول المنحدر. وفي ثنايا هذه الملحقات الرئيسية ووراءها دهاليز ملتوية توصل إلى المخازن وسؤر حجر الجلوس. وبالقصر درج يوصل إلى الطبقات العليا، وهذه تتكون من طابقين، أو من ثلاثة في بعض الأحيان. ورغبة في طيب الإقامة كان الاهتمام موجهًا إلى هندسة القصر الداخلية، وتزيين الحجرات بالنقوش والألواح أكثر منه بالشكل الخارجي للقصر. ولم يكن من مظاهر الجمال في واجهة البناء إلا قواعد بعض الجدران المشيدة بأسلوب مبتكر تواجه الدهاليز الكثيرة، وكان في البناء ما يدل على كثرة التجديد والإضافات التي توحي بأنه قرية مزدحمة لا مسكن منفرد. وكانت مساكن الأفراد الخاصة مبنية من الأخشاب والأحجار ذوات واجهات مطلية، وكانت نوافذها كثيرة وسقوفها مستوية، وكانت متلاصقة قائمة في أزقة ضيقة ملتوية على أرض غير مستوية أشبه بالدرج منها بالطرق المألوفة، ولابد أن الأثر الذي كانت تبعثه في النفس المدينة

المينوية مماثل لما تبعثه فيها القرية الكريتية في المواقد المتنقلة للتدفئة، وهو ما جعل المهندسين المعماريين في حل من الاهتمام بعمل مداخن لتصريف الدخان، وشجعهم على القيام بتجارب جريئة في الهندسة المعمارية وفي الإضاءة. أما في بلاد الإغريق ذاتها حيث البرد أشد والمطر أغزر فإن الحاجة إلى مواقد ثابتة في وسط حجرة الجلوس الرئيسية دعت إلى تغييرات أساسية في البناء، فكان من اللازم تعميم عمل فتحات في السقف، ومن المحتمل أن فتحات التهوية كانت مغطاة لتمنع دخول المطر، هذا وكلما زاد استعمال هذه الردهة زادت أهميتها، حتى إنها لم تكن تتحكم في تخطيط المبنى فحسب، بل فرضت سقفها كأهم منظر في واجهة البناء، وكان من الصفات المميزة لتغير العلاقة بين مركز العالم المينوي ومحيطه بعد سقوط كنوسس: أن طراز بناء القصور "في الجزء الرئيسي من الدولة" هو الطراز الذي يكاد يتفق وما جاء في شعر هوميروس خاصًا بالقصور الأخية. أما المقابر فقد تغير طرازها جملة مرات في العهد المينوي، ولقد استنتج من التغيير أننا أمام أكثر من مجموعة من السكان، ومن المحتمل أن العقائد كان يدين بها ويؤدي شعائرها شعوب من أصول مختلفة، والعادات الجنائزية كلها في المنطقة الإيجية تتفق في أن الموتى يدفنون ولا يحرقون، وأن يقدم لهم الكثير مما هم في حاجة إليه في الحياة الآخرة، كان الترف في قبور الأغنياء في العهد الحديث، بل وفي بعض القبور القديمة أشبهب الرتف في القبور المصرية، وكانت أقدم المقابر مدافن مصغرة من الحجر كما في مصر قبل عصر الأسرات، ومعظم بلاد البحر المتوسط، ومعظم بلاد الغرب التي كان لإنسان البحر المتوسط بها اتصال. وكان نظام الدفن الثاني متبعًا في بعض

الجهات في القصور القديمة، كما كان متبعًا في مصر؛ إذ كانت الجثة تدفن دفنًا موقوتًا حتى يتلف نسيجها، ثم تنتقل العظام إلى دار الموتى العامة، كما يحدث في فناء الكنيسة الإغريقية في الوقت الحاضر، ثم استعملت الأسر ذوات المكانة بعد ذلك صناديق للموتى في حجر أخذت تتسع وتتسع، وكانت تبنى تحت الأرض، أو في جانب الجبل، وكان يعلوها (فوق الأرض) قباب، وكانت التوابيت غالبًا من الصلصال جيدة النقش، أو رمزية بالمناظر الجنائزية كما في أجياترياد. —وفي أحدث العهود صارت هذه الحجرات— على مدى ضيق بسقوفها المستوية هي النظام المتبع، وحلت محل المقابر الحجرية، ولكن المقابر الملكية في سينا كانت لا تزال تحتفظ بشكل المدفن الحجري البدائي في نظام فخم مع حفظ الجثة ممدودة على طولها كما كان متبعًا في دفن الموتى في القبور الحجرية. وقد عدل المستعمرون المينويون عادة استخدام كهوف الدفن في قبرص، وصقلية، وسردينيا بعض الشيء، وقد كانوا متعودين نظام "خلية النحل" في دفن موتاهم في وطنهم القديم.

والملابس والأسلحة في العصر المينوي وهي بعض المبتدعات تستحق الذكر —على الأقل— للتباين بينها وبين مثيلاتها الإيجية في العصر الإغريقي، وقد كان ملبس الرجال في غاية البساطة، جدائل طويلة من الشعر دون غطاء للرأس، وحذاء طويل ذو رقبة (كما في كريت الحديثة) للسير في أرض الحشائش، وإزار بسيط أو مزركش يمسكه حزام ذو مقبض. وكان الشيوخ والموظفون يلبسون عباءات واسعة، وجلابيب مبطنة دون أكمام مدلاة من الأكتاف، ويلبس النساء جلابيب جيدة التفصيل جميلة

التطريز، ويلبسن سترة من الطراز الأول طويلة من أمام منتفخة الأكمام لها بنقية طويلة، أو حافة مرتفعة وراء الرقبة. وكانت ملابسهن مشدودة الأزرار، أو ذوات أحزمة مما يستعملها الرجال، وخصلات لشعرهن وقبعات تظللهن ذوات شرائط، وزهور كانت تستكمل بها ملابس النساء حتى لتبدو أقرب شبهًا بملابس الريفيات السويسريات، أو "الألبيات".
وعدة الحرب عندهم بسيطة، فللهجوم حربة وسيف طويل أشبه بالخنجر له صفحتان مستقيمتان مجوفتان، وعلى الرأس خوذة مصنوعة من الجلد تدعمها صفائح من المعدن، أو صفوف من أنياب الخنازير، ولزيادة الوقاية يلبس الحذاء الطويل ودرع مرنة من الجلد مستطيلة، أو بيضاوية، ولها إطار معدني، ولكن ليس لها مقبض ولا وسط سميك، وكانت الدرع تشد إلى الكتف اليسرى بشريط، ويفقدها ثقل وزنها شكلها، ويجعلها على هيئة عجيبة كرقم 8 الإفرنجية، وعلى كل حال كانت تلف من يلبسها لفًا تامًا من كعبيه إلى ذقنه، وكان من الممكن أن تنثني حتى تحيط به من كل جانب.
وكان الحصان يستخدم عندهم، وقد جلب من وراء البحار، ويبدو أنه كان يساق ولا يركب، وكانت العربات الخفيفة تستعمل للصيد وللحرب جميعًا.
ولكن الإيجي كان في الغالب في حالة سلم في العصر المينوي، وهذا تناقض مثير مع كثرة ما لقي معبر العلبنت (مرمرة)، وهو ما كشفت عنه "المدن" المتوالية في طروادة، وعلى عكس ذلك الجنوب، ومن المتعذر أن تجد أثرًا لعدو إيجي –لا في كريت ولا في الجزائر– إلى سقوط كنوسس، ولا تزال هذه الكارثة غامضة، ولا يعرف إن كان سببها شيئًا آخر غير الخلاف

الداخلي، كأن شقت أطراف البلاد عصا الطاعة على المركز الرئيسي للدولة وقضى على طغيانه وهو ما زعمه البعض حديثًا.

وقد تواترت الرواية الكريتية حديثًا بأن أحد أمراء كنوسس ذهب على رأس غزوة إلى صقلية مستصحبًا كل رجاله ولم يعد منها بأي حال. عند هذه المرحلة من القصة تسعفنا السجلات المصرية بالمعونة، حيث نجد المحفوظات الكريتية لا تبين، فهم على علم بتغيير في اسم "قوم من وراء البحار"، وتغيير في سلوكهم، وفيها ما يكشف عن انحطاط الحضارة الكريتية وانهيارها، وهو ما سنجعل تحقيقه موضوع بحثنا التالي.

الفصل التاسع

قدوم أهل الشام

عندما كنا نشهد مسرح البلاد والبحار الذي كان معدًا لتمثيل مسرحية التاريخ، أتيحت لنا الفرصة لملاحظة وجود متسع عظيم من أرض الحشائش، تمتد من جبال الكربات وحوض نهر الطونة الأدنى إلى التلال الدنيا التي تشرف عليها جبال التاي وتيان شان في وسط آسيا، وتدور حول شواطئ البحر الأسود وبحر الخزر، وتتسع جنوبًاإلى القوقاز وإلى حدود إيران الشمالية الشديدة الانحدار. وتتحول هذه الحشائش فجأة في الشمال إلى غابات من البلوط والزان في خط يكاد أن يكون مستقيمًا من شمال رومانيا إلى الطرف الجنوبي من جبال سيبيريا، حيث ينثني خط الأشجار جنوبًا بإزاء منحدرات جبال التاي، وجنوبي هذه المنطقة طريق مطروق للأهالي الرحل خلال منابع نهر ارتش إلى الحدود الغربية من منغوليا، وقد كانت من قبل منطقة حشائش كذلك رغمًا من ارتفاع سطحها كثيرًا، وقد عمها الجفاف أكثر من ذي قبل.

ويلاحظ أن المنطقة التي تحيط بها جبال الكربات (وهي سهل المجر) أرض للحشائش في الغالب، وأن هذا السهل المفتوح يمتد سائرًا مع نهر الطونة إلى ما بعد فينا بقليل، ويكشف عن وجود ممرات سهلة إلى أعالي نهر الألب، وتوجد أرض للحشائش الآن محليًا في شبه جزيرة البلقان،

وعلى الأخص في بلغاريا، وتراقيا، ومقدونيا، وستظهر أهمية هذه المناطق الداخلية التي تنمو الحشائش فيما نعالجه بعد ذلك.

وفي إيران كذلك تنمو الحشائش في محيط متسع من الهضبة المرتفعة، ولو أن في وسط الهضبة صحراء ملحة، وحدودها الشمالية رغم أنها جبلية، فإن من السهل اجتيازها، وعلى هذا فلأهالي أرض الحشائش اتصال مباشر بالسهول الداخلية في جبال ميديا، وإيران التي تطل جوانبها الغربية الشديدة الانحدار على الإقليم الذي يقيم به الساميون. وأخيرًا – ولو أنه يبدو عند النظرة الأولى غير محتمل– تدلنا معلوماتنا عن الطرق الداخلية التي كان يسلكها رحالة المغول في القرون الوسطى: أن مراعي قلب آسيا الصغرى رغم ما تبدو، نائية على المصور الجغرافي، ورغم امتداد جبال أرارات وجبال طوروس التي تحمي حدودها، هي في الواقع مفتوحة كالمجر وإيران ويسهل فيها على الدخلاء القادمين من تركستان وما بعدها أن يصلوا إليها. ولقد رأينا تاريخًا مماثلا لهذا في الحافة المعشوشبة لشبه الجزيرة العربية، وما كان فيها من ذبذبات في المناخ، وتدفق متوالٍ من الرجال بحثًا وراء الكفاف من العيش. وليس علينا إلا أن نضيف نقطتين أخريين قبل أن نتتبع مجرى الحوادث في المنطقة الشمالية، فالنقطة الأولى هي الانتقال من الأعشاب إلى الغابات، ولو أنه انتقال مفاجئ في بعض الأنحاء ، فما كانت المفاجأة في أي مكان لتحول دون الانتقال من إحدى المنطقتين إلى الأخرى، وفي كثير من المراكز نرى التغير من العشب إلى الغابات تدريجيًا، بحيث يغري الرُّحل إغراء شديدًا بالانتقال إلى المنطقة الوفيرة المرعى، الذي ينمو في الظلال الصيفية لأشجار الغابة. ونظرًا إلى

عدم وجود فروق في مستوى الأرض كلما اتجهنا شمالا، ونظرنا إلى أن الفرق في درجة الحرارة لا يكاد يكون محسوسًا، فمن الواضح أن هذه الظروف مناسبة بدرجة لا مثيل لها لانتقال الرعاة إلى أسلوب مختلف في الحياة، يحدوهم أمل جديد في الصيد في جانب، وفي الحياة الزراعية في جانب آخر. وهذا التطور في أسلوب الحياة موضع دراسة في أحوال حديثة مشابهة بين البشكير على منحدرات جبال أورال، وفي بلاد القوزاق المستقرة شمال القوقاز، وآثارها واضحة كما سترى في البناء الاجتماعي لكل الشعوب التاريخية التي في غابات الأراضي المنخفضة في أشباه الجزائر الأوربية.

والنقطة الثانية هي أن علينا أن نذكر أنه بينما لا يحمل الأثقال في بلاد العرب من الحيوانات المتوطنة إلا الحمار، وأنه لو لم يكن لديهم من الماشية في العصور القديمة إلا الغنم والماعز حيث لا يوجد إلا في "هذا الجانب من الأردن" تلك الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا، مما ينتجه النحل، والبقر الذي يجد الغذاء الكافي في مثل هذه الزراعة الوفيرة، إلا أنه في الشمال وبخاصة على حافة الغابة قد استؤنست الثيران، والخيول البرية، وكلاهما معروف بأنه من الحيوانات المتوطنة هناك –استؤنست منذ أزمان موغلة في القدم–. وأما مدى هذا القدم وفي أي زمن تاريخي فذلك ما نحن قادمون على دراسته من حفريات بمبلي Pumpelli في أناو Annau بتركستان، وتحديد التاريخ الدقيق أقل أهمية؛ لأنه لا شعب من الشعوب الرحالة ممن نتبع تاريخهم في هذا الجانب من المنطقة الجبلية بدا لعين المؤرخ إلا وهو مزود بالماشية ذوات القرون والخيول. وفي مناطق السهوب ذوات

الحشائش أدخل الحصان –لا شك– للركوب من أول الأمر. ولكن وجود الأخشاب على مقربة من الغابات مكن من عمل "زحافة" لا أكثر، توثق إلى الحصان لنقل البضائع: كزحافات اللابيين التي تجرها الرنة، أو زحافات الإسكيمو والهنود الحمر التي تجرها الكلاب، ثم مكن بعد ذلك من عمل عربات حقيقية تجري على أسطوانات، أو عجلات غير مفرغة تُقطع من جذوع الأشجار، ويظهر أن عملية الجر هذه قضت نهائيًا على الكوب في الغرب على مرور الأيام.

ولا يخفى بمجرد النظرة الأولى أن امتلاك حيوان كهذا في سرعته، وهدوئه، واستقلاله، قد أتى بتغيير كبير في وسائل الحياة عند الرحل سكان الشمال. وينبغي ألا ننسى أن الأفراس ذات ألبان دسمة ووفيرة ، وأن لحم المهاري لذيذ كلحم العجول الصغيرة. والحصان وهو في ذكاء كلب الحراسة مزود بما يحميه من الغرباء بما له من أقدام صلبة، بل من الممكن تدريبه على استعمالها في الحرب، وما من شك في أن الإيرانيين كانت لديهم هذه الخيول المحاربة إلى القرن السادس قبل الميلاد. هذا ومع أن الحصان يتناول غذاءه في تؤدة فمن طبعه أن يأكل في أثناء الليل ولا يضيع من وقت صاحبه إلا القليل. وفرس التتار تستطيع بلا مغالاة أن تسابق الشمس في مسيرها، وعلى ذلك فرغمًا من أن الاستبس أعظم اتساعًا، ورغما من أنها على شكل حدوة الحصان من إيران إلى تركستان. ومن هذه إلى جبال الكربات فإن أبعادها مضافة إلى سهولة الانتقال فيها نسبيًا من الأبعاد في جزيرة العرب، ولنا على ذلك أن نتوقع فيها نفس تعدد الهجرة من النقط الشاسعة البعد الواقعة على محيطها.

ولقد رأينا كيف كانت جزيرة العرب مهدًا –لا لطراز بعينه من الناس فحسب– بل لمجموعة من اللغات كذلك، وإنه بينما احتفظت السلالات المتتالية التي قذفت بها إلى الخارج في مواطنها الجديدة بخصائص اللغة التي تعودوها في مستودعهم الصحراوي، فإن لغة المتخلفين كانت في تطور كذلك. وهذا التطور على بطئه كان كافيًا لأن يترك في لسان القائمين بالهجرة التالية من الاختلاف في اللهجة، كالذي بين العبرية مثلا والآرامية، أو بين الآرامية والعربية، وفي هذه الحالة قد نستطيع أن نَعرف معدل السرعة التي يتم فيها التغير في أساليب اللغة؛ لمعرفتنا على وجه التقريب مواعيد ثلاثة على الأقل من الهجرات السامية. ولا يخفى أن مسألة تحديد العلاقة بينها كانت تصبح أكثر مشقة لو أننا كنا نجهل تاريخ الهجرة، أو مصر المهاجرين، ولم نعتمد إلا على ألفاظ اللغة وأساليب الكلام، وعلى التوزيع الجغرافي للأقاليم التي كانت تستكمل فيها هذه الألفاظ وتلك الأساليب، في الوقت الذي دخلت فيه هذه الأقاليم في سجل التاريخ. ذلك نظرًا إلى أن النحو وألفاظ اللغة قابلة للتغير السريع من أثر الاتصال باللغات الأخرى ووسائل الحياة الجديدة، وكل هجرة تفسد، أو تقلل ما للهجرة السابقة عليها من توزيع في السكان، أو انتشار في اللغة، وهذه أيضًا هي المسألة التي يثيرها أمام أعيننا توزيع اللغات الهندو أوربية، والمجال الجغرافي لهذه اللغات من الجزر البريطانية إلى شمال الهند، ومن جنوب إيران إلى النرويج محدود تحديدًا كافيًا، يوحي أن مجموعة هذه اللغات كلها في علاقتها بأرض الحشائش الشمالية أشبه بعلاقة اللغات السامية بالنسبة لجزيرة العرب، هذا ولو أن اللغات الهندو أوروبية تختلف كل منها عن

الأُخرى اختلافًا أكبر مما بين أكثر اللغات السامية اختلافًا وسائر المجموعة السامية، فإن لها جميعًا أسلوبًا مميزًا خاصًا في تراكيبها النحوية، كما أن هناك مجموعة ضئيلة من الكلمات مشتركة فيها جميعًا: وهي أسماء الأعداد، ودرجات القرابة، وأعضاء الجسم، وبعض الحيوانات والنباتات، وغير ذلك من الأشياء والأفعال. ويذهب الرأي السائد –رغم وجود تفاصيل تدعو إلى عدم الأخذ به– إلى أنه يمكن أن نكتشف بهذه الكلمات البدائية شيئًا من الأحوال المعيشية في الأقاليم التي كانت تستعمل اللغة التي هي أصل مشترك لهذه اللغات، ومتى رأينا أنه أصبح من المسلم به بصفة عامة:

١– أن الحيوانات الأليفة في وطن "الهندو أوربية" تشمل الحصان، والبقرة، والخنزير، كما تشمل الخروف، والعنزة، والكلب، وأن البقرة كانت أكثر الحيوانات مكانة.

٢–وأن هذه الجماعات ولو أنهم كانوا يحترفون الرعي بصفة رئيسية، إلا أنهم لم يكونوا من الرحل، بل كانت لهم ديار وشيء من الزراعة، وأنهم استعملوا المحراث والعربة، وكان لديهم عدد ضخم من أسماء الأشجار ودراية بأبسط ضروب التجارب.

٣– وأن النظام الاجتماعي لديهم كان نظامًا أبويًا (Patriarchal)، وأن الأسر الأبوية كانت تعيش في جماعات تؤلف بينها روابط غير وثيقة، يحكمها رؤساء منتجون. إذن فأغلب الظن أننا لا نعدو الصواب كثيرًا إذا قلنا أن أول الناطقين بهذه اللغة كانوا يقيمون في جزء، أو لعلهم كانوا

يقيمون في أجزاء متجاورة في المروج التي تتاخم الاستبس، وأنهم انتشروا انتشارًا بطيئًا في مدى طويل، وقد كان يعجله من حين إلى حين الجفاف، أو الهجرة التي يسببها الجفاف، وبعضهم نزحوا في أشد العهود رطوبة نحو الاستبس عديمة الشجر، ثم نسوا الكلمات الدالة في لغتهم الأصلية على التشجير والزراعة، أو خلطوا بينها وبين غيرها من الكلمات، وبعضهم نزح في المواسم الرطبة إلى الغابات، فنسوا كذلك ألفاظهم المعبرة عن أعمالهم الخاصة بالرعي، هذا وكثير من الجدل الذي دار حديثًا حول الحقائق التفصيلية البسيطة، كان من الممكن الخلاص منه لو أن الدارسين لهذه اللغات عرفوا أن الأحوال الجغرافية لجميع أرض الاستبس عرضة لهذه التغييرات المتتالية، وأن الأثر المباشر لهذه التغييرات إما تبديل في أسلوب حياة سكانها حتى تتلاءم والبيئة الجديدة، وإما حملهم على النزوح إلى مناطق يعيشون فيها كما عاش فيها أسلافهم من قبل.

ومن المهم أن نذكر أنه ما دامت الفروق بين اللغات الهندو أوربية أشد وضوحًا منها بين اللغات السامية، فنحن محقون في أن نفترض أحد أمرين: إما مرور أزمان أطول أحدثت هذه التفرقة، وإما حدوث تغييرات أشد فاعلية وأكثر تنوعًا في البيئة ووسائل الحياة، ويجب أن نذكر على الأخص أنه بينما جميع اللغات السامية القديمة تقع مباشرة على تخوم الصحراء العربية على هيئة شبة دائرة قطرها سبعمائة ميل، فإن المسافة من جبال الكربات إلى أورنبرج لا تقل عن ألف وخمسمائة ميل عند الطرف الجنوبي لجبال أورال، وتبلغ ألف ميل أخرى من هذه النقطة إلى مرتفعات البرز Elburz، أو تيان شان.

وينبغي أن نذكر أخيرًا أنه -ولو أن الاستبس هي فعلا مساحة كبيرة متصلة ، والأنهار التي بها مهما كانت كبيرة كنهر الفلجا- لا تشكل فيها أية عقبة تحول دون هجرات الرحل في العصر التاريخي، فإنه يوجد مع ذلك نطاق من الغابات يغطي وادي الفلجا الأدنى حتى يكاد أن يصل إلى حافة المنطقة الصحراوية عند بحر الخزر بجوار أسترخان، فيقسم منطقة الاستبس كلها إلى مستودعين كبيرين شبه منفصلين، أو شبه متصلين، يصل بينهما ممر ضيق. فلا عجب إن كان اللسان الهندو أوربي منقسمًا أولا إلى مجموعتين رئيسيتين: شرقية، وغربية، وقد أخذت المجموعة الشرقية منهما تنتشر اللغات السلافية غربي نهر الفلجا في العصر التاريخي تقريبًا.

ولقد كنا حتى الآن لا نعني إلا بنتائج هامة جدًا مبنية على دراسات لغوية وجغرافية قام بها جيلان من العلماء، مع إغفال كل ما هو مثار للخلاف، أو أصبح غير ذي موضوع. كما أغفلنا كذلك ما قد يكون ذا قيمة -في مداده البعيد- في تحديد هذا الموقف، أو إكماله، وعلينا الآن أن نتجه إلى أولى الحالات التي ظهرت فيها الشعوب التي تتكلم اللغات الهندو أوربية في العصور التاريخية في أطراف الدنيا القديمة.

ونحن لا نعلم بطبيعة الحال شيئًا من اللغات الدارجة هذه إلا في عصر متأخر، عندما تعلمت هذه الشعوب الكتابة، ولكن معظم أسماء الناس والآلهة أوصاف لا أسماء، كما أن أسماء الآلهة تبقى طويلًا، وعلى هذا فقد تقتنع أن لغة بعض الناس، أو بعض الأسر هندو أوربية، ولو أنه لا دليل لدينا على ذلك إلا أسماء كهذه وجدت لدى الأعداء في سجلات

الحرب، أو معاهدات الصلح التي عقدت معهم. فمثلا توجد الأسماء (الميدية الإيرانية Medo-Persian) تيسبس Teispes، وهستاسبس Hystaspes في السجلات البابلية، والآشورية الخاصة بحروبهم في الأقاليم الجبلية قبل أن نسمع أي شيء معين عن الميديين، وعن الإيرانيين بوقت طويل في هذه الأقاليم. وكذلك وردت أسماء لقديسين مثل: (إندرا Indra)، (وفارونا Varuna) بين أسماء الآلهة في كتابات بالخط المسماري وجدت في بوغازكوي، تثبت أن هذه الآلهة كان يدين بها شعب له اتصال سياسي فعال بالدولة الحيتية العظيمة.

وأقدم ذكر لمثل هذه الأسماء الهندو أوروبية كان في مراسلات تل العمارنة التي تعطينا صورة في غاية الوضوح للشئون السورية في المدة التي تلي سنة ١٤٠٠ مباشرة. فهي أسماء تدل على رؤساء منتشرين في شمال سوريا، وفلسطين، وجنوبها، ومنها اسم تشراطا Tushraatta ملك ميتاني فيما يلي نهر الفرات، ويظن البعض أن لغة الميتاني نفسها التي لا يزال بعض كلماتها باقيًا هي من اللغات الهندو أوربية.

ولكن هذه مسألة ثانوية، إذ لا شيء أكثر حدوثًا في تاريخ الشعوب الرحالة من أن تحكم فئة ممتازة قليلة العدد من الغزاة النشطين فئات كبيرة من السكان الأصليين، ويدبرون أمورهم دون أن يتعلموا لغة الرعايا الذين يحكمونهم، أو دون فرض لغتهم عليهم إلا بعد مرور زمن طويل، بل قد لا يفعلون ذلك أبدًا: إن أسماء الأمراء النورماندين Norman مثلاً أسماء تيوتونية Teutonic، مثل: روبرت Robert، ووليام William، وهنري

Henry، ولكن اللغة الفرنسية النورماندية هي التي استعملوها في حكم نورماندیا، وفي المراسلات التي بينهم وبين ملك فرنسا. إن كل هذه الأسماء الهندو أوربية تنتمي إلى مجموعة اللغات الإيرانية التي عرفنا أخيرًا أنها كانت واسعة الانتشار في الهضبة الإيرانية جميعها.

والوثائق الحيتية التي تحمل أسماء قديسين التي أشرنا إليها فيما سبق تنتمي إلى عصر أحدث، والإقليم الذي تشير إليه الوثيقة لم يوصف فيها بوضوح ولكنه كان بلا شك في مكان ما في آسيا الصغرى، ويرى البعض أن لغة أروازه Arwaza، وهي الإقليم الذي يقع حول بوغار كوي وشماليها فيها سمات اللغة الهندو أوربية، والأسماء في هذه الإقليم أيضًا ليست تنتمي إلى لغة الشعب؛ إذ فيها قوة ودلالة على أصل رؤسائه. وفي عصر أحدث كذلك وجد سجل بابلي به أول اسم إيراني من المرتفعات الإيرانية جنوبي عيلام.

ولا خفاء في أنه في المدة السابقة على الأسرة الثامنة عشرة المصرية قام جماعة من المتكلمين باللغة الهندو أوربية بغزوة كبيرة، مارين بالهضبة الإيرانية، ووصلوا إلى الأراضي الساحلية، وإلى قلب آسيا الصغرى، ولكن الذي يجب أن نستخلصه أيضًا: أنه قبل هذا التاريخ بوقت غير بعيد قام بعض الرؤساء بغزو مماثل، ولكن لم يكتب لهم البقاء طويلاً. وهم إما أن يكونوا من القوة بحيث يفرضون لغتهم على رعيتهم (وهو ما عجز عنه في أغلب الأحيان)، وإما أن يكونوا من الضعف بحيث يندمجون، أو يقهرون (طال الزمن عليهم أو قصر)، ثم تختفي أسماؤهم كذلك.

وقد كان من الأهمية بمكان –لذلك– أن نجد أنه في أثناء العصر الذي كان سابقًا على نهضة الأسرة الثامنة عشرة، في ذلك العهد الذي كانت فيه مصر في سبات عميق تحت حكم الملوك الرعاة الغامضين، والذي كانت فيه بابل تحت حكم الغزاة الكاشيين الذين لا يقلون عنهم غموضًا، فإن العالم المتمدين أصبح له معرفة بنعمة من أعظم نعم المدنية، تلك هي الخيول المستأنسة.

ومن العجب أن الاسم المكتوب الذي أطلق عليه في بابل كان يعني "حمار الشرق"، وفي هذا إشارة موفقة إلى المنطقة التي جاء منها ذلك المخلوق، وليس عجيبًا –على كل حال– أن التعرف على هذا العون العظيم على سرعة الانتقال، قد انتقل هو أيضًا بسرعة عظيمة، ولكن من السهل تعليل انتشاره العالمي في جميع المنطقة ما بين مصر وبلاد الحيتيين، إذا جاز لنا أن نفترض أنه جلب من الأماكن البعيدة لا للتجارة، ولكن كوسيلة من وسائل الغزو عند الشعوب الرحل. وهذه هي الحقيقة بذاتها، وكل من الفرضين يكمل الآخر، ولعلنا نكون على حق أيضًا إذا أضفنا أن عهد الجفاف في جزيرة العرب الذي دفع "الكنعانيين" إلى الهجرة قد عاصره ما يقابله في الاستبس الشمالية، فدَفع هؤلاء الخيالة إلى الهجرة أيضًا، فإنه لمحتمل جدًا في مثل هذه الظروف أن أي تغيير في المناخ يبلغ من قوته أن يؤثر في جزيرة العرب هذا التأثير الشديد لا يمكن أن يكون عديم الأثر في مساحة أوسع، وعلى كل حال فإن معلوماتنا في الوقت الحاضر عن سعة مناطق الجفاف تلك ومواعيد هاتين الهجرتين يشوبها من الغموض ما لا يجعلها صالحة إلا لتكون أساسًا مؤقتًا لتحقيق أدق في المستقبل. وفي

الظاهرة الجيولوجية التي نراها في الطبقات الغائرة عند (أناو Annau) برهان على أن الجفاف والرطوبة يحدثان في هذا الإقليم أيضًا في نظام دوري، وقد لا يمضي وقت طويل حتى تضاف هذه الحقائق الجديدة على ما لدينا من معلومات. وإلى هنا نقتفي آثار الهجرة الهندو أوربية عن طريق تركستان والهضبة الإيرانية، ولكن التوسع الأكثر توغلا في الشرق، والذي قامت به شعوب تربطهم وشائج القربى الدانية حتى دخلوا الهند، فهو الذي يحدد فجر التاريخ هناك، ولكنه خارج عن نطاق هذا الكتاب. ولكن يكفي أن نقرر على سبيل الاستطراد أن هذه الهجرة الآرية وقعت على ما تواضع عليه المؤرخون اعتمادًا على دلالة مستقلة كل الاستقلال سنة ١٦٠٠ ق.م، وبناء على ذلك فهذه الهجرة واحدة من مجموعة الهجرات التي تنتمي إليها هجرة الإيرانيين إلى إيران، ونجد فيها تأييدًا هامًا للتاريخ الذي نحدده لها.

وعلينا الآن أن نولي وجهنا شطر المغرب. لقد سبق القول بوجود تشابه عجيب بين صناعات العصر الحجري في كل من سوسة، وتركستان، وبعض أنحاء روسيا الجنوبية، وأرض الحشائش الصغيرة في تساليا. ولقد ظهر جليًا أن هذه الحضارة مستوردة مكتملة في كل من سوسة وتساليا (لم تنشأ، ولم تتطور فيهما)، ثم أمحت تاريخيًا في وطنها الجديد. وفي (أناو Annau) جاءت قبل عهد عمَّه الجفاف والخراب. وعلى هذا فهناك ما يحمل على الاعتقاد أن التشابه نتيجة للمطابقة التامة، وأن السبب في أن هذه الحضارة قد بقيت في تساليا، ولم يكد يبقى لها ظل في المنطقة الأدنى منها رخاء عند نهر الطونة، أن ناقلي هذه الحضارة كانوا قومًا من الرعاة الذين

هضمهم وطنهم الجديد، أو قضى عليهم فيه عندما حاولوا سكنى الجبال. ولكنهم استطاعوا أن ينشروا وسائل حياتهم عندما استمسكوا بها، ووجدوا الأرض الطيبة التي كانت لهم من قبل، وعندما يكشف ما في مقدونيا، وترافيا من آثار –وهما من البلاد التي بها بعض المرعى– نستطيع أن نقرر قيمة هذا الرأي... ويلاحظ بجانب هذا من الطبقات المتتالية في طروادة، ومن التغيرات المتتالية في المنطقة التي تجاور بحر مرمرة Hellespont، أن القنطرة الأرضية بين أوربا وآسيا كانت مسرحًا لقدوم أقوام ونزوح آخرين في العصر البرنزي القديم، كما كانت مسرحًا لاضطرابات متكررة بين سكانها. وفي نهاية العصر الحجري الحديث (في نفس المرحلة تقريبًا التي استقرت فيها الأمور في تساليا للمرة الثانية مع استثناء الفن الخاص بها) أخذت تنتشر في آسيا الصغرى حضارة وصلت إلى أوجها في الصرب. ولكن هذه الحضارة لم تستطع البقاء بعد ذلك أمام تيارات قوية مضادة لحضارة جنوبية شرقية قريبة الشبه بحضارة سوريا وقبرص في العصر المعدني القديم. وليس من المحتم أن انتشار الحضارة بهذه الصورة يستلزم حدوث هجرة أحد الشعوب، ما لم يكن هناك دلالات أخرى على ذلك، كأن تشير إليه الإقامة والاستقرار، وعلى كل فهو يدل على أن الإقليم الذي انتشرت فيه الحضارة استقر فيه الأمر وساد فيه السلام. ولنا بناء على هذا أن نتخيل أن العصر المعدني القديم في آسيا الصغرى هو عهد السلام الطويل –الذي وجدت فيه مصر وبابل السوميرية– لم يكدره (على مقربة من بحر مرمرة) إلا أزمات سببتها ثورات كالتي جاءت إلى العرش بأجداد سرجون ملك أكاد.

وفي هذه الفترة التي سادها السلام ازدهرت أيضًا الحضارة المينوية Minoan دون أن يعوقها أي عائق، حتى بلغت أوجها في كريت، وقد بدأ ظهورها كما رأينا من قبل في الوقت الذي ظهرت فيه الحضارة في مصر. وقد بلغت مرحلتها المينوية المتوسطة في عهد الأسرة الثانية عشرة المصرية، وقد أخذت في التدهور بسبب المنازعات والمطامع الداخلية في المرحلة المينوية الحديثة، التي تعاصر الدولة الحديثة المصرية وفتوحاتها السورية. وفي الوقت الذي دمر فيه القصر في كنوسس Cnosus؛ أي حوالي سنة ١٤٠٠ وقف ركب الحضارة، وانتقل مركز النفوذ من كريت إلى بلاد الإغريق ذاتها إلى إجوليس Agolis في سينا، ولاكونيا Laconia، وليس من الميسور إذا ما اعتمدنا على المصادر الإيجية Aegean أن نقطع إن كان الذين دمروا قصر كنوسس هم بعض الآخيين من غير أهلها، أو هم دخلاء قادمون من خارج البلاد، ولكن السجلات المصرية المعاصرة التي ورد فيها ذكر لزيارات قام بها شعوب ذو حضارة مينوية تدل على أسماء جديدة، وصفات جديدة، أخذت تظهر في ذلك الوقت في مهد هذه الحضارة، وقد كان الزائرون المينيون معروفين زهاء قرن من الزمان في البلاط المصري، وقد كان المصريون يدعونهم كيفتيو Kiftiu حتى عهد أمنحتب الثالث، وكانوا يقدمون مصر زائرين وتجار، وعلى رءوسهم تلك الجدائل من الشعر التي كانت إحدى مميزاتهم، كما كانوا يلبسون جلابيبهم ذوات الألوان الزاهية، كما كانوا يجلبون معهم أنماطًا من مصنوعاتهم الفنية من الذهب والفضة، ولكن قدوم الكيفتيو (Kiftiu) انقطع منذ تربع امنحتب الثالث على عرش مصر، وحل محلهم الشاردانا Shardana، والدانونا

Danauna (وما أقرب هذا الاسم إلى دانوي Danaoi في شعر هوميروس) وهؤلاء هم رجال حرب سواء كانوا مخاصمين، أم مأجورين كالقوط (Goth) في هيباثيا Hyptia في قصة (Kingsley كنجزلي). وبعض هؤلاء أُلحقوا بالجيش المصري، وعهد إليهم أن يمنعوا أبناء جلدتهم من دخول البلاد. وإذا ما اعتمدنا على رواية مانيتون (Manetho) أحد المؤرخين العلماء الوطنيين، فإن أحد هؤلاء الحراس أنفسهم جعل نفسه ملكًا بعض الوقت إبان الفوضى التي كانت سائدة في البلاد عقب وفاة إخناتون حوالي سنة ١٣٦٥، ولم تنقطع (شاردانا Shardana) عن شن الغارات: ظلت تقوم بغارات متوالية بين الفينة والفينة إلى سنة ١٢٠٠.

ولم يكونوا منفردين بالإغارة بعد سنة ١٣٠٠، بل أسهم فيها معهم عدد من الشعوب الأخرى أخذ في الزيادة، فضلاً عن أن غاراتهم كانت أوسع مدى وأبلغ ضررًا، وأكبر اعتداءين وقعا في عامي ١٢٣٠، و ١٢٠٠، وكان الاعتداء الأول في عصر (مرنفتاح Merneptah)، وكان يصحبه غزو من طريق الساحل قام به الليبيون على غرب الدلتا، ولم ينفرد الليبون والشاردانا بالغزو، بل قام بالغزو كذلك (الإخيفاشا Akhaivasha)، والشاكلشا Shakalsha ، والتورشا Tursha ، واسم الأول من هؤلاء أصبح منطبقًا في العصر الحاضر على الآخيين Acheans، وأواخر هذه الأسماء تشبه النهاية التي في آخر كنوسس Cnossus، وسجالاسوس Siglassus، وبعض أسماء بلاد أخرى إيجية،

والاسمان الآخران –وهما لا يزالان موضع تحقيق وبحث– قد زاد الاعتقاد الآن بأنهما مشتقان من أصل إيجي.

وليس من شك أن هناك اتجاهًا قويًا إلى اعتبار التورشا Tursha هم التورسيني Turseni الذين استوطن بعضهم أترورريا Etruria، وأن الشاكلشا والشاردانا أطلقوا أسماءهم على أوطانهم الحديثة، كذلك في صقلية وردينيا. وقد مر بنا ذكر تلك الرواية الكريتية عن غارة بحرية مدمرة على صقلية، وهذه الغارة البحرية المصرية كانت محاولة مماثلة للنزول في الدلتا، وكان أمام مرنبتاح مجهود شاق ليحول دون وقوعها. ووقع اعتداء ثان في السنة الثامنة من حكم رمسيس الثالث، اشترك في القائم به قوة برية وقوة بحرية، وكان مصدرها هذه المرة الجانب السوري، وكان من بين المعتدين الدانيونا Danauna، والشاكلشا، وقد اعتدو على مصر من قبل، وشاركهم (التكراي Tikkarai) ، وقبائل أخرى حديثة بعضهم فيما يبدو من الإيجيين، وبعضهم من شمال سوريا ومن آسيا الصغرى، وكان منهم قوة من الحيتيين. ولعل الباعث هذه المرة أكثر وضوحًا منه في المرة السابقة.

فإن القوة البرية قدمت، تصحبهم، وأسرهم، ومتاعهم على مركبات كبيرة ذوات عجل. والقوة البحرية في سفن شراعية كبيرة وفي أعلى صواريها علامة الحرب، وكانت أسطح السفن ملأى بأبطال في عدة طيبة من الأسلحة على حد تعبير أعدائهم الشجعان. فمن الواضح إذن أنهم قدموا للاستقرار، ومع أن ملك مصر حال دون دخولهم على أثر معركة

حامية وقعت في جنوب سوريا، ومعركة أخرى بحرية، فقد كان عليه أن يتصرف في أمر من لم يقتل من المحاربين، وفي أمر من لم يشترك في القتال كذلك. وكان يقيم بالسهول الساحلية في فلسطين خليط من الوطنيين والأجانب، فإمداد هؤلاء بالفئة الحديثة القادمة يجعل من هؤلاء الأهالي المحبين للحروب المدينين بالولاء لمصر حائلا دون أي اعتداء على مصر مستقبلا. وهذه هي عين السياسة التي جعلت مصر تتخذ من الشاردانا حراسًا لها من قرن من الزمان. وكان اسم أشهر هؤلاء النزلاء البولشتا Pulishta، ولا يبعد أن يكون هذا اللفظ من الأصل اللغوي للاسم الغامض البلاسجين Pelasgi: وهو اسم نقله الكتاب الإغريق من شعب قديم من القراصنة في المنطقة الإيجية. ولا ريب أنه اسم ينطبق على اسم الفلسطينيين، وعلى لفظ فلسطين، الي أن انتقل من الساحل حتى أطلق على سورية الجنوبية كلها. وليس هؤلاء وحدهم هم الشعب الوحيد الذي استوطن فلسطين؛ إذ بعد حوالي قرن ونصف قرن نزل عدد من القراصنة الذين احترفوا القرصنة فعلا وكان أسمهم تكاراي Tikkarai في هذا الساحل، وكانوا مصدرًا لإثارة الفزع الشديد بين المسافرين. وقد تكون المحلة التتيوكرية Teucrian التي كانت في قبرص، والتي صارت فيما بعد إحدى المدن الإغريقية الكبرى، قد تكون بعض مؤسساتهم، وقد يكونون هم الذين سمين باسمهم زاكرو Zacro الحديثة: وهي ميناء صالحة في شرقي كريت، وكانت من قبل مدينة قديمة في الجانب المقابل لمصر وفلسطين. وطبيعة هذه الغارة البحرية المزدوجة التي وقعت سنة ١٢٠٠ تلقي ضوءًا على معنى هذا كله. ولقد كان من العسير أن نعلل ما طرأ على زائري مصر

عن طريق البحر من تغيير مفاجئ في الأسماء، والأوصاف من الكفيتو الأصدقاء إلى شعوب من البرسركر Berserker: كالشاردانا، والفلسطينيين، وكان من العسير كذلك أن نشرح سبب هذه العلاقة الوثيقة بين المغربيين من جزائر بحر إيجة، وبين مغيرين بريين قادمين من سوريا، ولكن يفسر ذلك أمران:

الأول: أن الحيتيين الذي كانوا سنة ١٢١٧ قوة على قدم المساواة مع مصر لم يزيدوا الآن على أنهم مجموعة من القبائل المتحدة. والأمر الثاني: وقد أشرنا إليه في مكانه أن الحيتيين كان لهم في غزوتهم السورية الكبرى سنة ١٢٨٦، حلفاء ذو أسماء من بحر مرمرة Hellspont: داردانوي Dardanui، وماسا Masa، وهم ينتمون إلى نفس شعوب تراقيا، وفريجيا Traco-Frigian كشعب التيكاريا Tikkarai، وغيرهم من قراصنة البحر. وإن هؤلاء المغيرين من البر بما لديهم من عربات ذات عجل ليمثلون التدفق العام الذي قام به الأهالي من الطرف الغربي لمنطقة الاستبس Steppes، فقد كانوا شديدي الوطأة على منطقة الطونة وعلى البلقان، واحتلوا تراقيا Thrace، والمنطقة التي سميت مقدونيا فيما بعد، ثم عبروا مرمرة وغزوا الهضبة على نحو ما ذكره هوميروس عن الفريجيين في كلمته المعبرة، حتى وصولوا إلى شاطئ نهر زيجاريا، ثم أعادوا إنشاء طروادة، وأعادوا بناء جدرانها مستعينين بأيد خارجية، جدران "المدينة السادسة"، وكان ذلك على وجه التقريب حسب الرواية الإغريقية في المدة المعاصرة لحك خيتاسار Khetasar عدو رمسيس الثاني وحليفه. وفي تلك الأثناء كان في المنطقة الإيجية صخب عام، وليس لدينا أي سجل مكتوب

لحوادث هذه الفترة، وليس في وسعنا أن نؤلف بين ما نسمع من الرواية الإغريقية، وقد ذكرت هذه ثلاثة أحداث هامة في تعاقب سريع، أولها: قدوم (الآخيين Acheans) المردة ذوي البشرة البيضاء، مروضي الخيل، والمشتغلين بالرعي، وكانت أهم مراكزهم السياسية في ميسينا Mycenae، وفي لاكونيا، حيث كان الملوك الآخيون من أصل "فرنجي" على بعض ما تحمله هذه الكلمة من معنى. وأما فتوحاتهم التي شملت معظم بلاد الإغريق، وكريت، والطرف الجنوبي من الحافة الجزائرية من آسيا الصغرى، فقد استقرت فيها الأمور على نحو ما قبل سنة ١٢٥٠، ولكن لم يزل فيها مناطق (ساخطة) بعد سنة ١١٨٠، وهكذا أرسل مينيلوس Menelaus من إسبارطة كلمة يقول فيها أنه يستطيع أن ينهب مدينة، أو نحوًا من هذا لو أن تليماك عثر على أبيه وجاء به من اتاكا Ithaca الجبلية، فكأنما نسمع دعوة روجر صاحب صقلية لروبرت صاحب نورمانديا إلى رحلة الجنوب، يأخذ نصيبه من اللهو والمرح. وعلى هذا فالآخيون معاصرون للغارات البحرية على مصر، وللاحتلال الذي قام به الفريجيون لآسيا الصغرى.

والحدث الثاني هو (حرب طروادة) الذي حدده الإغريق تحديدًا دقيقًا ما بين سنة ١١٩٤، ١١٨٤، ففي أثناء غياب منيلاوس Menelaus ملك إسبارطة في رحلة بحرية حوالي الوقت الذي وقعت فيه الغارة البحرية سنة ١٢٠٠ في أمر من المحتمل أنه متصل بهذه الظروف، اختطف باريس Paris أحد الأمراء الفريجيين زوجته الملكة وهرب بها. ولما كانت هيلين الجميلة Helen هي الوريثة التي حكم هذا المغامر الآخر

Achean اعتمادًا على حقها (وهذه صورة باهرة لحالة النساء الاجتماعية عند الآخيين القدماء) فقد أصبح لباريس حق في عرش إسبارطة كحق إدوارد الثالث في عرش فرنسا. ولا مفر إذن من عمل يُعمل، لقد قذف بكل القوات الآخية على طروادة، وبعد حرب دامت عشر سنوات دمرت المدينة الفريجية واستردت السيدة، ولكن النصر كان ثمنه الجهد والألم، لقد غضب الآلهة العظام على الفريقين جميعًا، ولقد كان في الدنيا رجال أكثر مما ينبغي. وقد تفرق الآخيون والفريجيون على متن البحار، بعضهم وصل إلى غرب صقلية، وإلى مصب نهر التيبر، وأقاصي البحر الأدرياتي، وبعضهم كمنيلاوس نفسه وصلوا إلى مصر. وكانت القصور في وطنهم ملأى بالسخط والحديث الذي لا طائل تحته عن (الجندي القديم)، وكل من كان في وسعهم نظم القريض من الشعراء غنوا أغنيات الحروب والرحلات. إنها نفس صورة المغيرين المجتهدين، وقد جرّوا ثبات الخيبة أمام أسطول رمسيس الثالث.

والحدث الثاني كان الغزو الدوري (Dorian) بعد حرب طروادة بجيلين، فهو إذن قبل سنة ١١٠٠ بقليل. والإغريق لم يكن لديهم فكرة واضحة عمن يكن هؤلاء الدوريون، لقد كانوا على أحد الوجوه (إحدى بطون مقدونية)، ونشئوا في بندس Pindus المحور الألبي Alpine لشبه الجزيرة الإغريقية، ولم تكن لديهم كفاية في استخدام الخيل كالآخيين، ولكنهم كانوا يحاربون مشاة في نظام تام.

واستنادًا إلى ما روي من تاريخهم وإلى نظامهم في تسمية الأعلام والأشياء، نرى أنهم خليط من الناس، بعضهم من سكان المرتفعات ممن تغلب عليهم السحنة الألبانية ذوي أسماء من الشمال الغربي، وكان فيهم كذلك سلالات من الهيراقليدين Heraclids أسلاف الآخيين من الجنوب، وقد يكون هؤلاء من المينويين المنزوعة أموالهم. ومما لا شك فيه أن رعاياهم في جنوب بلاد الإغريق ظلوا بمعزل عن الدوريين كما ظل الدوريون بمعزل عنهم، وقد جثم على شبه الجزيرة كابوس مزعج من المنازعات القبلية الجنسية عدة قرون. وقد تغلبت شعوب أخرى قادمة من الشمال عن طريق الساحل الشرقي على معظم الشمال، وجعلت منها حلفًا مفككًا أطلق عليه (حلف الجيران) من تساليا إلى حدود أتيكا، ولم تنج من هذه العاصفة إلا أتيكا، فقد غزاها القوم ولكنها لم تقهر. وكان ذلك على ما قبل بفضل ما قام به تيسيوس Tissius من إصلاح في نظام الحكم بها حوالي الوقت الذي حدث فيه (قدوم الآخيين Acheans)، أما الجزائر فكانت حالتها أحسن، ولو أن كريت، ورودس، وغيرهما من الأماكن في الجنوب كانت معتبرة آخر الأمر تحت حكم الدوريين، وغير خافٍ أنه كان أمام الهاربين من بلاد الإغريق طريقان للهرب عن طريق البحر: أحدهما شرقي والأخر غربي. وليس مدى استخدامهم للطريق الغربي واضحًا، ولكن الظاهر أنهم لم يغفلوه إغفالا تامًا، ولا شك أن بعض المغيرين الذين ركبوا البحر ساروا في هذا الاتجاه. وعلى كلٍ فالذين ساروا نحو الشرق استفادوا مما أحدثته غارات الفريجيين من التخريب في النصف الغربي من المملكة الحيتية، فاستوطنوا الشاطئ الغربي على مدى واسع،

ووجدوا فيه ثراء وسعة أكثر مما خلفوا وراءهم من الأرض ذات الرءوس والخلجان. على أن هذه المنطقة كانت متفقة مع تلك بوجه عام في تكوينها، وترتيبها، ومناخها، وفي هذه المنطقة قامت على مر الزمن بلاد الإغريق اليونانية (Ionian)، وقد امتدت شمالا وجنوبا بنشأة المدن في أيوليس Aeolis، ومرمرة، وعلى الشاطئ الكاري Carian.

هذه هي الحقائق البارزة التي وردت على ألسن الرواة، وهي تتفق في مجراها العام مع ما لدينا من أسانيد. لا شك أن العصر المينوي انتهى فجأة وبقوة قاهرة، ولا شك كذلك في أنه كان لا يزال حيًا وإن كان في حالة ضعف إبان الغارة البحرية الثانية، والرسوم التي على الجدران التي تمت في عهد رمسيس الثالث قاطعة في ذلك، وكانت دروع هؤلاء المغيرين عن طريق البحر جديدة، وكانت ملكًا خاصًا لهم، وهو ما ينبغي أن نتوقعه من قوم منتصرين قريبي العهد بوصولهم. درع مستديرة سابغة، وخوذة محكمة ذات قرون ووقاية للوجه أحيانًا، ودرع عجيبة للجسم لها أحزمة متقاطعة سهلة التثني كما يتثنى سرطان البحر.

وليس لدينا معلومات من مصر بعد رمسيس الثالث، ولكن الأدلة واضحة من المقابر والمعابد القديمة في المنطقة الإيجية، ولقد استبدل بالزخارف المستوحاة من الطبيعة كما رأينا من قبل (زخرفة هندسية جامدة). وحلت البربرية نسبيًا محل الرخاء، وحل محل الملابس المينوية دثار بسيط تجمع الدبابيس أطرافه، ومن المحتمل أن هذا ابتكار المنطقة الجبلية الوعرة المتاخمة للبحر الأدرياتي؛ وذلك لأنه ظهر في إيطاليا في هذا الوقت

نفسه. وأخذ الحديد يحل محل البرنز تدريجيًا، وأقدم الأسلحة الحديدية كانت مصنوعة على نمط الأسلحة البرنزية التي استعملت على قلة في إيطاليا وبكثرة في حوض نهر الطونة، ولعل أكثر الأشياء توضيحًا للأمور أن يستبدل بعادة الفن القديمة جدًا حرق الموتى على مدى واسع، وقد كانت هذه هي العادة المتبعة في وسط أوربا من زمان سحيق، وإن تغييرًا كبيرًا كهذا في شئون الموتى لأمر يمكن الاطمئنان إلى اعتباره أساسًا لتقدير الثورة في الفكر والسلوك جميعًا.

ولكن كل هذا لن يبلغنا ما نريد، فما لم نقرأ الكتابات المينوية فلن نتحقق في أي عهد ولا بأية وسيلة استقدمت اللغة الهندو أوربية، وأسماء الأعلام، والآلهة، والنظم التي أصلها من الشمال. ومن المستبعد أنها جاءت بعد قدوم الآخيين حوالي سنة ١٢٥٠. ولكن هل كان الآخيون هم أول من جاء بها، أم هل هم الدانونا Danauna، والشردانا Shardana الذين قدموا سنة ١٣٥٠، أم هل كان يتكلم كفيتو العصر المينوي المتأخر Late Minoan Kiftue بلغة من ذلك الطراز؟. وكذلك ما نستدل به من الآثار التي نعثر عليها في الحفريات –ما لم تؤيدها السجلات المكتوبة– لا تبين لنا العصور، ولا أجزاءها بدقة نستطيع بها أن نفرق بين القبور الآخية التي تشبه نصال السيوف، وبين القبور الدورية.

أما قبرص: فقد استعمرت حديثًا، ولكن على مدى واسع في وقت سقوط كنوسس Cnosus تقريبًا (لا من كريت كما يبدو)، ولكن من مراكز أخرى منافسة لها في المنطقة الإيجية، وكان موقعها على مرأى من فينيقية

وآسيا الصغرى، وعلى سفر يوم واحد بحرًا من مصر وفلسطين هيأ لها فرصًا عظيمة للثراء. وقد استغلت هذه الفرص إلى أبعد الحدود. وسلاميس التي أسسها التيوكريون Teucrianعلى الساحل الشرقي فيها أغنى مقابر العصر المينوي الحديث التي وجدت إطلاقًا، ولكن مقاومة الغارات البحرية جعلتها في عزلة. وكانت تصدر النحاس، والأخشاب منذ قرون كثيرة، وقد حصلت الآن على حديد، واستطاعت أن تحيله إلى مصنوعات باستخدام خامات ووقود محليين، ومن المحتمل أنها أخذت هذا الفن عن دمشق، ولكن طراز أسلحتها هو طراز المنطقة الإيجية، ومنطقة الأدرياتي. ولم يكن في فنها الزخرفي القوة التي في الفن المينوي، وهي لم تدرك منزلة هذا الفن إدراكًا كاملًا دون أن تقتبس (الهندسة) الجميلة التي في الطراز الإيجي القريب. وإنه لمن الممكن أن نرقب في قبرص أيضًا إلى حد ما آثار النكبة المينوية، والدولة الحديثة في إيجة، وفي البلاد التي على ساحل فينيقية، على أن هذه البلاد تنتظر الفرصة المناسبة للكشف عن آثارها. وفي العصر المينوي الحديث كانت تستورد أشغال الفن الجميلة من الكفتيو Kiftiu، ولكن لا يوجد دليل على أنها كانت تصنعها، أو كانت تطلبها. وفي أشعار هوميروس التي تذكر أيضًا الغارات البحرية نجد أن راكبي البحر من الغربيين زاروا فينقية، وصيدا أكثر مما زار التجار (الفينيقيون) الغرب، ولا شك أنه كان هناك تجار فينيقيون، ولكن لم يكن لهم علاقة صريحة بصيدا. كانت (ملأى بالبرنز)، وكانت تصنع المصوغات الفضية والمجوهرات التي كان لها قيمة كبيرة في القصور الآخية Achelan، ولقد أخذت التجارة الواسعة التي كانت لفينيقية في العصور التاريخية تنمو مع ضعف البحرية

المينوية، وحتى في قبرص خيمت الفاقة على الجزيرة مدة طويلة ما بين آخر اتصال لها بالمينويين، وأول استيراد للبضائع الشرقية.

هذا والمراحل التي حل فيها النظام مكان الفوضى في المنطقة الإيجية، وأعيدت العلاقة بالحضارة الشرقية عن طريق البحر إلى صيدا وصور، وعن طريق الطرق الحيتية البرية القديمة من أيونيا Ionia إلى الفرات تستحق بحثًا أوسع مما يتفق وحجم هذا الكتاب. فضلًا عن أن النتائج التي تترتب عليها لا تنتمي إلى فجر التاريخ، ولكن إلى التاريخ السافر (تاريخ الإغريق القدماء).

ولكن حقيقة واحدة يجب أن نذكرها قبل أن نجاوز هذا المجال، لقد ظهر –في وضوح تام– أن الإغريق نتاج عوامل مزج شديدة، فإن مدينة عريقة مزدهرة في بيئة جميلة في العالم الإيجي صاحبة تأثير فيه قد تواضعت فغلبت –للمرة غير الأخيرة– شعبًا أقل حضارة قدم ليحظى بنعيمها. هؤلاء الفاتحون أفسدوا أول الأمر أكثر مما تمتعوا بأي نعيم، وكما فعل الدخلاء الساميون في بابل وسوريا. جاء هؤلاء الناس وهم من الرحال الشماليين، وطريقتهم في التفكير هندو أوربية بصفات، وتقاليد، ونظم مكنتهم من أن يتخذوا موقفًا جديدًا من الطبيعة الإيجية؛ ذلك لأنهم كانوا أصلا مستقلين عنها، وكانت بلاد الإغريق ثمرة ذلك، وإنه لموقف من مواقف التاريخ الدرامية أنه عندما بلغت لحظة النفوذ إلى الداخل وهي التي بدأت كما اعتدنا أن نقول (من مكان ما في آسيا)، نستطيع أن نحدد موقعه في ثقة بأنه في الاستبس Steppes الشمالية –وحافتها المشجرة–

عندما بلغت تلك اللحظة غاية مداها في الاتساع الإقليمي قسمت العالم الشرقي كله من الأدرياتي إلى بحر الخزر، والخليج الفارسي [٢٢] إلى معسكرين كبيرين سميا بالشرقي والغربي، ولكن المعسكرين على كلا الجانبين يملك زمامهما وينظم أمورهما إخوة وأقربون ضل بعضهم طريق بعض من أمد بعيد. هم في الغرب الذين قدموا من الشمال، وصبغوا العالم الإيجي بالصبغة الإغريقية بعد صبغته المينوية، ولو أن الآخرين قدموا من الشرق فهم كذلك نفس أصحاب العيون الزرقاء الصافية، والفرسان مروضو الخيول، هم الرفقاء الإيرانيون لملك الملوك، وهم الموظفون الأكفاء عند الملك دارا الذي (يحصي النقود)، هم الذين بفضلهم ظلت الإمبراطورية قائمة مدة قرنين من الزمان بعد أن فقدت رأسها المفكر. هؤلاء هم الذين رآهم أعظم الهيليين Hellens (الإسكندر)، وهو بحكم مولده أحد مروضي الخيول، رآهم أهلا لأن يقتسموا مع رفقائهم من مقدونيا حكم العالم. إنهم هم الذين عبّر هيرودوت عن شعارهم الدال على فروسيتهم – وهو أعلم بهم– بهذه الكلمة اللماحة الدالة على بعد النظر الإغريقي، بأن شعارهم (الركوب، والرمي، وقول الحق).

[٢٢] العربي.

الفصل العاشر

فجر التاريخ في إيطاليا

يقتضي الانتقال من فجر التاريخ في منطقة بحر إيجة إلى المنطقة المقابلة لها في غرب البحر المتوسط، أن نهبط ثانية بضع مئات من السنين على سلم الزمان، ولنأخذ مثلا بسيطًا. ولم يكن التاريخ بناء روما فيما روى الرواة سابقًا على سنة **٧٥٣** قبل الميلاد، ولم يستقر المقام بالسابليين Sabellian آخر من استوطن شبة الجزيرة الإيطالية من المرتفعات المتوسطة إلا بعد سنة **٤٠٠**، ولكن في سنة **٧٥٣** كانت أسبرطة Sparta –وهي أهم معسكر دوري Dorian في بلاد اليونان– كانت قد نظمت شئونها، وكانت مشغولة بفتوحات جديدة. وفي مدى جيل بعد ذلك كانت سوق التجارة رائجة بين كورنث Corinth، وخالكس Chalcis، وبين صقلية. وقد أسست أسبرطة تارنتم Tarentum سنة **٧٠٠**، وربما كانت كومي Cumae في كامبانيا Campania أقد من روما نفسها. ولكي يرسم المؤرخ بلوتارك Platarch صورة مماثلة لصورة روميولسRomulus مؤسس روما على رواة التاريخ الذي تشوبه الخرافات كان عليه أن يرجع إلى تيسيوس Theseus الأثيني الذي هيأت ثورته ضد الطغيان المينوي الفرصة للاتحاد الفيدرالي. وعلى هذا فالولايات المتحدة اللاتينية –وهي مما قد يدخل في العصر التاريخي والتي قد نؤرخ لها سنة **١٣٥٠** على ما يراه بلوتارك– أقدم من روما بخمسمائة سنة كاملة.

ولقد ترك لنا مؤرخو إيطاليا القدامى –وهم خبيرون بالأساليب الإغريقية في الأنساب الرمزية– لمحات شاعرية لعهد طويل من عهود ما قبل التاريخ، يخلف فيه شعب بربري شعبًا آخر، ويجلي اللاحق السابق إلى الجنوب في أغلب الأحيان، حتى وإن (الصقلييت Sicels) مثلا جلوا عن روما وباسمهم سميت جزيرة صقلية.

كما ترك لنا هؤلاء المؤرخون لمحات عن حالات كشفية قام بها الإيجيون واستقرارهم في الغرب. فإينياس Aeneas من طروادة ما كاد يؤسس قرطاجنة، وليبيبيوم Liby baum شمال الأدرياني. واستوطن الترهينيون Tyrhenians من تساليا المنطقة الواقعة عند مصب ألبو، واستوطن قوم آخرون من ليديا الجانب الآخر عند مصب التيبر، وكان للأبطال الآخيين العائدين من حرب طروادة ذكر على كل لسان في كامانيا Campania، وماجناجريسيا Magna Grecia. ولقد رأينا شبيهًا بهذه الغارات البحرية في الفصل التاسع، ولكن من الواضح أنهم لم يتوغلوا في غاراتهم، وإننا لم نكتشف فجر التاريخ في إيطاليا ذاتها بعد عمل متواصل دام أربعين سنة، كان أكبر نصيب فيه لعلماء الآثار الإيطاليين.

وفي الملامح الطبيعية العامة لإيطاليا تباين كبير عن بلاد الإغريق. ومن شبه الجزيرة الإيطالية، وصقلية، وتونس الإفريقية يتكون منها نظام التوائي جبلي هلالي الشكل، وهو ما لحظناه من قبل، ولكن مواد هذا الهلال أقل صلابة، وتركيبها أقل التواء وانحدارًا، وسطحها في مجموعه أقل ارتفاعًا. وجوانب جبالها تغطيها سهول لينة حديثة كونتها حمولة الأمطار،

أو أصداف البحار، ولو أن الجزء الغربي من البحر المتوسط –في امتداده العرضي– يقع إلى الشمال أكثر من الجزء الشرقي. وإنه بامتداده الطولي أقرب إلى هواء المحيط الأطلسي؛ لهذا تستعيض إيطاليا عن هذا إلى حد كبير باتجاها صوب الجنوب الشرقي، وتزداد هذه الظاهرة وضوحًا في صقلية، فكلاهما يحدده البحر من جانبين، وهذا قد أثر في تاريخها تأثرًا قويًا، ويفصلها عن إفريقيا سطح هابط ضحل تحت مستوى الماء، يسمح بأن تظهر فوق هذا المستوى رءوس تلال مثل مالطة، ولاميديوسا، ويسمح لكاتيدرائية سالسبوري، أو إحدى ناطحات السحاب بأمريكا أن تظهر فوق مستوى الماء في أية نقطة مما يغمره الماء، ومع هذا فهما منعزلتان. وهناك ما يفصلهما ثانيًا عند مضيق مسينا، وهذه السلسلة الإيطالية من المرتفعات –على ما نرى– لم تكن على طولها حائلا لا يمكن اجتيازه، ومع ذلك فلم تبلغ هذه من الطول ما يجعلها معبرًا للدخول إلى إفريقيا في العصر التاريخي –وربما كانت معبرًا للإنسان في أحد الأيام– وإنما كانت معبرًا لدخول سيل الحياة الأوربية إلى صميم قلب عالم البحر المتوسط.

وتاريخ إيطاليا هو تاريخ من غزاها من الشعوب، لقد كان علينا في الشرق القديم أن نلم بمن دخلوا فيه من الخارج، ولكن دورهم فيه كان دور التخمير أو التنبيه، ولكن الجموع البشرية التي أثرت فيها هذه المؤثرات، والتي اختطت أسلوبها في الحياة كانت أصلية غير دخيلة في أسسها. وفي المنطقة الإيجية قدم الغزاة في زمان متأخر فوجدوا حضارة أصيلة ناضجة قد جمدت واستقرت عند قدومهم، فقضوا عليها أو عطلوها على أحسن تقدير، أو أحلوا محلها حضارة غيرها، كما كانت الحضارة المصرية قد

تجمدت كذلك في عهد الأسرات بعد الأسرة الرابعة. وهؤلاء الغزاة جاءوا بلغتهم ونظامهم الاجتماعي، وقدر كبير من عقائدهم، لكنهم تقبلوا الحضارة ووسائل الحياة التي كانت أصيلة في البلاد، ونشئوا (أمة إغريقية) من شعب مختلط النسب عظيم، كان همه أن ينقي هذه النعم الوفيرة المتباينة، وأن يوجد التناسق بينها. وفي إيطاليا بقيت حضارة إنسان البحر المتوسط من أدنى مراتبها إلى أعلى مراتبها التي تصل إلى مستوى الحضارة المصرية –بقيت في عزلة ولم تتلق ما يدفعها إلى التغيير– وفي عزلتها هذه، ومع وجود المرتفعات التي تغطيها الغابات تشعبت الحضارة إلى ضروب حضارية محلية، وتأثرت بشيء من الغرب –الأقل حضارة– التي تطل على مياهه. وكان تأثرها أكثر من الإيجيين، وكان العصر المينوي الحديث هو العصر الذي ينسب إليه معظم التأثير لها كله، وامتدت مستعمرات المينويين من قدم إيطاليا إلى الطرف الجنوبي الشرقي من صقلية، وامتد نشاطهم العملي إلى مجال أبعد حتى بلغ سردينيا، وجنوب أسبانيا، ومصب نهر الرون، ونهاية البحر الأدرياتي شمالا. وبلغ حوض الطونة الأوسط عن طريق ممرات جبال الألب.

ولكن النظرة الإجمالية تدلنا على أن إيطاليا وصقلية خرجتا من العهد المنوي، ولم تبلغ أحوالها الاقتصادية، ولا الصناعية، ولا السياسية المكانة التي بدأت بها المنطقة الإيجية حياتها النجيدة، ومن السهل الوقوف على أسباب هذا التأخر، فإيطاليا يسقط عليها مطر وافر (وأكثر من هذا) موزع على معظم السنة، حتى إنه يسمح بنمو غابة كثيفة من الأشجار النفضية من الزان والبلوط، ومن القسطل خاصة، كما تسمح بنمو

مساحات كثيرة من الحشائش الصيفية على منحدراتها المرتفعة. ولو أن أنهارها قليلة الماء، فقلما تجف هذه الأنهار، وأوديتها تنحدر في سهولة ويسر من منابعها ذات الارتفاع القليل المنبسطة، ومن السهل سوق الماشية ذهابًا وإيابًا في هذه المسالك الطبيعية في المراعي الصيفية والمراعي الشتوية. وهكذا كان لتربية الماشية في هذه الحياة القريبة الشبيهه بحياة الرحل دور هام في حياة إيطاليا الريفية في كل العصور. ولنلاحظ أن أهم القطعان لم تقتصر على الغنم والمعيز، ولكنها شملت الأبقار، وهذه أرق مزاجًا، ولها طريقتها الخاصة في الرعي، ولكنها أكثر نفعًا إلى درجة كبيرة، وأسلس قيادة من سائر النعم كذلك، وضررها أقل على ما تجاوره من المحصولات المزروعة، أو البساتين والكروم. والزراعة من جهة أخرى –ولو أنها تجزي عن الجهد الذي يبذل فيها– أشد عناء مما يبذل في غيرها.

وللكروم والزيتون قدر معلوم، وكذلك التفاح والبرقوق، وللقمح مكانة أسمى، ولقد زُرع بعد الشوفان مع الشعير والقمح، وبعض هذه النباتات تُروى بمياه العيون مع تأخر موسم الزراعة وطول فصل الشتاء. ومحصولات الحدائق أكثر قيمة :وبخاصة الحمص، والفول، والعدس، وهذه تتطلب جهدًا شاقًا ، وكان نظام الري – على ضيق مدى استعماله – يسمح بدورة سريعة في الزراعة إبان فصل الصيف، ولكنه يقيد الإيطالي إلى مزرعته، ولو أن ماشيته تغريه بعطلة يقضيها في المرتفعات المجاورة. فإذا ما انتقل فإن له مزرعة سابينية [٢٣] بين التلال كذلك. وعلى هذا فالفلاح

[٢٣] منسوبة إلى السابيين الذين كانوا يعيشون في جبال الأبنين الوسطى.

يقضي حياته عاملاً طوال أيام السنة، وليس لديه عطلة كما في المنطقة الإيجية، لا للحرب، ولا لما يبتكر من الصناعات. ولم تنشأ الحروب القبلية في إيطاليا القديمة من خلافات الجوار، ولكنها كانت تنشأ من الضغط الشديد من القبائل الوافدة، ومن ازدحام المكان بالسكان. ولرب مزرعة هذا اليوم سابينية يعمل بها غدا هوراس Horace، ولقد سترت كثرة الأخشاب، والصوان، والعظام النافعة من الحيوانات الكبيرة فقد إيطاليا الطبيعي في كل أنواع المعادن. وكانت نتيجة ذلك عصر نحاسي طويل Chaleolitic، أو كما يسميه الإيطاليون (الإنيوليتي Eneolitic)، يستعمل فيه الحجر الصالح الرخيص والبرنز الردئ الغالي معًا، وظلت المحلات صغيرة متناثرة يحكمها عدم الاكتراث الذي رأيناه في الرعاة، وكانت التجارة في إيطاليا في أدنى مستوياتها. ولم يكن في رمالها أو في تربتها إلا القليل من المعادن، ولم تكن قيمة الأخشاب والماشية تساوي قيمة نقلها على متن البحار حتى لو كان وجودها معروفًا لدى مراكز الصناعة القديمة. وعلى كل حال فلم يلق البحارة من وسائل الراحة ما هو شر ما تقدمه إيطاليا عامة وشواطئها الشرقية خاصة في أي مكان في البحر المتوسط كان لنا به اتصال. وعلى هذا كانت الكتابة والإدارة من الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها. ولم تكن هناك سبيل إلى الكسب من طريق التعاون، ولم يكن فيها أوامر تلقى، أو قول يقال أو يسجل.

وفردوس الفلاحين هنا –وهكذا كان وسط إيطاليا وجنوبها، وسيظل كذلك دائمًا– كانت تهدده تهديدًا شديدًا –كالمنطقة الإيجية– غزوات متتالية من أرض القارة الأوربية، ولكن النتيجة مختلفة في الحالين.

إن إيطاليا تبدو للنظرة الأولى وكأن الطبيعة حصنتها تحصينًا محكمًا ضد أي تدخل من ذاك الجانب أكثر من أية شبه جزيرة في العالم، وجبال الألب ترتفع وفيها من القمم ما يبلغ ارتفاعه أكثر من عشرة آلاف قدم فضلا عما يغطيها من الثلج الدائم، وهي تمتد على هيئة تلال من الرفييرا إلى دالماشيا، وتنتهي عند أحد طرفيها بأن تنزل تحت بحر عميق، وتنتهي عند الطرف الثاني بخط ساحلي ذي صفوف من الجزر ممتدة في الحبر حتى تتصل بجزر بلاد الإغريق، أما في الداخل فتقوم سلسلة جبال الأبنين Appennin وهي ممرات تتفرع من نفس مركز جبال الألب، وهي أقل منها ارتفاعًا، وذات ممرات سهلة العبور، ولكن تعوقها الغابات الكثيفة، وبين سلسلتي الألب والأبنين يقع أشد الحواجز الثلاثة مناعة: وهو وادي نهر ألبو المفعم بالمياه، والذي تمتد المستنقعات فيه مائة ميل أو أكثر ابتداء من دلتا على البحر الأدرايي، كما تمتد غابات البلوط مائة ميل أخرى تحيا فيها الخنازير والثيران المتوحشة، وتتصل بغابات سفوح التلال شمالا، وغربا، وجنوبًا، على أن جبال الألب –حدود دفاعية– كالقصبة المرضوضة، أو هي خائن رائع، فجانبها شديد الانحدار هو الذي يواجه إيطاليا، والسهول الطويلة المائلة في كلٍ من بلغاريا والتيرول تغري الناس في مروج الطونة بالعبور السهل حتى يجدوا أنفسهم –دون وعي منهم– في طريقهم إلى وادي ألبو. وليست جبال الأبنين أفضل من جبال الألب، فجوانبها الوعرة تكشر عن أنيابها جنوبًا أمام جنوا وفلورانسا لا أمام بولونيا وتورين، وروافد نهر ألبو تعمل عمل روافد الطونة، ولا يفرق إيطاليا وعالم الشمال إلا المستنقعات.

ولقد كان في وسع لمبارديا أن تصير مركزًا مستقلا للحضارة مثل بابل، وهي أدفأ مناخًا، والغابات التي تحيط بها أقل كثافة، وبها من الأشجار والقصب ما تستطيع أن تحارب به، كما يسمح مجرى نهر ألبو الأعلى المنحدر بفصل الرواسب الخشنة من الغرين بنسبة أقل مما في نهر بابل. ولكن نهر ألبو لم يسهل التغلب عليه.

وفي المنطقة الألبية ذات المتون الجبلية الكثيرة المتوازنة لم تجد كثير من المجاري الداخلية منافذ كافية لتصريف المياه، وبعضها لم يجد له منافذ بتاتًا، وصار بعضها بحيرات، وأمكن نمو الغابات فيها إلى حافة المياه إلا حيثما تمد السيول الجبلية البحيرات بالماء الغزير، وتمحو الدالات الصغيرة. ويبدو أن الماء واليابس على السواء لا سخاء فيهما إلا لمن يشتغل بالصيد دون سواه، ولكن الإنسان قد تعلم حتى على طول السلسة الجبلية الألبية كيف يعيش في يسر. فإذا ما اشتغل في قطع الأشجار الضخمة على شاطئ البحيرة فإنه يتخذ له حقلا على الشاطئ ينقيه من الأشجار، ويقيم في داخل المياة ممرًا محمولا على قوائم يأمن بها الدب وقط الجبل، ويأمن بها عدوًا له من بني الإنسان بما يضعه من ممر خشبي طويل يستطيع شده أو رفعه كلية إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وهو يضع على هذه القوائم رصيفًا عليه حظائر، ومخازن، ومصيدة لاقتناص السمك، وهو يلقي الفضلات في البحر ويربط الأطفال، ومن الغريب أن هيرودوت قد لاحظ ذلك في شمال المنطقة الإيجية وفسره بقوله: "لكيلا يضلوا الطريق"، وعند تمهيد الطريق أمام الممر الخشبي، وإزالة الأكوام تنمو بعض الحبوب، والخضر، والكتان للملابس، ولوازم صيد السمك، كما تنمو بعض أشجار التفاح، والأشجار

ذات الثمار الجافة، وينموالبندق البري فيما يلي هذه المنطقة. وكان صيد الحيوان وصيد الأسماك هما أهم ولا يزالان أهم مورد للغذاء والماشية، وهي ما يسهل الحصول عليها. هناك يمكن أن تربى على الألب: وهو شريط خصب ضيق في أعلى خط الشجر، تغطيه الثلوج في الربيع، ولكنه دائم الخضرة طول الصيف. أما في الشتاء فقد كان الأهالي يلزمون دورهم على الأرصفة، أوعلى مقربة منها. ولعل هيرودوت كان جادًا عندما قال: "أن الخيول من سكان الأكوام كانت تأكل السمك".

وفي معظم البحيرات في منطقة الألب كانت (مساكن البحيرات) تُبنى على هذا النمط في العصر الحجري. والحضارة هنا متماثلة بشكل ملحوظ على مسافات بعيدة. والواقع أن هذا لا يدعو إلى الدهشة، فإن الظروف الطبيعية بسيطة وقاسية، وزيادة هذا النوع من المساكن أضعافًا مضاعفة سريعة نظرًا إلى أن الشاطئ والمياه العميقة لا يتسع المكان لزيادة هذا النوع من المساكن أضعافًا مضاعفة في هذه المساكن. وعلى هذا فكلما زاد السكان —والزيادة هنا لا مفر من أطوارها مع توفر الأمن— فلابد من أن يغادر المكان أحد الأشخاص فيبنى مسكنًا جديدًا. وعلى هذا فالاستعمار عادة أساسية لدى سكان الأكوام، وتمكنهم قواربهم المصنوعة من الكتل الخشبية من الاتصال بكل شواطئ بحيرتهم، ونظرًا لوجود مراعيهم الصيفية في أعلى (الألب) فوق مستوى خط الشجر، فهذا يضمن لهم معرفة الممرات التي توصل إلى البحيرات الأخرى. وما إن حل النصف الأخير من العصر الحجري حتى كانت البحيرات الإيطالية كلها آهلة بسكان البحيرات التي كانت مزدحمة كما هي العادة دائمًا،

وهذه البحيرات لم تقع في أحواض مقفلة بل في أودية جانبية لها فتحات متصلة بسهل لمبارديا، ولا يسد هذه المسالك سوى كتل من الفضلات التي تحملها الثلوج، والتي كانت تسد الأنهار الجبلية وتملأ مجاريها العليا. ولكن كانت الأخشاب لا تزال موجودة في أسفل النهر، ويمكن استخدامها في عمل الأكوام، وهي نفس الأخشاب القريبة من المستنقعات التي قضت على كل الجهود البشرية لاستصلاحها. والآن وقد وصل الرجل الصالح إلى المكان فأصبحت العقبة الكأداء وسيلة التقدم، وانتشرت مساكن الأكوام المصنوعة على طراز أفضل ملائم للحياة، وعلى جوانب الأنهار انتشرت حتى وصلت إلى داخل المستنقعات على قدر مما كان يوجد من الأشجار لعمل الأكوام. وقد انتشرت مئات من هذه المساكن على حافة المستنقعات وعلى طول حضيض جبال الأبنين حتى وصلت إلى بولونيا Bologne، وإلى ما بعدها بقليل. وعلى مر الزمن، وبسبب الحاجة إلى الاتساع كشفت المجاري العليا لروافد الأنهار، وأقيمت في المواقع الصالحة سدود من الأعمدة الخشبية حتى تكونت بحيرات صغيرة صناعية، واستمرت إقامة الممرات القديمة المستطيلة، ولو أن هذه المساكن (الكفرية) أصبحت الآن على الأرض اليابسة تفي بجميع المقاصد والرغبات.

وليس من السهل انتزاع العادات القديمة كما تعلم، فقديمًا في عصر الحديد وراء جبال الأبنين حصنت الرومان معسكراتها الليلية بحفر خندق وإقامة متاريس من الخشب، ولا تزال أكواخهم مصفوفة على هيئة جزائر رباعية تشبه الأرصفة القديمة، وكذلك الجسر المقام على نهر التيبر

والذي احتفظ به هوراس Horatius أيام البطولات القديمة، كان جسرًا ذا أعمدة لم يوجد به مسمار واحد؛ ذلك لإمكان رفعه في ساعة واحدة إذا ما كان العدو على مقربة.

والظاهر أنه لم يكن ثمة شك في أن هؤلاء الأهالي أصحاب المساكن الكفرية كانت لهم مواصلات ميسرة بجميع المناطق التي أصلحوها، وكانت حضاراتهم وصناعاتهم غير منوعة، فيها تطابق عجيب في أسسها في جميع وادي نهر ألبو. ولم يكن يعوقهم عن التقدم أي عقبة —ما لم يحدث الخلاف فيما بينهم—؛ وذلك لأن معظم الأرض كان من صنع أيديهم. وأهم من ذلك أنهم كانوا كسادة صحراء رملية في وضع يمكنهم من إنشاء المواصلات، ووسائل النقل التي احتكروها بين إيطاليا وحوض نهر الطونة، وكانوا يقومون بها كلما كان في أحد هذين الجانبين من عناصر المدنية ما يستحق نقله إلى الجانب الآخر، ولقد اكتشف هؤلاء صلاحيتهم للقيام بهذه المهمة.

ولا يزال الغموض يكتنف الطريقة التي جاءهم بها هذا الكشف، وبعض الناس يؤكدون نسبة ذلك إلى الطريقة المفاجئة الجماعية التي تم فيها هجر هذه المساكن الكفرية مفضلين عليها الإقامة الحرة على اليابس. وإلى انتشار استعمال الحديد، وإلى أنماط مجودة من دبابيس الأمن، وإدخال الفن الهندسي البديع الخاص.

وهم يستنتجون أن القوة الدافعة هنا —كما حدث في المنطقة الإيجية— ترجع إلى غزو حديث قام به قوم من منطقة الطونة، يؤيدون رأيهم بالتباين الجلي في بعض الأماكن بين مقابر المحاربين ومقابر المدنيين، فإن هذه لا يوجد بها أسلحة رغمًا من أن بها وفرة في أنواع كثيرة من المصنوعات المعندنية الجميلة. ثم إنهم في حيرة من إيجاد أي تعليل للتوزيع الجغرافي للهجتين الإيطاليتين الأساسيتين المتفرعتين من اللغة الهندو أوربية اللتين يقسمان كل شبه الجزيرة الإيطالية باستثناء إتروريا Etruria، ولكن فريقًا آخر من الناس كانوا أكثر تأثرًا بالتطور التدريجي في كثير من المجالات الصناعية. وبقاء طراز بناء المقابر وحرق جثث الموتى بقاء متصلا، وبالحجة القوية بأنه لم يحدث اضطراب عام أو احتلال جديد بشبه الجزيرة الإيطالية مما نتوقع حدوثه لو أن مدنية المنطقة الكفرية التي حجبت الممرات الإيطالية كانت أزيلت إزالة مفاجئة أو عنيفة.

ولعل الحقيقة كامنة بين الرأيين، فلأول مرة منذ تركنا جوار النيل وجوار الفرات، نعالج موضوع حضارة مبنية على استصلاح عظيم لمملكة كانت من قبل في إقليم كانت لديه أيضًا إمكانيات قيمة في المعاملات التجارية مع أقاليم مجاورة تختلف عنه في المناخ ومصادر الثروة، ولا شئ يلفت النظر الآن في تاريخ بابل أكثر من الطريقة التي بها تمكن إقليم كهذا أُحكمت الرقابة الاقتصادية عليه تمام الإحكام من أن يتحمل غزوًا متكررًا قام به قام به رجال من ذوي القربى، أو من الأجانب —العيلاميين، والساميين في المقارنة البابلية التي ذكرها— دون أي مساس بتقدم المدنية، رغمًا من التقدير السريع لكل ما هو طيب: كالسلع الحديثة، والأخشاب،

والأحجار من عيلام، أو الآراء الحديثة كالتي كانت بابل مدينة بها للفكر السامي في الإدارة السياسية، وفي بعض نواحي الفكر والدين.

ولكي ننصف هذا الرأي الخاص بمجرى الحوادث في شمال إيطاليا يجب أن ننظر لحظة إلى كل من جانبي وادي نهر ألبو. أما في الجنوب فالأمر واضح إلى حد ما، فإذا استثنينا موضعًا واحدًا منعزلا على مقربة من تارنتم Tarentum يظهر أنه هو الذي هيأ فرصة، أو لعله أوجد مكانًا لمحلة على الأرض الجافة عند تيماري Timmari يشبه بشكل عجيب محلات الأرض الجافة في الشمال. إذا استثنينا هذا الموقع فإن هؤلاء الكفريين أوقفت جبال الأبنين انتشارهم، وأوجه الشبه بين الحضارة في وادي نهر التيبو وفي إترووريا Etruria القديمة لا يكاد يعتبر برهانًا على استيطان الكفريين بشكل دائم. وإن كان من المحتمل أن جماعات أخرى أقل حظًا من تلك الجماعة التي وصلت إلى تارنتم Tarentum حاولت هذا من حين إلى حين، وخلفت شيئًا من حضارتها وقليلا من دمها ولغتها. وعلى كل ليس هناك كفريون مطلقًا، ولا تزال المشكلة التي لم تحل –وقد أشير إليها فيما سلف– هي ربط توزيع اللغات الإيطالية بالمراحل المختلفة التي مر فيها التقدم المادي.

بناء على ذلك فالعصر الحديدي الأدنى –ويشبه العصر البرنزي الذي سبقه– حدث بانتقال تدريجي واضح، يرى فيه من ناحية تباينًا قويًا زاد على مر الأيام بين الأقاليم التي في شمال الأبنين، والأقاليم التي في جنوبها. ومن ناحية أخرى نرى تنوعًا ملحوظًا بين عدة مراكز مستقلة في

الأقاليم الجنوبية، تقع كلها جغرافيًا في أراض ساحلية منخفضة منعزلة على درجة كبيرة من الخصوبة الزراعية، ومن عزلتها هذه وصلنا إلى رأي (يؤيده التاريخ الإيطالي بقوة) بأن المرتفعات الوسطى من حدود الأبنين إلى كلابريا كانت طيلة هذا العهد في قبضة قبائل أكثر اشتغالها بالرعي تنتمي إلى أحدث المتكلمين باللغة السابلية Sabellian، وكان من السهل إقلاق هؤلاء، أو محوهم كلية رغم فترات متقطعة من الهدوء والهجرات المرتبكة صوب الجنوب.

وفي صقلية، وجنوب إيطاليا، وكمبانيا، وفي أودية بايسينوم Picenum القصيرة المنعزلة في أعلى الشاطئ الأدرياتي بقيت تلك العادة البالغة في القدم –عادة دفن الموتى في التراب– دون تغيير إلا في تيماري Timmari، ومن الواضح أن كل تقدم حديث في نواحي الحياة كان راجعًا إلى الاتصال عن طريق البحر بالحضارة الإيجية الحية التي أصبحت الآن حضارة إغريقية في معظم نواحيها. وظهر في إتروريا Etruria، ولاتيوم Latium تيارات متقابلة من التجارة الإغريقية المحمولة على متن البحار، تنافس صناعات وأحيانًا مصنوعات ما وراء جبال الأبنين. وكان دفن الموتى وحرق الجثث عادتين كلاهما متبع، وكان الناطقون باللغة الإيطالية من أهالي الأراضي المنخفضة يمثلون مرحلة من اللغة الهندو أوربية أقدم من السابليين Sabellians سكان الأراضي المرتفعة. ولو أننا لسنا على يقين بالتاريخ الصحيح الذي وصلوا فيه (لا ريب) أنهم أقاموا في شبه الجزيرة المحلية، وأن يمتزجوا بأهالي البحر الأصليين.

وكان نظام الحياة الاجتماعية في إيطاليا "الإيطالية" هو النظام الأبوي الدقيق، بل كان فيها أعرق –في دقته– منه في المنطقة الإيجية التي كانت أقل من إيطاليا احترافًا للرعي، وعلى قدر ما بينهما من فروق كان تخلف إيطاليا في الرقي الاجتماعي والسياسي، وقد ظلت مدة طويلة ليس فيها من حياة المدنية إلا نصيب ضئيل. وكانت العشائر المرتبطة بعضها مع بعض –برباط ضعيف– مقيمة في محلات مبعثرة نراها جائمة على حضيض الجبال للدفاع محيطة بالسهل اللاتيني. وعلى منحدرات تلال ألبان Alban في الوسط، وكان في كل من لاتيوم وكامبانيا، وربما في غيرها كذلك أحلاف إقليمية للدفاع المشترك وللعبادة العامة للآلهة الهندو أوربية على نحو ما كان عند الإغريق.

وفي الركن الشمالي من (الأرض المنبسطة) التي باسمها سميت لاتيوم، وسكانها (اللاتين Latini) في أقصى هذه الأحلاف الساحلية شمالا وأكبرها مساحة، يجري النهر الوحيد الصالح للملاحة في شبه الجزيرة (اليبر الأصفر) محملا بالغرين بعد اجتيازه منطقة الفيضان الخطير المتكرر. وما هذه (الأرض المنبسطة) في الواقع إلا ما كونته رواسب النهر عند مصبه العظيم.

وعلى بعد خمسة عشر ميلا من مصب النهر عند النقطة التي يخلو فيها من المستنقعات التي كانت تقي البلاد شر القرصنة توجد جزيرة، كما توجد بعض المواضع الضحلة في النهر تسهل الانتقال من الجنوب إلى أترووريا. رغمًا من أنها تعوق الملاحة، ويشرف على هذا المعبر تل منعزل

على الجانب اللاتيني يستطيع حمايته من أي اعتداء عادي. هذا هو التل البلاتيني Platine، وهو موقع (روما المربعة Square Roma)، التي كانت قائمة في عصر ما قبل التاريخ. وهذا الحصن كان في وسعه أن يمكن الأهالي من الناحية النظرية، وفي الأحوال العادية أن يصمد ضد أي اعتداء عليهم من أترووريا إلى أن يتجمع سائر حلفائهم. ولكن الأمور لم تكن في واقع الأمر بهذه البساطة، وهنا تدخل في الأمل رجل، وأغلب الظن أن الذي تدخل كان رجلا عظيمًا، عرف قيمة هذا الموقع القوي. ولعل الأسطورة التي تقول أن روما: "كانت في أول أمرها صومعة منعزلة أو ملجأ أو كهف أدولام [٢٤] Cave of Adullam" هي أسطورة صحيحة، أو كانت مهجرًا، أو مدينة يأوي إليها من لا عمل لهم من الجانبين. ولم تكن يومًا ما ملكًا خالصًا للأتينيين، وأقل من ذلك كان حبها للأتروسكين Etruscans، ولعل أهم عمل خطير كانت تقوم به المدنية في أول عهدها: قطع الطريق على المارة، وسلبهم أموالهم، ولابد أنه كان هناك سر في أن يكون رؤساء كهنة روما، بل ملكها الكهنة (صناع الجسور)، كما كان لقبهم عند ذلك. كان في أيديهم احتكار وظيفة الصلة بين لاتيوم وأترووريا على نحو ما كان حلفاؤهم ذو الألقاب الكهنوتية يدعون الوساطة مثلهم بين السماء والأرض. وكان يقيم في التلال الأخرى المنخفضة، أو في ما نتأ من الهضبة التي تحيط بالبلاتين Palatine نزلاء مستقلون أغلبهم من اللاتين، وإن كانت هناك رواية بأن أحد هذه المواقع كان محفزًا أماميًا للسابيين Sabine سكان المرتفعات، وكان أيضًا لتل أفنتين Aventine

[٢٤] كهف لجأ إليه داود عليه السلام هربًا من شاؤول الذي كان يطارده.

على مسافة ما نحو مصب النهر منعة خاصة، وهو يشرف على النهر بانحدار أشد من غيره من التلال عند الموقع الذي تنقطع فيه الملاحة بسبب جسر الأكوام، ولهذا كانت تنقل هنا البضائع من البحر برًا على نحو ما يحدث عند جسر لندن، وأكسفورد، وكامبردج، وباريس، وبلتيمور. وهنا أيضًا كان الملح الذي يستخرج من المياه الضحلة عند مصب النهر يوزع وينقل للتجارة، وكان طريق الوادي الداخلي من روما يسمى على مدى الأيام بطريق الملح. وهكذا أصبحت أفنتين Aventine أيضًا مستعمرة للأجانب مثل البلاتين The Palatine، ولكن على نحو مغاير. فإن سكانها كانوا من كل البلاد ويتكلمون كل اللغات، ولقد كانت أشبه شيء بالإيست إند East End [٢٥]، أو حي الأجانب، سمح بوجوده أولاً، ثم كان موضع تشجيع لفائدته، ولكن على أساس أنه حي خارج عن نطاق (السراة) الضيق الخاص برجال القبائل الوطنيين. كان في الواقع من (الدهماء) في معنى هذا اللفظ القديم الصحيح وهم مجرد أفراد متنقلين.

من هذه الأصول المشتبكة نشأت مدينة روما مدينة التلال السبعة ذات اللسان اللاتيني والحضارة اللاتينية، ذات البسالة السابلية، ذات العبقرية الأترورية Etrurian للعمل، وعبقرية فلسطين Philistine التي يضرب بها المثل، والكرم المعهود للأجانب المرغوب في إقامتهم. والمشكلة الوحيدة الخطيرة في شبه جزيرة إيطاليا تجيئنا من الأتروريين، ذلك الشعب العجيب الذي ذهب الناس في تاريخهم مذهبًا جريئًا كما فعلوا في تاريخ

[٢٥] حي في لندن.

الفينيقيين، أو الكلت Celte، فلغتهم لا يمكن إلى الآن قراءتها، رغم أنها مكتوبة في حروف أبجدية واضحة مقتبسة من التجار الإفريقيين، وكل ما تخاله واضحًا فيها أنها ليست الهندو أوربية، ولكن الأمر الذي لا يزال غامضًا أن نعرف إن كان الأترورين أتوا بها معهم من مكان ما، أو حالوا دون انقراض لغة قديمة كانت مستعملة في البلاد بوصولهم في الوقت المناسب إلى أتروريا، والمؤرخين الإغريق ومن تبعهم من المؤرخين الإيطاليين مجمعون على أن الأترويين من أصل أجنبي، ويكادون يجمعون على أنهم قدموا من المنطقة الإيجية، ولو أن هناك خلافًا في مجيئهم من ليديا Lydia، أو من جانب تساليا Thessalia، أو الدياك البحريين Sea Dyaks في برنيو Bornes. ومن المسائل المختلق عليها كذلك: هل جاءوا إلى أتروريا من طريق ساحلها، أو من مرفأ على البحر الأدرياتي عند مصب نهر ألبو؟

وإننا لنرى مؤقتًا أنهم جماعة كبيرة من المغيرين البحريين الإيجيين اتجهوا نحو الغرب في نفس الوقت الذي قام فيه جماعة آخرون مسمون باسمهم التورشا Tursha، واشتركوا في الاعتداء على مصر، وكان نزول هؤلاء في أتروريا الشق المُقال لنزول أولئك في فلسطيا Phelestia، والقليل الذي نعرفه في أتروريا عن إدارتهم الحكومية يؤدي إلى نفس النتيجة. فقد كانت لهم مدن مسورة قوية ينفرد بحكمها في شدة وطغيان سادة نبلاء، عاونهم أمراء الحرب، وكان يكثر فيها المبارزة البطولية، وكان يسودها الطغيان ضد سواد الشعب، وقد امتدت فتوحاتهم نحو الجنوب فاجتازوا لاتيوم إلى كامبيانيا، كما استولوا مدة قصيرة على وادي نهر ألبو جميعه إلى سفح تلال الألب Alps، وقد أدت سوء معاملة كبار أمراء

• التاركوين المتغطرسين): وهم الرؤساء الأتروريين لمنطقة لاتيوم، أدت إلى ثورة عارمة فيها؛ وذلك قبل سنة ٥٠٠ بمدة وجيزة، وقد قاومت الحصون الكمبانية Campanian حتى أجلاهم سكان المرتفعات السابليون Sabellian سنة ٤٢٤، ولقد تقوضت الإمبراطورية الأترورية حوالي هذه السنة نفسها قبل مجئ عدو جديد هم الغال المتوحشون. وفي روما كذلك كان الغال Gauls عند أبوابها سنة ٣٩٠، ولقد امتدت الغارات الغالية إلى مرأى من تارنتم إبان بضع السنوات القليلة التالية.

وإن ما حدث بعد ذلك من صحوة الأماكن التي في جنوب جبال الأبنين واستعادة قوتها السريعة بما فيها الجزء الذي بقي من أتروريا هو تاريخ روما المبكر. ولهذا فالفرصة مناسبة للعودة إلى السؤال عما كان يجري شمالي هذه الحدود ابتداء من العصر البرنزي الكفري إلى الغزو الغالي الذي ذكرناه.

الفصل الحادي عشر

فجر التاريخ في وسط أوربا وشمالها

بينما كانت صقلية وإيطاليا جنوبي جبال الأبنين تتشربان عناصر الحضارة الإغريقية الحديثة من طريق المستعمرات الإغريقية العظيمة في تارنتم Tarentems إلى سيراكيوز Seracuse، والفنون المادية على الأقل من طريق أتروريا، كذلك كان وادي نهر ألبو منجذبًا إلى اتجاه مضاد تمامًا وانقلب للمرة الثانية –لا يمكن بحال أن تكون المرة الأخيرة– حتى أضحى ذيلا لوسط أوربا في جنوب جبال الألب، والكتابة في هذا الأمر أشق من الكتابة في مجرى الحوادث من الجانب الإيطالي؛ وذلك لأن الأدلة كانت قليلة مع وفرة ما اعتمد فيها على الظن والحدس، فضلا عن اختلاف في الرأي بين أساتذة الحضارة وأساتذة اللغات يزيد حدته التعصب الجنسي، أو التعصب السياسيي.

ويقع السهل المجري العظيم وراء شبه جزيرة البلقان، ووراء حدود الألب الإيطالية المتقطعة، وتحيط به جبال الكربات، ويرويه نهر الطونة وروافده، وسفوح التلال التي تحيط به مغطاة بالغابات، أو الأشجار، ويلي هذا السهل كما في آسيا الصغرى نطاق عريض من المراعي يصلح على مر الوقت لزراعة الحبوب، ثم الاستبس المتوسطة التي تنتهي محليًا إلى صحراء وادي الطونة الأعلى، وهو واد متسع المسالك خصيب، حبته الطبيعة مع

هذا بأخشاب طيبة في حاجة إلى كشف مجاهله في الجهة الغربية، وعلى مسافة يسيرة من زاويته التي تقطع عندها مدينة فينا، تصل منحدرات سهلة عريضة بين واديه وبين وادي نهر الألب شمالا، وهكذا يتصل أيضًا عن طريق أراضي بوهيميا بالسهول الساحلية على بحر البلطيق، وسكانها ألبيون Alpine بصفة عامة أفادوا من صفات من وفدوا عليهم مرة بعد مرة من رحل الاستبس العظيمة كالهون Huns في القرون الوسطى، وهم أول من أدخل الحصان واللغة الهندو أوربية، وكالمردة البيض (الشماليين) من البلاد التي تحيط ببحر البلطيق.

وغير خاف أنه كان في هذا الإقليم مجال فسيح لمختلف ضروب الحياة، فللرحل المشتغلين بتربية الخيول وغيرهم من الرعاة الاستبس الوسطى، ونظرًا إلى أن أكثر من فصيلة من فصائل الخيل كانت معروفة حتى للشعوب الكفرية (Terramare) فلا جناح علينا من افتراض إقامة الشعوب المستخدمة للخيل في حوض الطونة، ابتداء من أول العصر البرنزي على أقل تقدير. ومن جهة أخرى كان لتنوع طبيعة الأراضي حول السهل ما جعل للسكان الحرية في الجمع بين معيشة الرعاة والمشتغلين بالزراعة، وهو عين ما تبينا من قبل على حافة أرض الحشائش الكبرى، وفي شبه الجزيرة الإيطالية، وأخيرًا نرى تحولا تدريجيًا في البيئة والمناخ في رءوس الأودية في التيرول إلى سفح التلال الجنوبية لجبال الألب، ثم منطقة الحضارة الكفرية.

ومن السهل أن تتبع حضارة سكان البحيرات: وهي تخطو على جوانب التلال من الجانب المقابل لنهر الدانوب على نحو ما حدث في الجانب الجنوبي لجبال الألب. مع هذا الفارق هنا إذ أن الحضارة كانت أسرع في التأثير؛ ولذلك لم تمر بالمرحلة الكفرية التي رأيناها في حوض نهر ألبو. لقد وجدت الحضارة في هذه الناحية من التلال عيلام لا بابل، ولقد تقدمت الحضارة الدانوبية Danubian طيلة عصر برنزي طويل مزدهر، وكانت متأثرة شيئًا ما بما جاءها من الحضارة المينوية في الجنوب، ولكنها كانت على بعد منها لا يسمح بتحكمها فيها. كما أنها قد توطدت وفق أساليب خاصة بها قبل أن تدرك ما لهذه من جمال وسحر. ويبدو أنها لم تكن منقطعة الصلة كلية بالمنطقة التي تلي الألب جنوبًا نحو روما، ولكن نظرًا إلى أنها لم تصادف من العقبات غير العادية ما كانت تعانيه الشعوب الكفرية فلا عجب أنها سارت بخطى أسرع، وأنها كانت أهلاً لأن تكون نموذجًا يقتدى به في حوض نهر ألبو عندما رضي الأهالي بذلك آخر الأمر.

على أن مشكلة المشكلات كلها هي معرفة النقطة المعينة في هذه السلسلة من الحوادث التي دخل فيها إلى شبه الجزيرة الفوج الأول والفوج الثاني من المتكلمين باللغة الإيطالية. ومن المؤكد أن الفوج السابلي الحديث Sabellian له صلة ما باللغة الأمبرية Umbrian التي كانت تمتد سكنى المتكلمين بها من رأس حوض التيبر إلى جبال الألب حتى الوقت الذي حدثت فيه الغارات الغالية، وكان حدوثها على ما رأينا حوالي سنة ٤٠٠ ق.م، وعلى هذا فقد سادت لغتا المنطقة التي تلي الألب جنوبًا بالتوالي في المدة بين قدوم الكفريين وقدوم الغاليين، والعهد الوحيد الذي تم فيه رُقي

غير عادي، وتم فيه تطور سريع في الكيف مما دلت عليه شواهد الحفائر: هو عصر الانتقال من المرحلة الكفرية إلى مرحلة الاستقرار على اليابس، التي تعد فلانوفا Villanova الملاصقة لبولونيا Bologne نموذجًا لها. وعلى هذا الأساس يرى البعض أنه هنا أدخلت اللغة الأمبروسابلية Umbro-sabellian.

ولكن هذا لا يقتضي حتمًا إزاحة الأهالي الأصليين، فقد كان لقدامى المتكلمين باللغة الهندو أوربية، كما كان للساميين كفاية عجيبة —لا نستطيع الآن تحليلها— في فرض لغتهم، وكثير من معتقداتهم وتصرفاتهم الاجتماعية على الشعوب التي وفدوا عليها، وتهيئة أنفسهم للاستمتاع بالحضارة التي وجدوها سائدة في الإقليم الجديد. ومن المؤكد كذلك استنادًا إلى تنوع التركيب الجسماني بين الشعوب التي كانت تتكلم هذه اللغات أن التعرض إلى مثل هذه الأجواء المتباينة والبيئات المختلفة فيه قضاء على بقاء الجنس الدخيل بمعزل عن الجنس الآخر، فهم إما قد امتزجوا بالمصاهرة وفقدوا شخصياتهم المستقلة، وإما انقرضوا تاركين لغتهم وأفكارهم ينشرها طلاب العلم من الجنس الآخر. ومن المحتمل كثيرًا أن الدخلاء قليلو العدد، وأن الكيف لا الكم هو الذي كان له الغلب، وعلينا أن نلاحظ أيضًا أننا بصدد إقليم أغزر أمطارًا، وأن أمطاره أعدل توزيعًا على أيام السنة من أي منطقة أخرى مرت بنا من قبل. إقليم أكثف غابات وأقل لذلك كثافة سكان من أي مركز من المراكز الشرقية، كما أنه أسهل جدًا لمن يريد من الغزاة أن يستوطنوه دون أن يجلوا السكان الأصليين، كما أنه أسهل اجتيازًا باستمرار إقلاقهم ما دام لدى هؤلاء

الدخلاء القدرة على الحركة في مثل هذه الأراضي المملوءة بالعقابات، وأشبه الأقاليم به شمال سوريا، والنصف الغربي من آسيا الصغرى مع فارق واحد: هو أن الجبل لا الغابات كان هو العقبة الكأداء دون الدخول.

ولنا أن نتصور الآن جميع إقليم السهول الدانوبية والتي وراء جبال الألب جنوبًا بصفة عامة منطقة واحدة متجانسة من حيث المدنية قبل نهاية العصر البرنزي، وأنها احتفظت بتجانسها هذا على مدى عهد طويل من السلام والصلات الحسنة، شابت ذلك العهد –دون أن يقطعه– كما في عهد التقدم في بابل والشواطئ السورية محاولات متعددة من جماعات طموحة، أو مكتظة مواطنهم بهم. حاولت أن تقوم بغزو أو تقيم محلات حديثة، وما لدينا من علم عن طبيعة هذه المدنية " الإيطالية الدانوبية Italo-Danubian نستقيه مما في مقابرهم من أثاث وفير، وبخاصة تلك المجموعات الخاصة بهم من الأواني المصنوعة من البرنز المطعم، والمزخرفة على نمط يظهر فيه التأثر بالفن الشرقي لبلاد الإغريق وشرق البحر المتوسط في القرنين الثامن والسابع. رغمًا من احتفاظ الأسلوب الفني باستقلاله التام في الشكل والعاطفة، وعلى هذه الأواني صورة الحياة الخاصة، وسباق المركبات، وعمليات الحرب، والأعياد، والاجتماعات العامة، وذلك إلى إضافات منوعة لما يتصل بالعادات الوطنية مما يوجد في نفس المقابر مع هذه الأشياء، وإنه لمن دواعي الأسف الشديد أن مثل هذا الشعب صاحب هذه الحضارة السامية ظل أميًا إلى عصر متأخر، وعلى ذلك لم يخلف لنا ما نأخذه عنه مباشرة من قوانينه، أو سياسته، أو عقائده الدينية. ومع هذا فقد وصلت إلينا بعض المعلومات عن طريق

علماء الجغرافيا في بلاد الإغريق، وفي روما ممن عاشوا في عصر قريب من أيامها الزاهرة، ومنهم عرفنا أن جماعة من الناس يسمون الكلتي Celtae —ومن الأسف أن الاسم قد حدث فيه تحريف منذ ذلك الوقت— كانوا يقيمون قبل حدوث الغزوات الغالية شمال الألب على طول وادي الدنوب كله. وأنهم وصلوا عند بلوغ أوسع مدى لهم إلى القرم شرقًا (حيث أحسوا بضغط السيذيين Scythians القادمين من الشرق على مدى سبعمائة ميل وأكثر) ولقد انتشروا حتى وصلوا إلى ما وراء نهر الرين Rhine، وإلى ساحل المحيط الأطلسي. وبعض سلالات القبيلة العظيمة المسماة بالبيتوريجين Bituriges الذين استوطنوا وسط فرنسا في الوقت الذي وصل فيه الإغريق إلى مارسيليا سنة ٦٠٠، ثبتوا أقدامهم في كثير من أنحاء أسبانيا، وأن وصفهم بأنهم طوال الأجسام ذو بشرة بيضاء مشربة بحمرة لا يحتملون حرارة الجنوب، يأكلون لحم الخنزير، ويشربون الجعة، ويركبون خيول السباق، ويجيدون قيادة المركبات، وأنهم محاربون فاتكون ذو فروسية وكثرة؛ ليعطينا صورة جديرة بأن تنعت بالدقة والصدق.

وهذه الملاحظات المتنوعة تكفي للتعرف على نماذج معروفة من السيوف، ودبابيس الأمان، وأشياء أخرى سهلة الحمل من البرنز والحديد تنسب إلى بعض عهود التقدم في منطقة نهر الدانوب، وقد وجدت موزعة بين المصنوعات المحلية في جميع هذه المنطقة باعتبارها من ممتلكات هذه الفئات الباسلة الذين أدخلوا حضاراتهم في هذه المنطقة، والذين أضافوها إلى إمبراطورياتهم القصيرة الأجل.

وبنفس الأسلوب الذي أوجز فيه هيرودوت وصف السيذيين Soythians، والثوسيديين Thucidid سكان تراقيا Thrace، يستطيع المؤرخ الحديث أن يوجز وصف الكلت Celts بقوله: "لو أنهم اتفقوا لا يقف شيء في طريقهم" ولكن في اللحظة التي وطئت أقدام هؤلاء الكلت عتبة التاريخ، كان الأعداء يحوطونهم من كل جانب. ففي الشرق أجلى السيذيون القيم السميري Cimmerian منهم من الاستبس (أرض الحشائش) جلاء تامًا، ففروا هاربين إلى آسيا الصغرى في القرن السابع، وكسروا دولة الليديين Lydians الناشئة حوالي سنة ٦٥٠، ثم تقدموا – كما فعل أمراء أرمينيا من قبل– حتى كانوا أخيرًا القشة التي قصمت ظهر آشور المتداعية، وبعد ذلك بقرن من الزمان تمكن الأتروريون من أن يقتطعوا جميع المقاطعة التي في جبال الألب جنوبًا. وبعد ذلك بقرون أخرى انفصل جانب منهم مقيم في وسط أوروبا من ذوي قرابتهم، وإن كانوا أغلظ منهم طباعًا، ممن كانت علاقتهم بمن كان الكتاب الرومانيون يدعونهم الكلب القدامى، أو الأمبرين Older or Umbrian Celts، كعلاقة السابيين Sabellian إلى الشعوب الإيطالية القديمة –انفصل هذا الجانب في مكان ما في الشمال، وسرعان ما وصلوا إلى مكان السيادة في أجزاء كبيرة في وادي نهر الطونة، وحوالي سنة ٤٠٠ ق.م انتشرت هذه القبائل (الغالية Gallic) جنوبًا، وأسسوا "غال ما وراء الألب" Cisalpine Gaul على آثار الحكم الأتروري، منقصين أطراف أتروريا نفسها، ناهبين روما سنة ٣٩٠، ومهددين لتارنتو Tarentum كما رأينا من قبل. ثم قامت جماعة منهم بعد قرن آخر واخترقوا بلاد الإغريق حتى

وصلوا إلى دلفي Delphi سنة ٢٧٩، وعبروا البسفور إلى دولة (جالاتيا) الحديثة في هضبة آسيا الصغرى، وربما كان هجوم الجيساتيين Gaesatae الذين كان يخشى بأسهم، الذي عجل تدخل روما فيما وراء جبال الأبنين أثرًا رجعيًا للحركة الجلاتية Galatian. وقد حدثت فتوحات مماثلة في الشمال الغربي بعد هذا، وتاريخها غامض غير معروف. ولكن ظِل البلجيكيين كان لا يزال ممتدًا إلى نهر السين في القرن الأول قبل الميلاد عندما أخضع تدخل يوليوس قيصر تحت حكم روما جميع البلاد من نهر الرين إلى المحيط، واستبدل الشرطة البحرية الرومانية بالفنيسيين البريتون Breton Veneti ليقوموا بالأعمال البحرية والتجارية التي كانوا يقومون بها، وقد وجدوهم يقومون بالأعمال التجارية مع الكلت، ومع أهالي بريتون Britian الأصليين.

وليس من أهداف هذا الكتاب أن نتتبع فجر التاريخ إلى الدنيا الحديثة، ولكن شعاعًا واحدًا من الضوء بين يومنا ويوم قيصر أخذ يضئ قبل أن يعبر نهر الرون الغال الخارجية Outer Gaul فإن الهلفيتي Helvetii (وكانوا في موقف المتحدي له بهجرتهم التي وقعت سنة ٥٨ ق.م) كانوا هم أنفسهم فريسة لضغط شديد من التبوتون الذين عبروا نهر الرين الأعلى، وفي السنة عينها كان على قيصر أن يكون على حذر من جيش أريوفستوس Airovistus التيوتوني الذي كان يحاول أن يغزو الغال خلال الثغرة التي بين جبال الفوج وجبال جورا.

ولكن اختلاف اللغة بين التيوتون والكلت أخفى عن النظر وحدتهم في الحضارة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية فضلا عن أن دماءهم في ذلك الوقت صارت مزيجًا من العناصر الشمالية، والألبية بنسب متفاوتة، ولم يكن من السهل على أحد من الجنوب أن يفرق بين الفريقين، ولم يكن تكاثر التيوتون في منطقة أوربية متوسطة يحيط بها سلسلة جبال الكربات، ولكن في تلك الأرض المنبسطة التي تكسوها الغابات بين هذه الجبال، وبين بحر البلطيق ، ويشمل موطنهم المنطقة التي تمتد قاشر من مستنقعات بربت Pripet إلى نهر الأودر Oder غربًا، ولقد وجدنا أثرًا لهم خارج هذه الحدود، ولكن ذلك منسوب إلى تقدمهم في عصر متأخر، وهذا الاتصال الذي كان لهم بحضارة البحر المتوسط –تلك الحضارة الهلينية Hellenic بوجه عام– ومن المحتمل أنها كانت حضارة مينوية أيضًا؛ لأن تجارة الكهرمان التي كانت أساسًا لها غاية في القدم. هذا الاتصال كان يقوم به وسطاء دانيوبيون Danubian مما وراء الألب فوق ما يقومون به من بيع سلعهم، وقد انتشرت اللغة الهندو أوربية هنا أيضًا، ولكننا لا نعلم على وجه التحقيق الوسيلة التي انتشرت بها ولا موعد انتشارها. ولكن من المؤكد أن الحركة كانت هنا مستمرة وخصوصًا في النزوح من أرض الاستبس. ولقد حدثت غارات ثانوية من حين إلى حين قام بها أفراد قليلون، وكانت ذات أهمية سياسية أكثر منها ذات أثر جنسي. وكذلك لا يمكن في هامش إحدى صفحات الكتاب الأخير إلا أن نرسم الخطوط العريضة فقط للهجرات الحديثة للعشوب الاسكندنافية الذين أنشئوا أول قوة بحرية بعد انسحاب قوة خفر السواحل الرومانية، وقد بدأت حضارة

هذه الشعوب بعصر حجري زاهر تنافس المصنوعات الصوانية المختارة فيه مثيلاتها المصنوعة في فقط المصرية، ثم أعقبه عصر برنزي لا يقل عن سابقه ازدهارًا، ظهر على كلا الشاطئين، مما نرى فيه بحق مميزات المنطقة الشمالية من البحر المتوسط، وكما أن الجزء الجنوبي من البحر المتوسط يقع أرخبيلة في فجوته الداخلية وكل شواطئه القاحلة محصورة بين هذه وبين المحيط الأطلسي، فكذلك إيجة Aegean الاسمندناوية تقع بين السويد، والدنمارك، وبوغازها الشبيه بجبل طارق عند البسفور. وهنا الطريق العظيم الموصل إلى حوض الدانوب، والمنطقة الجنوبية الصناعية خلال وادي نهر الألب. فمن الطبيعي أن تنشأ هنا لا في كريت في العصر الميناوي، ولا في قرطاجنة، ولا في روما نفسها أول قوة بحرية في المحيط الأطلسي لها أكثر من مجال مائي واحد.

وكان الشعب الذي أنشأ هذه القوة من حيث أصله "شماليًا" غير مختلط. ومع هذا فقد كان من حيث اللغة هندو أوربية إلى الحد الذي حمل الكثيرين على تأييد الرأي القائل بأنه هنا كان مصدر مجموعة اللغات الهندو أوربية كلها، ولكن من المستحيل تحديد تاريخ هذه اللغات في هذه المنطقة، أو تاريخ النظم القائمة فيها. حتى إن العصر البرنزي والعصر الحديدي القديم اختلف تحديد موعدهما، ومع هذا فليس لهذا كبير أهمية؛ لأن التاريخ قد بدأ هنا في عصر متأخر حتى بالنسبة إلى التيوتون، هذا ولو أن هناك صورًا في بوهسلان Bohuslan في السويد تسجل أعمالا بحرية في البلطلق تنسب إلى عصر قديم جدًا، فإن العهد الزاهر للشماليين يقع ما بين القرن التاسع والثاني عشر. ومع هذا فمدى أعمالهم كان في غاية

السعة، فقد نفذوا برًا إلى قلب روسيا حتى وصلوا إلى البحر الأسود، وعن طريق البحر استعمروا أيسلاند، وقاموا بأعمال كشفية إلى ما وراء جرينلاند، وفتحوا نورمانديا كلها وجزءًا كبيرًا من بريتاني Brittany، وتركوا أثرًا كبيرًا في الشعوب القديمة على سواحل كل "البحار الضيقة"، كما قاموا بالقرصنة في البحر المتوسط، وساعدوا في إعداد الحملات الصليبية؛ إذ استردوا صقلية من العرب، وجنوب إيطاليا من اليد الواهنة التي كانت للدولة الشرقية المحتضرة، ولقد علموا سكان شواطئ المحيط الأطلسي وملاحي البحر المتوسط أساليب الملاحة وبناء السفن، وهو ما يضمن لكل من لديه الشجاعة على استخدامها أن يكون صاحب السلطان في المحيط الأطلسي في جانبيه على السواء في الوقت المناسب، وقد كان التحكم في المحيط الأطلسي هو آية الوصول إلى عالم حديث.

وصفوة القول إن من دراستنا لعدد من الشعوب النموذجية التي لا تاريخ لها وصلنا إلى تلك النتيجة التي تقرر أنه قد يحدث في كثير من الظروف أن معركة البقاء التي يشنها الإنسان مع الطبيعة هي في الغالب سجال بينهما، حتى إنه لا يحدث في الحياة أي تغيير مادام الناس أنفسهم يظلون على حالهم دون أي تغيير، ما دام العالم الذي يعيشون فيه يظل بلا تغيير كذلك. ولقد اتضح لنا أن الأحوال ظلت فعلا بلا تغيير في مساحات كبيرة في العالم ولآماد طويلة من الزمان، وأنه مادام ذلك كذلك فليس هناك تاريخ يستحق أن يسجل.

ويتضح بناء على هذه الحقيقة كنتيجة عكسية لها أن الأحداث التاريخية تقع كلما حدث اختلاف في ميزان القوى بين الإنسان والطبيعة؛ إذ تحمل هذه الظروف الإنسان على أن يسيطر على الطبيعة من جديد، ومما درسنا من أمثلة لذلك في وادي النيل، وفي وادي الفرات، وفي جزائر البحر المتوسط وأشباه جزائره، وفي غابات أوربا الوسطى، وفي البلاد الواقعة على بحر البلطيق، وفوق هذه جميعًا في أراضي الاستبس شمالي المنطقة الجبلية وجنوبيها، أخذنا نرى بصفة عامة ثلاثة أنواع "للحادث التاريخي" بمعناه الخاص.

أولا: قد يحدث التغيير في نفس صفات الشعب، فمن المألوف لدينا ظهور فرد ذي عبقرية في أسرة لم يظهر فيها من قبل أي أثر للذكاء، وغير خاف أنه لا يوجد ما يمنع ما يحدث نادرًا مرة واحدة من أن يحدث في جيل كامل. قد يكون حدوثه أندر بطبيعة الحال، ولكن حدوثه من الكثرة بحيث يلفت نظر المؤرخ ويأبه به. ولقد كان كل من القرن الثالث عشر في أوربا، وعصر إليزابث في إنجلتيرا مثلا لهذا النوع، ولا نكاد نرى من الضروري ان نقرر أن القوة المحركة لهؤلاء العباقرة غير متناسبة مطلقًا مع عددهم. أو أن كفايتهم مع عدم تناسبها تزداد بنسبة أكبر إذا ما اتفق لعدد من العباقرة العظماء أن يعملوا لحسن الحظ مجتمعين.

ثانيًا: قد يلحق التغيير طبيعة المنطقة، وأفضل مثل يدل على هذا التغيير ما يطرأ على المناخ فيؤثر على وسائل الحصول على مقومات الحياة،

وهو إما أن يدفع إلى الهجرة إلى بلاد أخرى، وإما إلى اجتذاب المهاجرين من سائر البلاد الأجنبية.

وثالثًا: دون حدوث أي تغيير في طبيعة المنطقة، أو في صفات سكانها، فإن تغييرا في مكان آخر –في الإنسان، أو في الطبيعة– قد يلقي بأقوام مستحدثة إلى حيث يتصلون، أو يصطدمون بسكان البلاد الأصليين، وحيث يقع بينهم وبين الطبيعة ضروب جديدة الصراع، ينتهي بتفوقهم على الموارد الطبيعية، وتستوي كل أنواع الاضطرابات هذه في نتائجها المباشرة التي تجعل حياة الإنسان أشد قسوة، فإما أن تكون الأحوال الجديدة في حاجة إلى مجهود أكبر مماثل للمجهود الأصلي، وإما أن يصبح نفس المجهود غير قادر على إنتاج الأثر المطلوب، وعلى كل من يكفّون عن القيام بالمجهود المطلوب، أو لا يستطيعون القيام به فعليهم تقع تبعة عجزهم، وكذلك تصبح الحياة أشد تعقيدًا. فليس فيها عمل أكثر فحسب، بل فيها حاجات أكثر يجب عملها، فالعمل متنوع كما هو مختلف، وأصبح هناك تخصص في العمل والعمال، ونتيجة ذلك هي المدنية والوطنية، وهي القدرة على أن نعيش في عالم متمدين، ولكن الناس يعبرون عن محاولتهم أن "ينعموا بالحياة" في كل مكان حسب ما يناسبه.

ولقد كان هدف هذا الكتاب أن يتتبع هذه المراحل حتى تبلغ ذروتها في "عصر تاريخي" في الأماكن التي كانت مصدرًا لمدينتنا، وإنها لمحاولة منا أن نطبق النقد الجغرافي من الوجهة الجغرافية على التاريخ، والنقد التاريخي على الجغرافيا، وعلم الحياة عليهما جميعًا، والنتيجة –ولا أحد

أكثر علمًا بها من المؤلف نفسه– أننا وصلنل إلى صورة غير واضحة المعالم –مؤقتًا– فإذا ما أحس القارئ بأن هناك ميلا منه إلى غلبة النظرية البيولوجية في موضوع هذا الكتاب. فقال متذمرًا مع من قال "إني أرى الناس كأنهم أشجار متحركة" فليذكر أن من قال هذا القول سوف ينتهي إلى حيث يرى الناس في غاية الوضوح.

المراجع

(١) فيما بين الإنسان والبيئة صلات:

- Brunhes: Etode de Geographie Humaine.

ترجمة إنجليزية ١٨٩٨

- Ratzel: History of Mankind.
- Von Holmot: Weltgeschichte.
- Réclus: La terre.
- Langlois & Introduction to the study of History.
- Segnobos

ترجمة إنجليزية ١٨٩٨

- For outline of saveage & atriacheal society, see .
- Jenks: History of Politics.
- For types of primitive society, see.
- Demoline: Comment la route crée le tye social.
- Preville: Les societées africaines.

وسلسلتين فرنسيتين تسميان:

- La science sociale.
- L'année socioloque,

(٢) في جغرافية المنطقة التي وردت في الفصل الثالث

- Hograth: Nearer East.
- Ripley: the races of Europe.
- Sergi: the Mediterranean Race.
- Deniper: the races of Man.
- Philippson: Das Mittelmeergebiet.
- George Adam Smith: Historical Geography of Holy Land.
- Partsch: Central Europe.
- Ellsworth Huntington: the Pulse of Isia.

(٣) في تاريخ الشرق القديم

- Eduard Meyer: Geschichte des Alterthums.
- Maspero: L'historie Ancienne des Peuples de L'orient.
- King & Hall: Egypt and western asia in the light of recent discoveries.
- Hall: Ancient History of the near East.
- Hogarth: Ancient East.

- **King: King's History of Sumer & Accad.**

(٤) في مصر

- **De Morgan: Les Premieres Civilisations.**
- **Breasted: History of Egypt.**
- **Newberry & Garstang: short History of Ancient Egypt.**
- **Flinders Petrie: Flinders Petrie's History.**
- وغيره : **Griffith**في الموسوعة البريطانية **Egypt** فصل بعنوان:
- **De Morgan: Life in Ancient Egypt.**
- **Reisner: Early Dynatic Cemetries.**
- **Elliot Smith: the Ancient Eeyptians.**

(٥) في بلاد العرب

- **Robertson Smith Kinship & Marriage in Early Arabia.**
- **Hogarth: Penetration of Arabia.**
- **For the Legislation of Hammurabi see**
- **S.A Cook: The laws of Moses &code of Hammurabi.**
- **Driver: Modern Research as illustrating the Bible.**

(٦) في آسيا الصغرى

- **Sayce: Hittites.**
- **Garstand: Land of the Hittites.**

(٧) في العصر المينوي

- **Mr. & Mrs. Hawes: Creat the forerunner of Greece.**
- **The New Encycl. Brit. Aegean Civilisation.**
- **Evans: Civilisations Pre-Helleniques.**
- **Hall: Aegean Archeorology.**
- **Zimmern : the Greek Commonwealth.**

(٨) في اللغات الهندو أوربية :

- **Schrader: Prehistoric Antiquities of the Aryan People.**
- **Saac Taylor: Origin of the Aryans.**

(٩) في بلاد اليونان في العصر التاريخي

- **Hograth: Ionia and the East.**
- **Helbia: Homerisches Epos.**
- **Cauer : Grandfragen der Honerichen Kritik.**
- **Ridgeway: Early Age of Greek Epic.**

- **Murrey: Rise of the Greek Epic.**
- **Lang: Homer & his Age.**
- **Lan: the World of Homer.**

(١٠)   في تاريخ إيطاليا القديم

- **Peet: Stone & Bronze Age in Italy and Sicily.**
- **Modestov: Introduction A l'hisotoire Romaine.**
- **Bertrand: Les Celts dans les valiées du po et du Danube.**
- **Dechelette: Manuel a'archeologie.**

(١١)   في الآثار الكندونانية والشمالية

- **Montelius: The Civilisation of Sweden in Heathen Times.**
- **Warsace: the Prineval Antiquities of Denmark.**
- **Sophus Nuller: Nortische Alterthum Skunde and Urges-chichte Europae.**

وفي الموسوعة البريطانية تحت عنوان:

- **Scandinavian Antiquities.**
-

الفهرس

تقديم ٦

مقدمة المؤلف ١٥

الفصل الأول : الشعوب التي لا تاريخ لها ١٩

الفصل الثاني : مسرحية التاريخ – المسرح وممثلوه.......... ٣٣

الفصل الثالث : فجر التاريخ في مصر ٤٨

الفصل الرابع : فجر التاريخ في بابل ٨٣

الفصل الخامس : قدوم الساميين ١٠٢

الفصل السادس : جيران بابل وسكان المرتفعات ١١٥

الفصل السابع : فجر التاريخ على طول المعابر البشرية ١٣١

الفصل الثامن : فجر التاريخ في شرق البحر الأبيض المتوسط .. ١٥٤

الفصل التاسع : قدوم أهل الشام ١٧٩

الفصل العاشر : فجر التاريخ في إيطاليا ٢٠٥

الفصل الحادي عشر : فجر التاريخ في وسط أوربا وشمالها ٢٢٤

المراجع ٢٣٨